صدام الحضارات



Clash of Civilizations

Le Choc des Civilisations

**
*

صامويل هانتنغتون — وجيه كوثراني
كيشوري محبوباني — محجوب عمر
جين كيركباتريك — حسن عبد الله الترابي
ليو بينيان — فؤاد عجمي



مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق



صدام الحضارات

صدام الحضارات



صدام الحضارات

الطبعـــة الأولى

بيروت ـ ١٩٩٥

مركز الدراسات الإستراتيجية والبحوث والتوثيق

بئر حسن ـ شارع السفارات

تلفون : ٣١٩٧٤٤ ـ ٨٢٠٩١٣ ـ ٨٢٠٩٢٠ ـ ٨٣٣٦٩٨

فاكس : ٨٣٥٤٩٥ (٠١)

ص . ب . : ١١٣/٥٦٦٨

بيروت ـ لبنان

المحتويات

توضيح

يستعيد هذا الإصدار الخاص ملف المناظرة في شأن «صدام الحضارات» الذي سبق أن نشرته مجلة **شؤون الأوسط** على مراحل في أعدادها ٢٦ و٣٠ و٣٦. ويضم هذا الملف مقالة صامويل هانتنغتون «الصدام بين الحضارات» التي نشرت في دورية «فورين أفيرز» (*Foreign Affairs*, Summer 1993) والتي كانت الشرارة التي أطلقت المناقشة حول الموضوع، واستدعت ردوداً من اتجاهات ومواقع مختلفة في أميركا وأوروبا والعالم الثالث، ثم يلي أهم الردود التي صدرت في الولايات المتحدة الأميركية على مقولة صدام الحضارات والتي نشرتها أيضاً «فورين أفيرز» (*Foreign Affairs*, December 1993)، وكذلك رد هانتنغتون على الردود على مقالته الأولى، والذي يؤكد فيه على ما سبق له أن أعلنه في ما يتعلق بالأبعاد الاستراتيجية لصراع الحضارات / الثقافات في مرحلة ما بعد الحرب الباردة.

وقد عمدت مجلة **شؤون الأوسط** إلى الطلب من عدد من الكتّاب والباحثين العرب والمسلمين تقديم مساهمات حول الموضوع نفسه، للوقوف على وجهة نظر مختلفة تعبر عن آراء النخب في المنطقة العربية ـ الإسلامية من مقولة «صدام الحضارات». وفي هذا الإطار، كانت مساهمات كل من الدكتور وجيه كوثراني والدكتور محجوب عمر. ثم أضفنا مساهمة المنظر الإسلامي السوداني، الدكتور حسن عبد الله الترابي، نظراً إلى أهميتها في محاولة تأطير الحوار بين الإسلام والغرب.

وتأمل مجلة **شؤون الأوسط** أن تكون قد وضعت بين أيدي الباحثين والدارسين والمهتمين بموضوع الحوار / الصراع بين الحضارات، إصداراً مفيداً وغنياً بمادته، على أن تتبع ذلك خطوات مماثلة في مواضيع استراتيجية أخرى.



تقديم وتنبيه

موضوع «صدام الحضارات» ليس آخر صرعة في عالم يجمع بين الاستشراف الديبلوماسي وفلسفة التاريخ، كما يخيل لبعض الباحثين الأوروبيين في فرنسا وألمانيا. إنه يمثل الإطار المفاهيمي لسياسة «الاحتواء المزدوج» التي تنتهجها الولايات المتحدة الأميركية في الشرق الأوسط العربي / الإسلامي منذ حرب الخليج الثانية؛ ولو لم يكن له هذه الوظيفة الاستراتيجية في مواجهة الإسلام السياسي بشقيه الأصولي والتوليفي، لما تبنته مجلة فورين أفيرز الأميركية النافذة في واشنطن على هذا النحو الذي أثار مناظرة واسعة تعدت أصداؤها حدود الولايات المتحدة، وأُعطيت فيها لكاتبه البروفسور صامويل هانتنغتون الكلمة الأخيرة.

أما مسألة التفريق بين «الصواب» و«اللغط» في الخطاب الاستراتيجي، فهذه كانت وظيفة الرد على الردود، والذي اتسم بالوضوح إلى درجة الفجاجة، من دون أن يعني ذلك أن الأفكار الواردة في النص الأصلي ثاقبة أو صحيحة علماً أن هذه المسألة تعني أساساً التركيب المعقد لآلية صنع القرار في السياسة الخارجية للولايات المتحدة. وهنا، يمكن أن نلتقط أهمية المستويات الوسيطة في عملية صنع القرار، وخصوصاً دور مراكز الدراسات الاستراتيجية، ومنها «معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى»[1] الذي يُشرف عليه مارتن أنديك، ويضم في عداد هيئته الاستشارية جين كيركباتريك[2].

---

(١) أساس البناء الفكري الذي يسند مبادرة السلام الأميركية في الشرق الأوسط، والتي أطلقت في مؤتمر مدريد عام ١٩٩١، موجود في تقرير عنوانه «البناء من أجل السلام» صدر في أيلول/ سبتمبر ١٩٨٨ عن «الفريق الرئاسي للدراسات» التابع لمعهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى المعروف بتأييده المطلق لإسرائيل.

(٢) مارتن أنديك هو في آن المدير التنفيذي لمعهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى والمدير العام لشؤون الشرق الأدنى وجنوب آسيا في مجلس الأمن القومي الأميركي. نشرت له مجلة **الدراسات الفلسطينية** (العدد ١٥ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٣) تقريراً عن «سياسة إدارة كلينتون حيال الشرق الأوسط» يتناول تطبيق مفهوم «الاحتواء المزدوج». والتقرير هو في الأصل مداخلة ألقيت في معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى في ١٨/ ٥/ ١٩٩٣. له في سلسلة مقالات معربة الصادرة عن مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق دراسة بعنوان «ما وراء توازن القوة / خيار أميركا في الشرق الأوسط».

وفي هذا الإطار، يمكن أن يُشار، أيضاً، إلى أن المستشرق الأميركي اليهودي، برنارد لويس، يحرص، منذ وقت طويل، على دفع المتفوقين من تلاميذه إلى مواقع حساسة في هيكل الإدارة الأميركية[٣].

لكن، أين الجديد في ما يذهب إليه هانتنغتون، أستاذ العلوم السياسية في جامعة هارفرد؟

إنه يعلن، منذ البداية، أن خطوط الانقسام الثقافية ستكون المصدر الرئيسي للنزاعات المقبلة في العالم، وأن الثقافات / الحضارات يمكن أن تحتضن مجموعات متعددة من الشعوب، وأن تنقسم إلى فروع أو تتوسع وتتبدل أو تنقرض وتزول، لكنها تظل تعبِّر عن واقع راسخ يتجاوز الأمم في ذاتها؛ ويذكرنا بأن أرنولد توينبي أحصى في دراساته التاريخية ٢١ حضارة تعاقبت عبر العصور، منها ست حضارات لا تزال حية. وها إن هانتنغتون يكتشف بدوره أن الحضارات في يومنا هذا يقارب عددها السبع؛ وهي الغربية والكونفوشيوسية واليابانية والإسلامية والهندوسية والسلافية الأرثوذكسية والأميركية اللاتينية.

ويتابع هانتنغتون عرضه مؤكداً أن النزاعات الكبرى في المستقبل ستدور على خطوط التماس بين الحضارات، وذلك لأسباب يحددها كالآتي: الاختلافات بين الحضارات جوهرية لناحية التاريخ واللغة والثقافة والتقاليد والدين؛ العالم، منذ أخذ يضيق على سكانه، يجعل الانتماءات المرتبطة بالحضارات تفاقم حدتها، وبالتالي تتفاقم النزاعات المتصلة بذلك؛ «ثأر الله» بات يمثل مرجعاً لوعي الذات داخل مجال الحضارة الواحدة، فيما تتلاشى حدود الوعي القومي؛ الغرب يفقد جاذبيته بالنسبة إلى النُخب في الحضارات الأخرى، فيما هي تعيد اكتشاف جذورها؛ التمايزات الثقافية تبدو أعمق من تلك التمايزات المتصلة بالسياسة أو الاقتصاد.

ويقول هانتنغتون إن الحكومات تُبرز قيمة الهوية الإثنية والدينية من أجل تعبئة السكان، بعدما تبين لها أن الإيديولوجيات تجاوزها الزمن. ومثل هذه الهويات تعمق الاختلافات بين الحضارات وتعزز المنازعات، وخصوصاً منازعات الجوار.

---

(٣) يحتل برنارد لويس كرسي دراسات الشرق الأدنى في جامعة برنستون في الولايات المتحدة. يكلف نفسه أحياناً في نطاق الدائرة الجغرافية لاختصاصه بمهمات استقصاء تعود بالفائدة على دوائر التخطيط الاستراتيجي في واشنطن، وهذا ما فعله تحديداً في أنقرة خلال الأزمة، ثم الحرب الثانية في الخليج لسبر الاتجاهات وردود الفعل التركية إزاء احتمال توجيه ضربة عسكرية للعراق. نشرت له فصلية *Foreign Affairs* في خريف ١٩٩١ نسخة معدلة عن محاضرة عنوانها "Rethinking the Middle East".

أما تعميم المبادىء الديموقراطية والليبرالية الغربية، فإنه يولِّد ردود فعل سلبية، حيث إنه ينطوي على نزعة أمبريالية. وهكذا، فإن صدام الحضارات ينشأ في آن على المستوى الأدنى للجوار، وعلى المستوى الأعلى للسلطة العسكرية والاقتصادية والتحكم في المؤسسات العالمية والشركاء الخارجيين ونشر القيم السياسية والدينية.

وإن الافتراق بين الغرب والإسلام ما برح يتنقل عبر العصور الممتدة من الفتح العربي / الإسلامي إلى مرحلة نزع الاستعمار؛ والتناقض الذي تصاعد مع عاصفة حرب الخليج الثانية ليس مرشحاً لأن يزول في مستقبل قريب؛ وإذا كانت الشعوب تتطلع إلى المزيد من الديموقراطية، فإن أي تقدم يُسجل في هذا المضمار من شأنه أن يرجح كفة الإسلاميين الذين يمثلون تهديداً جديداً للغرب؛ والاختلال في المعادلة الديموغرافية يضفي المزيد من التعقيد على الوضع من حيث إنه يولد موجات للهجرة. وإلى احتمالات النزاع هذه مع الشمال، يُضاف، بالنسبة إلى الإسلام، التوتر مع المسيحيين والإحيائيين في إفريقيا، فضلاً عن الصراعات الحضارية الدائرة في منطقتي البلقان وآسيا الوسطى، ناهيك بالاشتباكات المديدة في شبه القارة الهندية.

المهم أن الكاتب يكشف، في ضوء محاولة يبين فيها كيف أن المفاهيم التقليدية الناظمة للتوازن والإيديولوجيا السياسيين أخذت تخلي المكان لمفهوم التضامن بين البلدان الشقيقة المنتمية إلى الحضارة نفسها، أن النسق الأخطر للتعاون بين بلدان غير غربية هو الترابط الإسلامي ـ الآسيوي الذي تشكل للوقوف في وجه المصالح والقِيَم الغربية. ويرى أنه في الوقت الذي يعمل الغربيون والروس على تقليص قوتهم العسكرية، فإن الصين وكوريا الشمالية وبلداناً أخرى في الشرق العربي / الإسلامي، مثل إيران وباكستان وسوريا، تعزز طاقتها الدفاعية عبر استيراد السلاح أو تطوير صناعة عسكرية محلية.

ويخلص إلى أنه يتعين، في المدى القصير، توثيق التعاون بين المكونات الأوروبية والأميركية للحضارة الغربية، وبناء علاقات أوثق مع أوروبا الشرقية وأميركا اللاتينية، والتعاون مع روسيا واليابان، والحد من النمو العسكري للدول الكونفوشية والمسلمة، والاعتدال في تقليص القدرة العسكرية الغربية، مع الحرص على الحفاظ على التفوق في شرق آسيا وجنوب شرق آسيا، ومساندة المجموعات التي تنزع نحو الغرب في الحضارات الأخرى.

هذه، باختصار، المحاور الرئيسية لخطاب استراتيجي مركب يحض على ضرورة اتخاذ تدابير في المدى الطويل للتعامل مع الحضارات / الثقافات غير الغربية التي حاولت أن

تـدخل عصر الحداثـة والتحـديث من دون أن تتغـرب أو تتغـربن ، لكنهـا فشلت في ذلك ، باستثنـاء اليابـان ، والتي تُصر على مـواصلـة محاولة التحـديث من دون التخلي عن ثقـافتهـا التقليديـة . لا ينسى هـانتنغتون أن ينبـه إلى أن قدرتها الاقتصـادية والعسكـرية ، بـالنسبة إلى الغرب ، لن تتـوقف عن النمو، مشدداً على أنـه يتعين على الغرب أن يتكيف مع هـذا الوضع بالحفاظ على قدرته الاقتصادية والعسكريـة ، وكذلك بالحصول على معرفة أفضل بالحضارات / الثقافات الأخرى ، وبالطريقة التي تنظر فيها الشعوب الأخرى إلى مصالحها .

ولقد رأت هيئة تحرير **شؤون الأوسط** أنـه من الأفضل أن يترك للقـارىء أن يبحث عن تفسيره الخاص لمعنى مقولة هانتنغتون وأهميتهـا ، وأن يضع تقويماً ، بحسب معاييره الخاصة ، لمجمل الآراء والمفـاهيم والأفكار والمقترحـات الـواردة في المنـاظرة التي أثـارتها مقـالة «صـدام الحضارات» والتـي تتناول مـروحة واسعـة من الموضوعـات المترابطة . ويبـدو لنا أنها الطـريقة الأسلم لتنميـة التفكير المستقل وتطـوير منـاقشـة مثمرة بين أكبر عـدد ممكن من الأشخـاص المعنيين أو المهتمين ببعض جوانب المسائل الحيوية التي يضمها هذا الإصدار الخاص لـ **شؤون الأوسط**. ونظـراً إلى أن هذا الكتيب سيـوزع في أمـاكن عـدة من العالم العـربي / الإسـلامي في الوقت نفسـه ، فإننا نأمل أن يعقب ذلك تبـادل واسع لوجهـات النظر في مـواقع مختلفة ، وفي أوساط مختلفة . ونحن على يقين من أننا سنستفيد نحن ، أيضاً ، من ذلك لأن كل مسألة مثارة يمكن أن يجري تناولها وفقـاً لمنظور يختلف باختـلاف الزاوية التي تحكم المقـاربة . وعلى سبيل المثـال ، علق ديبلـومـاسي عربي متخصـص في الدراسـات المشرقيـة الأميركيـة ، أنـه ليس من الصعب التقاط «الخيط الأحمر» الموصل بين مقولـة هانتنغتون ومساهمات لمارتن أنـديك وبرنارد لـويس في الآونة الأخيرة ، مشيراً إلى أن الإدارة الأميركيـة فرضـت عملية التسـوية السلميـة على العرب وإسرائيل بعدما صارت تعتبر أن «الخطر الرئيسي» على مصالحها الاستراتيجية في المنطقة مصدره إيـران التي تطبق عليها وحدهـا سياسة الاحتـواء ، باعتبار أنـه لم يعد لدى العـراق ما يستدعي الاحتـواء . وقال إن أكثر ما يقلق الأميركيين الآن هـو قيام علاقات تعـاون في المجال العسكـري بين إيران ودول في الشرق الأقصى ، مثل كـوريـا والصين . تبقى ملاحظـة في شأن التـداخل في أنماط صدام الحضـارات بين المستـوى الأدنى للجوار الإقليمي والمسـتوى الأعلى للسيطـرة العالميـة . إن فك الارتبـاط بين الصراع على المستوى العـالمي والصراعات الإقليميـة والمحليـة الأخرى كـافـة ، قد أفسح في المجـال للنظر في الصراعـات الإقليميـة والمحلية تبعـاً لخصوصيتها هي بـدلاً من تناولها من منظار الصراع الإيديولـوجي والاستراتيجي الشامل الذي طبع عصر الحرب البـاردة . وقـد يـرى البعض أن ثمـة وجهـاً إيجابياً لهذا التحـول يـدعـو إلى

التفاؤل، هو الحفاظ على السلام العالمي وحماية البيئة وحق البشرية في الحياة والتقدم، بعيداً من التهديد الدائم بالحروب العالمية في العصر النووي.

على أنه يجب التنبيه إلى أوجه سلبية لهذا التحول، ذلك أن الانهيار السريع للاشتراكية، وما بـدا من ركود وانحسار لـلإيديولوجيـات الأخرى، قد يعطي انطبـاعاً بالتفـوق الكامن في الثقافـة الغربية على حسـاب مبدأ التعددية الثقـافية واحترام كل الثقافـات الكبرى في العالم. وهذا ما نلاحظه فعلاً من متابعة الصحافة الأميركية والأوروبية، بل أغلبية اتجاهات الدراسات الأكـاديميـة في أميركـا وأوروبـا. ومن شأن هـذا الاتجاه، الـذي يمكن تسميتـه «الغطـرسـة الثقـافية»، أن يفضي في النهـاية إلى حجب حق كل الثقـافات في التعبير الحر والمتسـاوي عن ذاتها، وفي التفاعل الإيجابي في ما بينها.

والحقيقة أن الصراع الإيـديولوجي بين الشرق والغـرب لم يكن هو مصدر مبـدأ النسبية الثقافية، بل شكّل «ضمانـة سياسية» لهذا المبدأ. وإذا ما نجح الغـرب في جعل نفسه «مطلقاً ثقافياً» عقب انتصاره على الشيوعية، فإن النتيجة الحتمية ستكون سعيه لفرض الثقافة الغربية بكلياتها العامة، وربما التفصيلية، على العالم بأسره.

ميشال نوفل

مدير التحرير «شؤون الأوسط»

الصدام بين الحضارات

صامويل هانتنغتون

أولاً: النمط المقبل للنزاع

تدخل السياسات العالمية مرحلة جديدة، لم يتردد المثقفون إزاءها في تقديم رؤى لما ستكون عليه: نهاية التاريخ وعودة النزاعات التقليدية بين الدول / الأمم وانهيار الدول / الامم من جراء الدوافع المتعارضة للنزعة القبلية والنزعة العالمية، ضمن أمور أخرى. ويدرك كل من هذه الرؤى جوانب من الحقيقة الناشئة، ومع ذلك، فإنه يغفل جانباً حاسماً ومركزياً حقاً، لما يرجح أن تكون عليه السياسات العالمية في السنوات المقبلة.

والفرض الذي أقدمه هو أن المصدر الأساسي للنزاعات في هذا العالم الجديد لن يكون مصدراً إيديولوجياً أو اقتصادياً في المحل الأول. فالانقسامات الكبرى بين البشر ستكون ثقافية، والمصدر المسيطر للنزاع سيكون مصدراً ثقافياً، وستظل الدول / الأمم هي أقوى اللاعبين في الشؤون الدولية، لكن النزاعات الأساسية في السياسات العالمية ستحدث بين أمم ومجموعات لها حضارات مختلفة. وسيسيطر الصدام بين الحضارات على السياسات الدولية، ذلك أن الخطوط الفاصلة بين الحضارات ستكون هي خطوط المعارك في المستقبل.

وسيكون النزاع بين الحضارات هو المرحلة الأخيرة في تطور النزاع في العالم الحديث. فلمدة قرن ونصف القرن بعد قيام النظام الدولي الحديث مع معاهدة «وستفاليا»، كانت النزاعات في العالم الحديث تحدث أساساً بين الأمراء الأباطرة، والملوك المطلقين والملوك الدستوريين الذين يحاولون توسيع إداراتهم وجيوشهم وقوتهم الاقتصادية المركنتلية، واخيراً، وهو العنصر الأهم، الأراضي التي يحكمونها. وخلال هذه العملية أقاموا الدول/ الأمم. وبدءاً من الثورة الفرنسية، أصبحت الخطوط الأساسية للنزاع بين الأمم وليس بين الأمراء. فعام ١٧٩٣، مثلما قال ر. ر. بالمر، «انتهت حروب الملوك، وبدأت حروب الشعوب». واستمر نمط القرن التاسع عشر هذا حتى نهاية الحرب العالمية الأولى. ثم تحول النزاع بين

الأمم ـ نتيجــة للثـورة الروسية ورد الفعل تجاههــا ـ إلى نزاع بين الإيـديولـوجيات، أولاً بين الشيوعية والفـاشية / النازية وبين الـديموقراطية الليبراليـة، ثم بين الشيوعية والديمـوقراطية الليبراليـة. وخلال الحرب البـاردة، أصبح هـذا النـزاع الأخير مجسّداً في الصراع بين الـدولتين العظميين، ولم يكن أي منهما دولة/ أمة بالمعنى الأوروبي الكلاسيكي، وحدد كل منهما هويته من حيث إيديولوجيته.

كانـت هذه النـزاعات بين الأمراء والـدول / الأمم والإيديـولوجيـات، في المحل الأول نزاعات داخل الحضـارات الغربية، أي «حروبـاً أهلية غربية» مثلما وصفها ويليـام ليند. وقد صـدق هذا على الحرب البـاردة مثلما صـدق على الحربين العـالميتين وعلى الحروب السابقـة في القرون السابع عشر والثـامن عشر والتاسع عشر. ومع نهاية الحرب البـاردة تحركت السياسات الدوليـة في مرحلتهـا الغربية، واصبح المركـز الرئيسي لها هو التفـاعل بين الحضارات الغـربية والحضارات غير الغربية. وفي سياسات الحضـارات لم تعد شعوب وحكومات الحضارات غير الغربيـة موضـوعات للتـاريخ باعتبـارها أهـدافاً لـلاستعمار الغربي، بل انضمـت إلى الغرب باعتبارها من محركي التاريخ ومشكليه.

ثانياً: طبيعة الحضارات

خـلال الحرب البـاردة، كــان العـالم منقسماً إلى أول وثــان وثـالث. ولم تعـد هذه الانقسامات ذات معنى. والأجدى حالياً ليس تصنيف البلدان في مجموعات من حيث نظمها السياسيـة أو الاقتصاديـة أو من حيث مستوى تطورهـا الاقتصادي، وإنما من حيث ثقـافتها وحضارتها.

فما الذي نعنيه عندمـا نتحدث عن حضارة ما؟ إن الحضارة هي كيان ثقـافي. فالقرى والأقاليم والمجموعـات الإثنية والقوميات والمجمـوعات الدينية، لها جميعها ثقـافات متميزة، وإن تكن على مستويات مختلفة من عدم التجانس الثقافي. فقد تكون ثقافة قرية ما في جنوب إيطاليـا مختلفة عنها في قـرية في شمال إيطاليـا، لكنهما تشتركان معاً في ثقـافة إيطاليـة مشتركة تميزهما عن القرى الألمانية. والمجتمعـات الأوروبية، بدورها، تتقاسم ملامح ثقـافة تميزها عن المجتمعات العربيـة أو الصينية. بيد أن العرب والصينيين والغربيين ليسـوا جزءاً من أي كيان ثقـافي أوسع. إنهم يمثلون حضـارات. وهكذا فإن الحضـارات هي أعلى تجمع ثقافي للنـاس وأوسع مستوى للهـوية الثقـافية للشعب ولا يسبقها إلا مـا يميز البشر عن الأنـواع الأخرى،

وهي تتحدد في آن معاً بالعناصر الموضوعية المشتركة، مثل اللغة والدين والتاريخ والعادات والمؤسسات، وبالتحديد الذاتي الذي يقوم به الشعب لنفسه. إن للناس مستويات من الهوية؛ فمن يقطن روما قد حدد نفسه، بدرجات متباينة من الحدة، بأنه من أهل روما أو إيطاليا أو كاثوليكي أو مسيحي أو أوروبي أو غربي، والحضارة التي ينتمي إليها هي أوسع مستوى للتحديد يعرّف نفسه به بصورة مكثفة. ويستطيع الناس أن يعيدوا تحديد هوياتهم، وهم يفعلون ذلك، والنتيجة هي تغير تكوين الحضارات وحدودها.

وقد تتضمن الحضارات عدداً كبيراً من الناس، كما هو الحال بالنسبة إلى الصين (حضارة تزعم أنها دولة، كما قال لوسيان باي)، أو عدداً صغيراً منهم، مثل سكان الجزر الكاريبي المتحدثين بالإنكليزية، وقد تتضمن الحضارة أكثر من دولة/ أمة، مثلما هي الحال مع الحضارات الغربية والأميركية والعربية، أو دولة / أمة واحدة، مثلما هي الحال مع الحضارة اليابانية.

ومن الواضح أن الحضارات تمتزج وتتداخل، وقد تتضمن حضارات فرعية. وللحضارة الغربية صورتان متغايرتان أساسيتان: الأوروبية والأميركية الشمالية، وللإسلام أقسامه الفرعية العربية والتركية والماليزية. ومع ذلك، فإن الحضارات كيانات هادفة. وعلى الرغم من أن الخطوطِ التي تفصل بينها نادراً ما تكون حادة، فهي تبقى خطوطاً حقيقية. والحضارات دينامية، وهي تزدهر وتنهار، وتنقسم وتندمج. ومثلما يعرف أي دارس للتاريخ، فالحضارات تختفي وتدفن في رمال الزمن.

وينزع الغربيون إلى الاعتقاد بأن الدول/ الأمم هي القوى الأساسية في الشؤون الدولية. بيد أنها كانت كذلك لبضعة قرون قليلة فحسب. فالإطار الأوسع للتاريخ الانساني كان تاريخ الحضارات. وقد حدد أرنولد توينبي في دراسة للتاريخ إحدى وعشرين حضارة رئيسية، لا يوجد منها في العالم المعاصر إلا ست.

لماذا ستتصادم الحضارات؟

تكتسب الهوية الثقافية أهمية متزايدة بالتفاعل في المستقبل، وسيكون الشكل العام مرتبطاً إلى حد كبير بالتفاعل بين سبع أو ثماني حضارات كبيرة تشمل الحضارات الغربية والكونفوشيوسية واليابانية والإسلامية والهندية والسلافية الأرثوذكسية والأميركية اللاتينية، وربما الإفريقية. وستحدث أهم النزاعات في المستقبل على امتداد خطوط التقسيم الثقافية التي تفصل هذه الحضارات الواحدة عن الأخرى.

فلماذا سيكون هذا هو الحال؟

أولاً: إن الفروق بين الحضارات ليست فروقاً حقيقيـة فحسب، بل هي فروق أساسية. فالحضـارات تتمايز الواحدة عن الأخـرى بالتاريخ واللغـة والثقافة والتقاليـد، والأهم الدين. وللناس في الحضارات المختلفة آراء مختلفة عن العلاقات بين الله والانسان، والفرد والمجموعة والمواطن والدولة، والآباء والأبناء، والزوج والـزوجة، وآراء مختلفة عن الأهمية النسبية للحقوق والمسـؤوليات والحريـة والسلطة والمسـاواة والتسلسل الهرمي. وهذه الفـروق نتاج قـرون، ولن تختفي سريعاً. إنها فروق أساسيـة بدرجة أكبر من الاختلافات بين الإيديولـوجيات السياسية والنظم السياسية؛ والاختلافات لا تعني النـزاع بالضرورة؛ والنزاع لا يعني العنف بالضرورة. بيد أنه على مر القرون، ولّدت الاختلافات بين الحضارات أطول النزاعات وأكثرها عنفاً.

ثانياً: إن العـالم أصبح مكانـاً أصغـر، وأخذت التفـاعـلات بين شعوب الحضـارات المختلفة في التزايد، وتزيد هذه التفاعـلات المتنامية وعي الحضارات بنفسها وإدراكها للفروق بين الحضارات والأشيـاء المشتركة داخل الحضارات. فقـد ولّدت الهجرة من شمال إفـريقيا إلى فرنسا عـداوات في ما بين الفرنسيين، وزادت في الوقت نفسه من احترام المهاجـرين البولنديين الكاثوليك الأوروبيين «الطيبين»، وكان رد فعل الأميركيين تجاه الاستثمار الياباني أكثر سلبية منه تجاه الاستثمار من كندا والبلدان الأوروبية. وبالمثل، كما أوضح دونالد هورويتز، ففي حين «أن الأيبو قد يعتبر أويرى أيبـو أو أونيتشا أيبو في المنطقة الشرقية من نيجيريـا، أما في لاغوس فهو مجرد أيبو، وفي لنـدن هو نيجيري، وفي نيـويورك، هو إفـريقي». إن التفاعـلات بين شعوب الحضارات المختلفة تعـزز الوعي بالحضارة لـدى الناس، الأمر الذي عزز بـدوره الاختلافات والعداوات التي تضرب أو يعتقد أنها تضرب جذورها في أعماق التاريخ».

ثالثاً: إن عمليـة التحديث الاقتصـادي والتغيير الاجتماعي في كل انحاء العـالم تفصل الشعـوب عن الهويات المحليـة القـديمـة والراسخـة، كما تضعف الـدولـة / الأمة كمصـدر للهويـة. وفي كثير من أنحاء العالم، تـرك الدين ليملأ هذه الفجـوة وغالباً في شكل حـركات توصـف بأنها «أصوليـة». وتوجـد مثل هذه الحركـات في المسيحية الغـربية وفي اليهـودية وفي البـوذيـة وفي الهنـدوسيـة وكـذلك في الإسـلام. وفي معظم البلـدان وفي معظم الأديـان، فإن النشطاء في الحركـات الأصولية هم من الشبـاب، ذوي التعليم الجامعي، والفنيين من الطبقة الوسطى والمهنيين ورجال الأعمال. وقد لاحظ جـورج ويغل «أن نزع الطابع العلماني عن العالم هو من الحقائق الاجتماعية المهيمنة في الحيـاة في آخر القرن العشرين». إن إحياء الدين أو «ثأر

الإله»، مثلما وصفه جيل كيبل، يوفر أساساً للهوية والالتزام يتجاوز الحدود الوطنية ويوحد الحضارات.

رابعاً: يتعزز نمو الوعي بالحضارة نتيجة للدور المزدوج للغرب. فالغرب من ناحية في أوج قوته، بيد أنه، في الوقت نفسه، وربما نتيجة لذلك، ثمة ظاهرة تتمثل في العودة إلى الجذور بين الحضارات غير الغربية، فيسمع المرء على نحو متزايد إشارات عن إتجاهات نحو الانكفاء الى الداخل و«إضفاء طابع آسيوي» في اليابان، ونهاية ميراث نهرو و«إضفاء طابع هندوسي» في الهند، وفشل الأفكار الغربية من اشتراكية وقومية، ثم «إعادة الأسلمة» في الشرق الأوسط. ويدور حالياً جدل حول التغريب مقابل الترويس في بلد بوريس يلتسين. إن غرباً في أوج قوته يواجه كيانات ليست غربية ترغب في تشكيل العالم بطرائق غير غربية، ولديها الإرادة والامكانات للقيام بذلك.

في الماضي، كانت الصفوة في المجتمعات غير الغربية هي التي تنغمس في ممارسات الغرب أكثر من غيرها، وكانت تتلقى تعليمها في اوكسفورد والسوربون أو ساندهيرست وتتمثل المواقف والقيم الغربية، وفي الوقت نفسه، كان عامة الناس في البلدان غير الغربية يظلون متشبثين بصورة عميقة بثقافة البلاد الأصلية، بيد أن هذه العلاقات انعكست الآن، إذ يجري نزع للطابع الغربي وغرس للطابع المحلي الأصلي في صفوف الصفوة في كثير من البلدان غير الغربية، في الوقت الذي تصبح الثقافات والأساليب والعادات الغربية ـ الأميركية عادة ـ أكثر شعبية بين جماهير الناس.

خامساً: إن الخصائص والفروق الثقافية أقل قابلية للتبديل، ثم أقل قابلية للحلول الوسط والتسويات من نظيرتها السياسية والاقتصادية. ففي الاتحاد السوفياتي السابق يمكن الشيوعيون أن يصبحوا ديموقراطيين، ويمكن أن يصبح الأغنياء فقراء والفقراء أغنياء، لكن الروس لا يمكن أن يصبحوا إستونيين، ولا يمكن الأذريون أن يصبحوا أرمن. وفي النزاعات الطبقية والإيديولوجية، كان السؤال الأساسي هو: «إلى أي جانب تقف؟». وكان في مقدور الناس أن يختاروا الجانب الذي يقفون إلى جانبه وأن يغيروه، وقد فعلوا ذلك. إنما في النزاعات بين الحضارات، فإن السؤال هو: «من أنت؟». وتلك مسلمة لا يمكن تغييرها، ومثلما نعرف، فإنه من البوسنة إلى القوقاز إلى السودان، قد تعنى الإجابة الخاطئة عن ذلك السؤال رصاصة في الرأس. والدين يفصل بين الناس بصورة أكثر حدة وحصراً حتى من العرق الإثني. فالمرء قد يكون نصف فرنسي أو نصف عربي، بل حتى مواطناً في بلدين في الوقت نفسه، لكن من الصعب أن يكون نصف كاثوليكي ونصف مسلم.

وأخيراً: فإن النزعة الإقليمية الاقتصادية آخـذة في الزيادة. فقد ارتفعت نسب التجارة الإقليمية الإجمالية بين عامي ١٩٨٠ و١٩٨٩ من ٥١ في المئة الى ٥٩ في المئـة في أوروبا، ومن ٣٣ في المئة إلى ٣٧ في المئـة في شرق آسيا، ومن ٣٢ في المئـة إلى ٣٦ في المئة في أميركـا الشمالية. ومن المرجح أن يستمر تعزيز أهمية الكتل الاقتصادية الإقليمية في المستقبل. فالنزعة الاقليمية الاقتصـاديـة الناجحـة ستـدعم، من نـاحية، الـوعي بـالحضـارة، إلا إن النزعـة الإقليميـة الاقتصادية، من الناحية الأخرى، قد تنتـج فقط عندما تضرب بجذورها في حضارة مشتركة. فالجماعـة الأوروبية تقوم على الأسـاس المشترك للثقافة الأوروبيـة والمسيحية الغربيـة. ويتوقف نجـاح منطقة التجـارة الحرة لأميركـا الشماليـة على الالتقاء الـذي يجري حـاليـاً بين الثقافـات المكسيكية والكنـدية والأميركية. وعلى النقيض من ذلك، تـواجه اليابـان صعوبات في إقـامة كيان اقتصادي مماثل في شرق آسيا لأن اليابان مجتمع وحضارة فريدان في ذاتهما. وأياً كانت قوة الـروابط التجاريـة والاستثماريـة التي قد تقيمهـا اليابـان مع بلـدان شرق آسيا الأخـرى، فإن اختلافـاتها الثقافية مع تلك البلدان تعـرقل، وربما تحول دون أي تعزيز للتكـامل الاقتصادي الإقليمي على نحو ما هو قائم في أوروبا وأميركا الشمالية.

وعلى النقيض من ذلك، من الـواضـح أن الثقـافـة المشتركـة تيسر التـوسع السريع في العـلاقـات الاقتصـاديـة بين جمهـورية الصين الشعبيـة وهـونغ كـونغ وتـايـوان وسنغـافـورة والمجتمعات الصينيـة في ما وراء البحـار في بلدان آسيـا الأخرى. ومع انتهـاء الحرب الباردة، أخذت الجماعات التي تجمع بينهـا ثقافة مشتركة تتغلب تدريجاً على الخلافات الإيـديولوجية، وتتجـه الصين الأم وتايـوان نحو عـلاقات أوثق. وإذا كـانت الوحـدة الثقافيـة شرطاً مسبقـاً للتكامل الاقتصادي، فمن المرجح أن تتركز في المستقبل الكتلـة الاقتصادية الأساسية في شرق آسيـا على الصين. والـواقـع أن هـذه الكتل أخـذت تظهـر بـالفعل. ومثلما لاحظ مـوراي ويدنباوم، فإنه «على الرغم من الهيمنة اليابانية الراهنة في المنطقة، فإن اقتصاد آسيا القائم على الصين أخذ يبزغ بسرعة باعتباره المركز الجديد للصناعة والتجارة والتمويل. وتضم هذه المنطقة الاستراتيجية مقادير ضخمة من التكنولوجيـا والقدرة التصنيعية (تايوان)، والقدرة البارزة على تنظيم المشروعات، والحذق في الخدمات والتسويق (هونغ كـونغ)، وشبكة دقيقة للاتصالات (سنغافورة، ومجمع هـائل لرأس المال المالي (الثلاثة معـاً)، وهبات ضخمة من الأرض والموارد والعمل (الصين الأم)... ومن جوانجـزو إلى سنغافورة، ومن كوالالمبور إلى مـانيلا، وصفت هذه الشبكـة المؤثرة ـ التي ارتكـزت غالبـاً على امتدادات القبائل التقليـدية ـ دومـاً باعتبـارها العمود الفقري لاقتصاد شرق آسيا»[1].

(١) Murray Weidenbaum, *Greatar China: The Next Economic Superpower?* (St. Louis: Washington University Center for the Study of American Business, Contemporay Issues, Series 57, February 1993), pp. 2 - 3.

كما تمثل الثقافة والدين أساس منظمة التعاون الاقتصادي التي تضم ١٠ دول إسلامية غير عربية : إيران وباكستان وتركيا وأذربيجان وكازاخستان وقيرغيزستان وتركمانستان وطاجكستان وأوزبكستان وأفغانستان . ومن دوافع إقامة هذه المنظمة وتوسيعها ، والتي أسستها في الستينات أصلاً تركيا وباكستان وإيران ، إدراك قادة هذه البلدان أن ليست لبلدانهم فرصة للانضمام إلى الجماعة الأوروبية . وبالمثل ، فإن الكاريكوم والسوق المشتركة لأميركا الوسطى والميركوسور تقوم على أسس ثقافية مشتركة . بيد أن الجهود المبذولة لبناء كيان اقتصادي بين الكاريبي وأميركا الوسطى يتخطى الانقسام الأنغلو ـ لاتيني ، فشلت حتى الآن .

ومع تحديد الناس هويتهم بمقاييس إثنية ودينية ، فإنه من المرجح أن يروا أن هناك علاقة بين «نحن» و«هم» تقوم بينهم وبين شعب من عرق إثني مختلف أو دين مختلف . إن زوال الدول المحددة على أساس إيديولوجي في أوروبا الشرقية والاتحاد السوفياتي السابق يتيح الفرصة للكيانات والعداوات الإثنية التقليدية أن تتقدم إلى الصدارة . وتخلق الخلافات في الثقافة والدين خلافات حول قضايا سياسية تراوح من حقوق الانسان إلى الهجرة والتجارة والتبادل والبيئة . ويثير التقارب الجغرافي الادعاءات الإقليمية المتعارضة من البوسنة إلى مندوناو . والأكثر أهمية ، أن جهود الغرب لدعم قيمه المتعلقة بالديموقراطية والليبرالية كقيم عالمية ، والحفاظ على هيمنته العسكرية ودعم مصالحه الاقتصادية ، تولد ردود فعل مضادة من قبل الحضارات الأخرى . وإذ تتناقص قدرة الحكومات والمجموعات على حشد الدعم وإقامة التحالفات على الأسس الإيديولوجية ، فإنها ستحاول بصورة متزايدة حشد الدعم باستغلال دين مشترك وهوية حضارية مشتركة .

وهكذا ، فإن صدام الحضارات يحدث على مستويين . فعلى المستوى الجزئي تتصارع المجموعات المتجاورة على امتداد خطوط التقسيم بين الحضارات بصورة عنيفة ـ عادة ـ على السيطرة على أراضي بعضها البعض ؛ وعلى المستوى الكلي ، تتنافس دول من حضارات مختلفة على القوة العسكرية والاقتصادية النسبية ، وتتصارع على السيطرة على المؤسسات الدولية والأطراف الثالثة ، وتتنافس على ترويج قيمها الدينية والسياسية الخاصة .

ثالثاً: خطوط التقسيم بين الحضارات

أخذت خطوط الانقسام بين الحضارات تحل محل الحدود السياسية والإيديولوجية للحرب الباردة باعتبارها نقاط تفجر الأزمات والمذابح. فقد بدأت الحرب الباردة عندما قسم الستار الحديد أوروبا سياسياً وإيديولوجيا. وانتهت الحرب الباردة مع انتهاء هذا الستار. ومع اختفاء الانقسام الإيديولوجي لأوروبا، فإن الانقسام الثقافي لأوروبا بين المسيحية الغربية من ناحية، والمسيحية الأرثوذكسية والإسلام، من ناحية أخرى، قد عاود الظهور، وقد يكون أهم خط تقسيم في أوروبا، مثلما أشار ويليام ولاس، هو الحدود بين فنلندا وروسيا وبين دول البلطيق وروسيا، ويمتد عبر روسيا البيضاء وأوكرانيا فاصلاً غرب أوكرانيا الأكثر كاثوليكية عن شرقها، متأرجحاً للغرب ليفصل ترانسلفانيا عن باقي رومانيا، ثم يمتد عبر يوغوسلافيا على امتداد الخط الذي يفصل حالياً كرواتيا وسلوفينيا عن باقي يوغوسلافيا. وبالطبع، فإن هذا الخط يتوافق في البلقان مع الحد التاريخي بين الإمبراطوريتين الهابسبورغية والعثمانية. والشعوب القاطنة إلى الشمال والغرب من هذا الخط من بروتستانت وكاثوليك، تتقاسم تجارب مشتركة للتاريخ الأوروبي: الإقطاع والنهضة والإصلاح والتنوير والثورة الفرنسية والثورة الصناعية.. وهم بصفة عامة أفضل من الناحية الاقتصادية من الشعوب الواقعة إلى الشرق، وقد يتطلعون حالياً إلى زيادة المشاركة في اقتصاد أوروبي مشترك وفي دعم النظم السياسية الديموقراطية. والشعوب التي تقطن شرق هذا الخط وجنوبه، أرثوذوكس أو مسلمون، وهم ينتمون تاريخياً إلى الإمبراطورية العثمانية أو إلى الإمبراطورية القيصرية، لم يكن للأحداث الكبرى في بقية أنحاء أوروبا سوى تأثير ضئيل عليهم وهم بصفة عامة أقل تقدماً من الناحية الاقتصادية، والاحتمال قليل في أن يطوروا نظماً سياسية ديموقراطية مستقرة. وقد حل الستار المخملي للثقافة محل الستار الحديد للإيديولوجيا باعتباره أهم خط للتقسيم في أوروبا، وكما توضح الأحداث في يوغوسلافيا، ليس خط اختلاف فحسب، بل أحياناً خط نزاع دموي أيضاً.

إن النزاع، وفق خط الانقسام بين الحضارتين الغربية والإسلامية، مستمر منذ ١٣٠٠ سنة. فبعد صعود الإسلام، انتهى اكتساح العرب للغرب والشمال في تور عام ٧٣٢. ومن القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر، حاول الصليبيون بنجاح موقت الإتيان بالمسيحية والحكم المسيحي إلى الأراضي المقدسة. ومن القرن الرابع عشر إلى القرن السابع عشر، قلب الاتراك العثمانيون الميزان، ومدوا سيطرتهم على الشرق الأوسط والبلقان، واستولوا على

القسطنطينية، وحاصروا فيينا مرتين. وفي القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ومع انهيار القوة العثمانية، فرضت بريطانيا سيطرة الغرب على معظم شمال إفريقيا والشرق الأوسط.

وبعد الحرب العالمية الثانية، بدأ الغرب يتراجع، واختفت الإمبراطوريات الاستعمارية، وبرزت القومية العربية أولاً، ثم الأصولية الإسلامية، وأصبح الغرب معتمداً بصورة كثيفة على بلدان الخليج الفارسي للتزود بالطاقة، وأصبحت البلدان الإسلامية الغنية بالنفط، غنية بالأموال، أيضاً، وغنية بالأسلحة عندما تشاء. ووقعت حروب عدة بين العرب واسرائيل التي أنشأها الغرب. وحاربت فرنسا حرباً دموية قاسية في الجزائر في معظم الخمسينات، وغزت القوات البريطانية والفرنسية مصر عام ١٩٥٦، وذهبت القوات الأميركية إلى لبنان عام ١٩٥٨، وبعد ذلك عادت القوات الأميركية إلى لبنان وهاجمت ليبيا، ودخلت في مواجهات عسكرية مختلفة مع إيران، واستخدم «الإرهابيون» العرب والإسلاميون ـ تساندهم على الأقل ثلاث حكومات في الشرق الأوسط ـ سلاح الضعيف وفجروا الطائرات والمنشآت الغربية بالقنابل، واحتجزوا رهائن غربيين. وبلغت هذه الحرب بين العرب والغرب ذروتها عام ١٩٩٠ عندما أرسلت الولايات المتحدة جيشاً حاشداً إلى الخليج الفارسي للدفاع عن بعض البلدان العربية ضد عدوان بلد عربي آخر. وفي إثر ذلك أخذ تخطيط الأطلسي يتجه بصورة متزايدة صوب التهديدات المحتملة وعدم الاستقرار على امتداد «جناحه الجنوبي».

إن هذا التفاعل العسكري الذي يمتد عمره قروناً بين الغرب والإسلام ليس من المرجح أن ينحسر، بل قد يصبح أكثر خطراً. فقد تركت حرب الخليج بعض العرب وهم يشعرون بالفخر لأن صدام حسين هاجم إسرائيل ووقف في وجه الغرب، كما تركت كثيرين وهم يشعرون بالإذلال والسخط على الوجود العسكري الغربي في الخليج الفارسي، وعلى الهيمنة العسكرية الساحقة، وعلى عجزهم البادي في رسم مصيرهم. إن بلداناً عربية عدة ـ إضافة إلى مصدّري النفط ـ بلغت مستويات من التنمية الاقتصادية والاجتماعية أصبحت فيها الأشكال الأوتوقراطية المطلقة للحكم غير مناسبة، وغدت الجهود المبذولة لإدخال الديموقراطية أكثر قوة، وقد حدثت بعض الانفتاحات لدى بعض الأنظمة السياسية العربية. وكانت الحركات الإسلامية هي المستفيدة الرئيسية من هذه التحولات.

خلاصة القول إن الديموقراطية الغربية في العالم العربي، تعزز القوى السياسية المعادية للغرب، وقد تكون هذه ظاهرة عابرة، لكن لا شك في أنها تعقد العلاقات بين البلدان الإسلامية والغرب. وكذلك تفعل الديموغرافيا بدورها... فالنمو السكاني المذهل في البلدان العربية، وخصوصاً في شمال إفريقيا، أدى الى زيادة الهجرة إلى أوروبا الغربية. وأدى

التحرك داخل أوروبا الغربية في اتجاه التخفيف إلى أدنى حد ممكن من الحدود الداخلية إلى مفاقمة حدة الحساسيات السياسية إزاء هذا التطور، ونمت العنصرية بصورة متزايدة في إيطاليا وفرنسا وألمانيا، وأصبحت ردود الفعل السياسية والعنف ضد المهاجرين العرب والأتراك أكثر حدة وأكثر انتشاراً منذ عام ١٩٩٠.

وفي كلا الجانبين، يعتبر التفاعل بين الإسلام والغرب صدام حضارات. ويلاحظ م. ج أكبر ـ وهو مؤلف هندي مسلم ـ أن «المواجهة ستأتي حتماً من العالم الإسلامي. إن الصراع سيبدأ من أجل نظام دولي جديد انطلاقاً من طغيان الموجة الكاسحة التي تمتد عبر الأمم الإسلامية من المغرب إلى باكستان. وقد توصل برنارد لويس إلى نتيجة مماثلة: «إننا نواجه مزاجاً وحركة يتجاوزان كثيراً مستوى القضايا والسياسات والحكومات التي تنتهجها، ولا يقل هذا عن كونه صداماً بين الحضارات.. ربما غير عقلاني، لكن لا شك في أنه رد فعل تاريخي لخصم قديم لتراثنا اليهودي ـ المسيحي وحاضرنا العلماني، والتوسع العالمي لهما معاً»[٢].

ومن الناحية التاريخية، فإن التفاعل العدائي الآخر للحضارة العربية ـ الإسلامية كان مع الوثنيين وعبدة الأرواح، وحالياً مع الشعوب السوداء المسيحية على نحو متزايد في الجنوب. وفي الماضي كان هذا التناقض يرمز له بصورة تجار الرقيق العرب والأرقاء السود. وقد انعكس في الحرب الأهلية الدائرة في السودان بين العرب والسود، والحرب في تشاد بين المتمردين الذين تساندهم ليبيا والحكومة التشادية، والتوترات بين المسيحيين الأرثوذوكس والمسلمين في القرن الإفريقي، والنزاعات السياسية وأعمال الشغب المتكررة والعنف الطائفي بين المسلمين والمسيحيين في نيجيريا. ومن المرجح أن يعزز تحديث إفريقيا وانتشار المسيحية احتمال العنف على امتداد خط التقسيم هذا. ومما يعكس احتدام هذا النزاع خطاب البابا يوحنا بولس الثاني في الخرطوم في شباط/ فبراير ١٩٩٣ الذي هاجم فيه أعمال الحكومة الإسلامية السودانية ضد الأقلية المسيحية هناك.

وقد تفجر النزاع بصورة متزايدة، على الحد الشمالي للإسلام بين الشعوب الارثوذوكسية والمسلمة، بما في ذلك مجزرة البوسنة وساراييفو، والعنف الجيّاش بين الصرب والألبان، والعلاقات الحرجة بين البلغار والأقلية التركية لديهم، والعنف بين الأوستيين والأنغوش، والمذبحة المتصلة المتبادلة بين الأرمن والأذريين، والعلاقات المتوترة بين الروس والمسلمين في

---

(٢) Beranrd Lewis, "The Roots of Muslim Rage" *The Atlantic Monthly*, vol. 266, September 1990, p. 60; *Time*, June 15 1992, pp. 24 - 28.

آسيا الوسطى، ونشر القوات الروسية لحماية المصالح الروسية في القوقاز وآسيا الوسطى. ويعزز الدين إحياء الهويات الإثنية، ويعيد إثارة مخاوف الروس في شأن أمن حدودهم الجنوبية. وقد أدرك أرش روزفلت هذا القلق: ي«تعلق جزء كبير من التاريخ الروسي بالصراع بين السلاف والشعوب التركية على حدودهم، والذي يعود تاريخه إلى تأسيس الدولة الروسية منذ أكثر من ألف سنة خلت، ويكمن في المواجهة التي امتدت ألف عام بين السلاف وجيرانهم الشرقيين مفتاح فهم ليس التاريخ الروسي فحسب، بل أيضاً الشخصية الروسية. ولفهم الواقع الروسي حالياً ينبغي أن يلتفت المرء إلى مفهوم المجموعة الإثنية التركية الكبرى التي أقلقت الروس على مر القرون»[٣].

وجذور النزاع بين الحضارات عميقة في أماكن أخرى في آسيا. فالصدام التاريخي بين المسلمين والهندوس في شبه القارة الهندية، لا يتبدى حالياً في الخصومة بين باكستان والهند فحسب، وإنما أيضاً في احتدام الصراع الديني داخل الهند بين المجموعات الهندوسية المتزايدة التشدد والأقلية المسلمة الكبيرة. فقد دفع تدمير مسجد أيوديا في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٢ إلى الصدارة قضية ما إذا كانت الهند ستظل دولة ديموقراطية علمانية أم ستصبح هندوسية. وفي شرق آسيا، فإن الصين تواجه نزاعات إقليمية دائمة مع جيرانها. وقد اتبعت سياسة عنيفة لا رحمة فيها تجاه الشعب البوذي في التيبت، وهي تتبع سياسة عنيفة لا رحمة فيها بصورة متزايدة تجاه الأقلية التركية المسلمة. ومع انتهاء الحرب الباردة، فإن الخلافات الكامنة بين الصين والولايات المتحدة أعادت تأكيد نفسها في مجالات، مثل حقوق الانسان والتجارة وانتشار الأسلحة. وليس من المرجح أن تخف هذه الخلافات. فقد ورد أن دنغ زياو بنغ أكد عام ١٩٩١ أن «حرباً باردة جديدة» بين الصين وأميركا كانت في الطريق. كذلك استخدم هذا الوصف نفسه في معرض الحديث عن العلاقات المتزايدة الصعوبة بين اليابان والولايات المتحدة. وهنا يفاقم الاختلاف الثقافي النزاع الاقتصادي، فيدعي الناس في كل جانب أن الطرف الآخر عنصري، لكن على الجانب الأميركي على الأقل، فإن النفور ليس عنصرياً، وإنما ثقافياً. ويصعب أن تكون القيم والمواقف وأنماط السلوك الأساسية للمجتمعين أشد اختلافاً مما هي عليه. والقضايا الاقتصادية بين الولايات المتحدة وأوروبا ليست أقل خطورة منها بينها وبين اليابان، إلا أنها لا تملك البروز السياسي والحدة العاطفية نفسها لأن الخلافات بين الثقافة الأوروبية والثقافة الأميركية أقل منها بين الحضارة الأميركية والحضارة اليابانية.

---

(٣) Archie Roosevelt, *For Lust of Knowing,* (Boston: Little, Brown 1988), pp. 332 -

وتتباين التفاعلات بين الحضارات بصورة كبيرة إلى حد أنها قد تتسم بالعنف. ومن الواضح أن المنافسة الاقتصادية تهيمن بين الحضارتين الفرعيتين للحضارة الغربية، الأميركية والأوروبية، وفي ما بينهما وبين اليابان. بيد أنه في قارة أوراسيا، لم يكن انتشار النزاعات الإثنية، الذي يتجسد في أشد صوره تطرفاً في «التطهير العرقي»، عشوائياً بشكل كلي. فقد كانت أكثر تواتراً وأشد عنفاً بين المجموعات التي تنتمي إلى حضارات مختلفة، ويشكل الخط التاريخي الفاصل بين الحضارات من جديد. ويصبح ذلك بشكل خاص على حدود الهلال المؤلف من مجموعة البلدان الإسلامية من إفريقيا إلى آسيا الوسطى. كذلك ينتشر العنف بين المسلمين من ناحية، وبين الصرب الأرثوذكس في البلقان واليهود في إسرائيل والهندوس في الهند والبوذيين في بورما والكاثوليك في الفيليبين من الناحية الأخرى. إن للإسلام حدوداً دموية.

رابعاً: تعبئة الحضارات: ظاهرة البلدان ذات القرابة

من الطبيعي أن تحاول المجموعات أو البلدان المنتمية الى حضارة واحدة، عندما تدخل في حرب مع شعب من حضارة أخرى، الحصول على مساندة الشعوب الأخرى التي تشترك معها في الانتماء إلى الحضارة نفسها. ويبدو أن عالم ما بعد الحرب الباردة قد بدأ يرسو على حلول التشارك في الحضارة الواحدة، أو ما يدعوه د. س. غرينواي ظاهرة «البلدان ذات القرابة»، محل الإيديولوجيا واعتبارات توازن القوى التقليدية كقاعدة للتعاون والتحالفات الرئيسية.

ويمكن أن نرى كيف ظهر ذلك بشكل تدريجي في أزمات ما بعد الحرب الباردة، سواء في القوقاز والبوسنة أم في الخليج الفارسي. وعلى الرغم من أن اياً من هذه النزاعات ليس حرباً شاملة بين الحضارات، إلا أن كلاً منها يحتوي على عناصر تعبئة حضارية كان يبدو أنها تكتسب مزيداً من الأهمية مع استمرار الصراع، وهي توفر عينة مسبقة لما سيحدث في المستقبل.

أولاً: في حرب الخليج غزت دولة عربية دولة عربية أخرى، ثم حاربت ائتلافاً من دول عربية وغربية وغيرها. وفي حينه لم يفصح سوى عدد قليل جداً من البلدان العربية عن تأييده صدام حسين، لكن الكثير من النخب العربية هللت له في أوساطها الخاصة. كما حظي

بشعبية كبيرة لدى أجزاء كبيرة من الجماهير العربية. وقد أيدت الحركات الإسلامية الأصولية كافة العراق بدلاً من تأييد حكومات الكويت والسعودية التي يدعمها الغرب. وقد أنكر صدام حسين القومية العربية حين لجأ إلى الاستنجاد باسم الإسلام، وحاول مؤيدوه أن يعرِّفوا الحرب كحرب بين الحضارات. يقول سفر الحوالي، عميد كلية الدراسات الإسلامية في جامعة أم القرى في مكة، في شريط وزع بشكل واسع: «إنها [حرب الخليج] ليست العالم ضد العراق، بل الغرب ضد الإسلام». وقد دعا الزعيم الديني الإيراني، آية الله علي خامنئي، إلى حرب مقدسة ضد الغرب، متجاهلاً الخصومة بين العراق وإيران، فقال: «النضال ضد العدوان الأميركي وأطماع الأميركيين وخططهم وسياساتهم سوف يحسب جهاداً، وكل من يقتل في سبيل ذلك هو شهيد». ورأى عاهل الأردن الملك حسين: «إن هذه الحرب هي ضد كل العرب وجميع المسلمين وليست ضد العراق وحده».

وأدى وقوف جزء كبير من النخب والجماهير العربية خلف صدام حسين إلى قيام الحكومات العربية في الائتلاف المعادي للعراق بالتخفيف من حدة أعمالها وتلطيف تصريحاتها الرسمية، فعارضت الحكومات العربية أو نأت بنفسها عن جهود الغرب اللاحقة الهادفة إلى ممارسة الضغط على العراق، بما في ذلك إنقاذ منطقة الحظر الجوي في صيف ١٩٩٢، وقصف العراق بالقنابل في كانون الثاني/ يناير ١٩٩٣. وأصبح التحالف الغربي - السوفياتي - التركي — العربي المعادي للعراق الذي قام عام ١٩٩٠ تحالفاً يضم الغرب والكويت فقط بحلول عام ١٩٩٣.

ويقابل المسلمون بين أعمال الغرب ضد العراق وبين تقاعسة عن حماية البوسنيين في وجه الصرب، وفرض عقوبات على إسرائيل لانتهاك قرارات الأمم المتحدة، ويدعون أن الغرب يكيل بمكيالين. بيد أنه من المحتم أن يكون عالم الحضارات المتصادمة هو عالم الكيل بمكيالين. فالناس يكيلون بمكيال للبلدان التي تمت إليهم بقرابة وبمكيال مختلف للآخرين.

ثانياً: ظهرت ظاهرة «البلدان الأقرباء» أيضاً في نزاعات بلدان الاتحاد السوفياتي سابقاً. فقد حفزت نجاحات أرمينيا عامي ١٩٩٢ و١٩٩٣ تركيا لأن تزيد مساندتها لأشقائها في الدين والعرق واللغة في أذربيجان. ومثلما قال مسؤول تركي عام ١٩٩٢: «نحن، الأمة التركية، نحس بمشاعر الأذريين نفسها. إننا نتعرض لضغط. إن صحافتنا مليئة بصور المذابح، التي تسألنا إذا كنا لا نزال جادين في شأن انتهاج سياستنا المحايدة. ربما ينبغي لنا

أن نظهر لأرمينيا أن هناك تركيا كبرى في المنطقة». ووافق الرئيس تورغوت أوزال، ملاحظاً أنه ينبغي لتركيا على الأقل أن «تخيف الأرمن قليلاً». وهدد أوزال مرة ثانية عام ١٩٩٣ بأن تركيا «ستظهر أنيابها»، وحلقت الطائرات النفاثة التابعة للسلاح الجوي التركي في طلعات استطلاعية على امتداد الحدود الأرمنية، وعلقت تركيا شحنات الأغذية والرحلات الجوية إلى أرمينيا، وأعلنت تركيا وإيران أنهما لن تقبلا تقطيع أوصال أذربيجان. وكانت الحكومة السوفياتية في الأعوام الأخيرة قد ساندت أذربيجان، لأن حكومتها كان يسيطر عليها الشيوعيون السابقون. بيد أنه مع انتهاء الاتحاد السوفياتي، أخلت الاعتبارات السياسية الساحة للاعتبارات الدينية، وحاربت القوات الروسية إلى جانب الأرمن. واتهمت أذربيجان «الحكومة الروسية بأنها استدارت ١٨٠ درجة» نحو تأييد أرمينيا المسيحية.

ثالثاً: في ما يتعلق بالقتال في يوغوسلافيا السابقة، أبدى الرأي العام الغربي تعاطفاً ومساندة للمسلمين، ورفضاً للفظائع التي عانوها على أيدي الصرب. بيد أن قدراً قليلاً من القلق تم الإعراب عنه إزاء هجمات الكروات على المسلمين ومشاركتهم في تقطيع أوصال البوسنة والهرسك. وفي المراحل الأولى من انهيار يوغوسلافيا، حثت المانيا ـ في استعراض غير مألوف للمبادرة الديبلوماسية والعضلات ـ الأحد عشر عضواً الآخرين في الجماعة الأوروبية على اتباع خطاها في الاعتراف بسلوفينيا وكرواتيا. ونتيجة لتصميم البابا الحازم على تقديم مساندة قوية للبلدين الكاثوليكيين، اعترف بهما الفاتيكان حتى قبل أن تفعل الجماعة الأوروبية ذلك. واتبعت الولايات المتحدة خطى أوروبا. وهكذا، احتشدت القوى القيادية في الحضارة الغربية خلف الأشقاء في الدين. وورد بعد ذلك أن كرواتيا حصلت على كميات ضخمة من الأسلحة من أوروبا الوسطى ومن البلدان الأوروبية الأخرى. ومن ناحية أخرى، حاولت حكومة يلتسين أن تنتهج مساراً وسطاً يتعاطف مع الصرب الأرثوذوكس، لكنه لا يبعد روسيا عن الغرب، بيد أن المجموعات الروسية المحافظة والقومية المتطرفة، بما في ذلك كثير من النواب، هاجمت الحكومة لأنها لم تكن أكثر إقداماً في تأييدها للصرب. وبحلول أوائل عام ١٩٩٣، كان من الواضح أن مئات عدة من الروس كانوا يحاربون إلى جانب القوات الصربية. ووردت تقارير عن إمداد صربيا بالأسلحة الروسية.

ومن ناحية أخرى، لامت الحكومات والمجموعات الإسلامية الغرب لكونه لم يهب للدفاع عن البوسنيين، وأهاب الزعماء الإيرانيون بالمسلمين في كل البلدان أن يقدموا العون للبوسنة، وقدمت إيران الأسلحة والرجال للبوسنيين، منتهكة الحظر الذي فرضته الأمم المتحدة على الأسلحة، وأرسلت المجموعات اللبنانية ـ التي تساندها إيران ـ فرق حرب

العصابات لتدريب وتنظيم القوات البـوسنية . وعام ١٩٩٣ ورد أن ما يصل إلى ٤٠٠٠ مسلم من أكثر من أربعة وعشرين بلـداً إسلامياً يقاتلـون في البوسنة . وشعرت حكومـات السعودية وبلدان أخرى أنها تتعـرض لضغط متزايد من المجموعات الأصوليـة في مجتمعاتها لتقديم دعم أقـوى للبـوسنيين . وفي نهايـة عـام ١٩٩٢ ، ورد أن السعـوديـة قـدمت تمويـلاً ضخماً لشراء الأسلحة والامـدادات للبوسنيين ، الأمر الـذي زاد كثيراً من قدراتهم العسكـرية تجاه الصرب . وكما أثارت الحرب الأهليـة الاسبانيـة في الثلاثينـات تدخل البلـدان التي كانت ، من النـاحية السياسية ، فاشية وشيوعية وديموقراطية ، يثير النزاع اليوغوسلافي في التسعينات تدخل بلدان إسلامية وأرثـوذوكسية ومسيحية غربيـة . ولم يمض التشابه من دون أن يـلاحظه أحد ، فمثلما لاحظ محرر سعودي : «لقد أصبحت الحرب في البوسنة والهرسك المكافىء العاطفي للقتال ضد الفاشية في الحرب الأهليـة الاسبانية . ومن يقتلون هنـاك يعدون شهداء حاولـوا إنقاذ اشقائهم المسلمين» .

وكذلك ، ستحدث النزاعات بين الدول والمجمـوعات داخل الحضارة نفسها ، بيد انه من المرجح ان تكون هذه النزاعات أقل حدة ، وأن يكـون احتمال توسعها أقل مقابلة بنزاعات ما بين الحضارات ، ذلك أن الانتماء المشترك إلى حضارة ما يقلل احتمال العنف في مواقف كان يمكن أن يحدث فيها لولا هذا الانتماء الحضـاري المشترك . فبين عامي ١٩٩١ و١٩٩٢ انزعج كثير من النـاس من احتمال نشوب نـزاع عنيف بين روسيـا وأوكرانيـا على الأرض ، وخصوصـاً حول شبه جزيرة القـرم وأسطول البحر الأسود والأسلحة النووية والقضايـا الاقتصادية . ونظراً إلى أن الحضارة هي الأمر المهم ، فقد كان من الطبيعي أن يقل احتمال تفجر العنف بين الروس والأوكرانيين . فهما شعبان سلافيان وأرثوذوكسيان في الأساس تربطهما علاقات وثيقة منذ قرون طويلة . وفي مطلع عام ١٩٩٣ ، كان زعماء البلدين يتفاوضون وينزعون فتيل القضايا المتفجرة بين بلديهما ، على الرغـم من كل أسباب النزاع . وفي حين كان هنـاك قتال محتدم بين المسلمين والمسيحيين في أمـاكن أخرى من الاتحاد السـوفياتي السـابق ، وفي حين كان هنـاك الكثير من التوتـر وبعض المناوشـات المسلحة بين المسيحيين الغـربيين والأرثوذوكس في دول البلطيق ، لم يكن هناك عملياً أي عنف بين الروس والأوكرانيين .

لا تزال التعبئـة على أساس حضـاري حتى الآن محدودة ، لكنها آخـذة في النمو . ومن الواضح أن هنـاك إمكان لتوسيع انتشارهـا إلى مدى أبعد . ومع استمرار النـزاعات في الخليج الفارسي والقوقاز والبـوسنة ، فإن مواقف الأمم والانقسامات في ما بينها تقـوم بصورة متزايدة على أسس حضـارية . وقد وجـد السياسيون الشعبويون والزعماء الدينيـون ووسائل الإعلام فيا

النمط من التعبئة الحضارية وسيلة قادرة على تعبئة الجماهير والضغط على الحكومات المترددة. ومن المرجح أن تتحول النزاعات المحلية في السنوات القادمة إلى حروب كبيرة ستدور، مثلما هي الحال في البوسنة والقوقاز، على الحدود الفاصلة بين الحضارات، وستكون الحرب العالمية التالية، إذا ما نشبت، حرباً بين حضارات.

خامساً: الغرب ضد الباقي

إن الغرب حالياً، في أوج قوته، مقابلة بالحضارات الأخرى، فقد اختفت الدولة العظمى الخصيمة له من على الخريطة، والنزاع العسكري بين الدول الغربية أمر لا يتصور، والقوة العسكرية للغرب بلا منافس. وفي ما عدا اليابان، فإن الغرب لا يواجه أي تحدٍ اقتصادي، وهو يهيمن على المؤسسات السياسية والأمنية الدولية، ويهيمن مع اليابان على المؤسسات الاقتصادية الدولية. وتتم تسوية القضايا السياسية والأمنية العالمية بطريقة فاعلة بواسطة مجلس إدارة مكون من الولايات المتحدة والمانيا واليابان. وكلها ترتبط بعضها ببعض بعلاقات وثيقة بصورة غير عادية بما يستبعد البلدان الأقل قوة وغير الغربية أساساً. إن القرارات التي يتخذها مجلس الأمن أو صندوق النقد الدولي، والتي تعكس مصالح الغرب، تقدم للعالم باعتبارها قرارات تعكس رغبات المجتمع العالمي، بل إن تعبير «المجتمع العالمي» نفسه أصبح اسماً جماعياً ملطفاً (يحل محل «العالم الحر») لإضفاء مشروعية كونية على الأعمال التي تعكس مصالح الولايات المتحدة والدول الغربية الأخرى [٤]. ويدعم الغرب من خلال صندوق النقد الدولي والمؤسسات الاقتصادية الدولية الأخرى مصالحه الاقتصادية، ويفرض على الأمم الأخرى سياسات اقتصادية يرى أنها مناسبة. وفي أي استطلاع لرأي الشعوب غير الغربية، لاشك في أن صندوق النقد الدولي سيظفر بتأييد وزراء المالية وقلة غيرهم، ولكن الأغلبية الساحقة لن يكون تقديرها له مؤاتياً. فالجميع متفقون مع وصف جورجي ارباتوف لمسؤولي الصندوق بأنهم «البلاشفة الجدد الذين يحبون الاستيلاء على أموال الآخرين، وفرض قواعد غير ديموقراطية وغربية للسلوك الاقتصادي والسياسي وتقليص الحرية الاقتصادية».

---

(٤) يدعي زعماء الغرب بصورة لا تتبدل تقريباً أنهم يعملون نيابة عن «المجتمع العالمي». وفي حديث في برنامج «صباح الخير ما أميركا» في ٢١ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٠، أشار جون ميجور، رئيس الوزراء البريطاني، إلى الإجراءات التي يتخذها «الغرب» ضد صدام حسين، لكنه تدارك نفسه سريعاً وأشار بعد ذلك إلى «المجتمع العالمي». لكنه على الرغم ذلك، كان على صواب عندما أخطأ.

لقد أضفت سيطرة الغرب على مجلس الأمن وقراراته ـ التي يلطف منها أحياناً فقط امتناع الصين عن التصويت ـ مشروعية الأمم المتحدة على استخدام الغرب للقوة لطرد العراق من الكويت والقضاء على أسلحة العراق وقدراته على إنتاج مثل هذه الأسلحة، كما أدت إلى الإجراء الأول من نوعه الذي قامت به الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا لجعل مجلس الأمن يطالب ليبيا بتسليم من يشتبه في أنهما قاما بتفجير طائرة «بان أميركان ١٠٣»، ثم فرض عقوبات على ليبيا لرفضها ذلك. وبعدما هزم الغرب أكبر جيش عربي، لم يتردد في الإلقاء بثقله حول العالم العربي. والواقع أن الغرب يستغل المؤسسات الدولية، والقوة العسكرية والموارد الاقتصادية لإدارة العالم بطرائق تحافظ على الهيمنة الغربية، وتحمي المصالح الغربية، وتدعم القيم السياسية والاقتصادية الغربية.

تلك هي على الأقل الطريقة التي يرى بها غير الغربيين العالم الجديد، وهناك قدر كبير من الحقيقة في هذا الرأي. وهكذا، فإن الفروق في القوة والصراعات على القوة العسكرية والاقتصادية والمؤسسية هي أحد مصادر النزاع بين الغرب والحضارات الأخرى. وتمثل الاختلافات في الثقافة، أي القيم والمعتقدات الأساسية، مصدراً ثانياً للنزاع. وقد حاج ف. س. نايبول بأن الحضارة الغربية هي حضارة كونية كلية تناسب كل الناس. وإذا كان صحيحاً على المستوى السطحي أن الحضارة الغربية تخللت حقاً باقي العالم، فإن المفاهيم الغربية، على مستوى أساسي بدرجة أكبر، تختلف بصورة أساسية عن تلك السائدة في الحضارات الأخرى. فالأفكار الغربية عن الفردية والليبرالية والدستورية وحقوق الانسان والمساواة والحرية وحكم القانون والديموقراطية والأسواق الحرة وفصل الكنيسة عن الدولة، ليس لها، عادة، جاذبية كبيرة في الثقافات الإسلامية والكونفوشيوسية واليابانية والهندوسية والبوذية أو الأرثوذكسية. وبدلاً من ذلك أنتجت جهود الغرب ـ لنشر مثل هذه الأفكار ـ رد فعل معادياً «لأمبريالية حقوق الانسان» وإعادة تأكيد للقيم المحلية الأصلية، مثلما يتراءى في تأييد الجيل الأصغر سناً في الثقافات غير الغربية للأصولية الدينية. إن المفهوم القائل إنه يمكن أن تكون هناك «حضارة عالمية» هو نفسه فكرة غربية تتناقض بصورة مباشرة مع خصوصية معظم المجتمعات الآسيوية وتركيزها على ما يميز شعب عن آخر. والواقع أن مؤلف كتاب ضم ١٠٠ دراسة مقارنة عن القيم في المجتمعات المختلفة، توصل إلى «أن القيم الأكثر أهمية في الغرب، هي الأقل أهمية على النطاق العالمي»[٥]. وفي المجال السياسي، فإن هذه

(٥) Harry C. Triandis, The NewYork Times, Dec. 25, 1990, p. 41, and "Gross - Cultural Studies of Indevidualism and Collectivism," Nebraska Symposium on Motivation, vol. 37, 1989, pp. 41 - 133.

الاختلافات أشد وضوحاً بالطبع في الجهود التي تبذلها الولايات المتحدة والدول الغربية الأخرى لدفع الشعوب الأخرى إلى تبني الأفكار الغربية في ما يتعلق بالديموقراطية وحقوق الانسان. لقد نبع الحكم الديموقراطي الحديث من الغرب، وعندما تطور في المجتمعات غير الغربية كان، عادة، نتاجاً للاستعمار الغربي أو الفرض الغربي.

ومن المرجح أن يتمثل المحور المركزي للسياسات العالمية في المستقبل ـ على حد تعبير كيشوري محبوباني ـ في النزاع بين «الغرب وبقية العالم» وردود الحضارات غير الغربية على القوة والقيم الغربية. (٦) وبصفة عامة، فإن هذه الردود تتخذ أحد ثلاثة أشكال أو توليفة منها. ففي طرف قصي، تستطيع الدول غير الغربية، مثل بورما وكوريا الشمالية، أن تحاول اتباع مسار العزلة لتعزل مجتمعاتها عن تسلل «الفساد» من الغرب، والواقع أنها تختار بذلك عدم المشاركة في المجتمع العالمي الذي يهيمن عليه الغرب. بيد أن تكاليف هذا المسار عالية، وقد اتبعته قلة من الدول على وجه الحصر؛ والبديل الثاني، وهو المكافىء «للانتظام في قافلة عربات الفريق» في نظرية العلاقات الدولية، ويتمثل في محاولة الانضمام إلى الغرب وقبول قيمه ومؤسسات؛ والبديل الثالث هو محاولة «موازنة» الغرب بتطوير قوة اقتصادية وعسكرية والتعاون مع المجتمعات غير الغربية الأخرى ضد الغرب، مع الحفاظ على القيم والمؤسسات المحلية الأصلية، أي، باختصار، التحديث من دون التغريب.

سادساً: البلدان الممزقة

في المستقبل، وعندما يتمايز الناس في ما بينهم، بحسب الحضارة، فإن البلدان التي توجد فيها أعداد كبيرة من الشعوب ذوي الحضارات المختلفة، مثل الاتحاد السوفياتي ويوغوسلافيا، مرشحة لتقطيع أوصالها. ولدى بعض البلدان الأخرى درجة كبيرة من التناغم الثقافي، لكنها منقسمة حول ما إذا كان مجتمعها ينتمي إلى حضارة أو إلى أخرى. وتلك هي البلدان الممزقة. وعادة ما يرغب زعماؤها في اتباع استراتيجية الانضواء في قافلة العربات، وجعل بلدانهم أعضاء في الغرب، لكن تاريخ هذه البلدان وثقافاتها وتقاليدها ليست غربية، وتركيا هي أبرز وأوضح بلد ممزق. فقد سار زعماء تركيا في أواخر القرن العشرين على تقاليد اتاتورك وعرّفوا تركيا باعتبارها دولة/ أمة حديثة وعلمانية وغربية وجعلوا تركيا تتحالف مع

(٦) Kishore Mahbubani, "The West and the Rest," *The National Interest*, Summer 1992, pp. 3 - 13.

الغرب في الحلف الأطلسي وفي حرب الخليج، وتقدموا بطلب العضوية في الجماعة الأوروبية. بيد أنه، في الوقت نفسه، كانت هناك عناصر في المجتمع التركي تؤيد الاحياء الإسلامي، وتؤكد أن تركيا هي في الأساس مجتمع إسلامي شرق أوسطي. وفي حين أن النخبة في تركيا حددت تركيا باعتبارها مجتمعاً غربياً، فإن النخبة في الغرب ترفض قبول تركيا بهذه الصفة. إن تركيا لن تصبح عضواً في الجماعة الأوروبية. والسبب الحقيقي، كما قال الرئيس أوزال، هو «إننا مسلمون وهم مسيحيون وهم لا يقولون ذلك». وإذ رفضت تركيا مكة، ورفضت من قبل بروكسل، فإلى أين تتطلع؟ ربما تكون طشقند هي الرد. لقد أتاح انهيار الاتحاد السوفياتي الفرصة لتركيا لأن تصبح زعيمة الحضارة التركية المنبعثة التي تضم سبعة بلدان من حدود اليونان الى حدود الصين، وإذ يشجعها الغرب، فإن تركيا تقوم بمجهود مضن لتشكيل هذه الهوية الجديدة لنفسها.

وخلال العقد الماضي، كان وضع المكسيك مماثلاً نوعاً ما لوضع تركيا، فمثلما تخلت تركيا عن معارضتها التاريخية لأوروبا، وحاولت أن تنضم إليها، فقد كفت المكسيك عن أن تعرف نفسها من طريق معارضتها للولايات المتحدة، وأخذت تحاول، بدلاً من ذلك، تقليد الولايات المتحدة والانضمام إليها في منطقة التجارة الحرة لأميركا الشمالية، وأخذ زعماء المكسيك ينغمسون في المهمة الكبيرة لإعادة تحديد الهوية المكسيكية، وبدأوا بتطبيق إصلاحات اقتصادية جذرية ستؤدي في النهاية إلى تغيير سياسي أساسي. وعام ١٩٩١ وصف المستشار الأول للرئيس كارلوس ساليناس دي جورتاري لي مطولاً كل التغييرات التي تجريها حكومته. وعندما انتهى، أدليت بملاحظة قائلاً: «ذلك مدهش؛ يبدو لي أنكم في الأساس تحاولون تغيير المكسيك من بلد أميركي لاتيني إلى بلد أميركي شمالي». فنظر إلي في دهشة وتعجب قائلاً: «بالضبط؛ ذلك هو على وجه الدقة ما نحاول أن نفعله، لكننا لا نستطيع ان نقول ذلك علانية». ومثلما توضح ملاحظته، ففي المكسيك كما في تركيا، توجد عناصر كثيرة في المجتمع تقاوم إعادة تحديد هوية بلادها. ففي تركيا، قام الزعماء ذوو الاتجاه الأوروبي بمبادرات تجاه الإسلام (رحلة الحج التي قام بها أوزال إلى مكة)، وفي المكسيك أيضاً، قام الزعماء ذوو الاتجاه الأميركي الشمالي بمبادرات تجاه من يعتبرون المكسيك بلداً أميركياً لاتينياً (قمة ساليناس كوادا لاخارا الإيبرية الأميركية).

وإذا كانت تركيا، من الناحية التاريخية، هي البلد الممزق، كان المكسيك أكثر البلاد الممزقة قرباً بالنسبة إلى الولايات المتحدة، فإن روسيا هي أهم بلد ممزق على النطاق العالمي. فقد ظلت مسألة ما إذا كانت روسيا جزءاً من الغرب أو قائدة لحضارة سلافية ـ أرثوذكسية

متميزة مثارة بطريقة متكررة في التاريخ الروسي. وقد ألقى الانتصار الشيوعي في روسيا بظلاله على تلك القضية. فهو استورد إيديولوجية غربية، وطوعها لظروف روسيا، ثم تحدى الغرب باسم تلك الإيديولوجية. وأنهت سيطرة الشيوعية الجدل التاريخي حول التغريب مقابل الترويس. ومع زوال حظوة الشيوعية، عاد الروس لمواجهة تلك القضية.

ويتبنى الرئيس يلتسين المبادىء والأهداف الغربية، ويسعى لجعل روسيا بلداً «طبيعياً» وجزءاً من الغرب، ومع ذلك، فإن الصفوة الروسية والجماهير الروسية على حد سواء منقسمون حول هذه القضية. ومن بين المخالفين الأكثر اعتدالاً، يحاج سيرجي ستانكفتش بأن روسيا ينبغي لها أن ترفض المسار «الأطلسي» الذي سيجعلها «أوروبية وجزءاً من الاقتصاد العالمي بطريقة سريعة ومنظمة، والعضو الثامن في مجموعة السبعة، وأن تركز بصفة خاصة على الولايات المتحدة وألمانيا باعتبارهما العضوين المسيطرين في حلف الأطلسي». وفي حين يرفض ستانكفتش اتباع سياسة أوراسية على وجه الحصر، فإنه يحاج، على الرغم من ذلك، بأن روسيا ينبغي أن تعطي الأولوية لحماية الروس في البلدان الأخرى، وأن تؤكد روابطها التركية والإسلامية، وأن تشجع إجراء «إعادة توزيع كبيرة لمواردنا وخيراتنا، وعلاقتنا ومصالحنا لصالح آسيا، وباتجاه الشرق للشرق». وينتقد من يؤمنون بهذا يلتسين لإخضاعه مصالح روسيا لمصالح الغرب ولتقليل القوة العسكرية الروسية، وللتقاعس عن تأييد الأصدقاء التقليديين، مثل صربيا، ولدفع الإصلاح الاقتصادي والسياسي بطرائق تضر بالشعب الروسي. وما له دلالته على هذا الاتجاه الشعبية الجديدة لأفكار بيتر سافتسكي، الذي حاج في العشرينات بأن روسيا هي حضارة أوراسية فريدة [(٧)]. ويعرب المنشقون الأكثر تطرفاً عن آراء قومية متطرفة ومعادية للغرب والسامية بصورة أكثر صراحة، ويطالبون بأن تعيد روسيا تطوير قوتها العسكرية، وأن تقيم علاقات أوثق مع الصين ومع البلدان الإسلامية. وشعب روسيا منقسم مثله مثل النخبة. فقد كشف مسح للآراء في روسيا الأوروبية في ربيع ١٩٩٢ أن ٤٠ في المئة من الرأي العام يتبنى مواقف إيجابية تجاه الغرب، وأن ٣٦ في المئة منه يتبنون مواقف

(٧) أوضح أوين هاريس أن استراليا تحاول «بصورة غير حكيمة (في رأيه) أن تصبح بلداً ممزقة بالمقلوب. فعلى الرغم من أنها كانت عضواً كاملاً ليس في الغرب فحسب، بل في القلب العسكري والاستخباري للغرب (ABCA)، فإن زعماءها الحاليين يؤكدون في الواقع ضرورة إبتعادها عن الغرب، وإعادة تحديد نفسها كبلد آسيوي، وأن تقيم علاقات وثيقة مع جيرانها. ويقولون إن مستقبل استراليا يكمن مع اقتصادات شرق آسيا الدينامية. ولكن مثلما قلت فإن التعاون الاقتصادي الوثيق يتطلب عادة أساساً ثقافياً مشتركاً. بالإضافة إلى أنه لا يوجد في حالة استراليا أي من الشروط الثلاثة الضرورية لانضمام بلد ممزق الى حضارة أخرى.

سلبية. ومثلما كانت روسيا في معظم تاريخها، فإنها في مطلع التسعينات بلد ممزق حقاً.

ولكي يعيد بلد ممزق تحديد هويته الحضارية، ينبغي عليه أن يفي بثلاث متطلبات.

أولاً: ينبغي أن تكون النخبة السياسية ـ الاقتصادية فيه، بصفة عـامة، مؤيدة لهذا التحرك ومتحمسة له.

ثانياً: ينبغي أن يكون الرأي العام فيه مستعداً للإذعان لإعادة التحديد هذه.

ثالثاً: ينبغي أن تكون الجماعات المسيطرة في الحضارة المتلقية راغبة في تبني التحول.

وكل هذه المتطلبات الثلاث موجودة إلى حد كبير في مـا يتعلق بالمكسيك؛ والشرطان الأول والثاني متوافـران إلى حد بعيد في ما يتعلق بتركيا. وليس من الـواضح ما إذا كان أي منهما متوافراً في ما يتعلق بانضمام روسيا إلى الغرب.

لقد كـان الصراع بين الديموقـراطية ـ الليبراليـة والماركسيـة ـ اللينينية صراعـاً بين إيديولوجيتين تتقاسمان، على الرغم من خلافـاتهما الكبيرة، الأهداف النهائية للحرية والمساواة والازدهار. وقد تكـون لروسيا تقليديـة واستبدادية وقوميـة ومتطرفة، أهدافـاً مختلفة تماماً. إن ديموقراطياً غـربياً يمكن أن ينغمس في جدل فكري مع ماركسي سوفيـاتي، ولكنه سيكون من المستحيل عملياً بالنسبة إليه أن يفعل ذلك مع روسي من انصـار التقاليد. وإذا توقف الروس عن التصرف مثل الماركسيين، ورفضوا الديمـوقراطية ـ الليبراليـة، وتصرفوا مثل الروس وليس مثل الغربيين، فإن العلاقات بين روسيا والغرب قد تصبح مرة أخرى علاقات تباعد وتأزم.

سابعاً: الصلة الكونفوشيوسية ـ الإسلامية

يتباين حجم العقبات التي تقف في وجه انضمام البلدان غير الغربية إلى الغرب بصورة كبيرة؛ فهي أقل عـدداً بالنسبـة إلى بلدان أميركيـا الـلاتينية وشرق أوروبـا، وأكبر بالنسبـة إلى البلـدان الأرثوذوكسيـة لـلاتحاد السوفيـاتي السـابق، وأكبر من ذلك بـالنسبة إلى المجتمعـات الإسلاميـة والكونفوشيـوسية والهندوسيـة والبوذية. لقـد أقامت اليابـان لنفسها وضعاً فـريداً كعضو منتسب إلى الغـرب؛ فهي في الغرب في بعض النواحـي، لكن من الواضح أنها ليست من الغرب في أبعـاد مهمة. وتتنـافس تلك البـلدان ـ التي لا تريـد بسبب الثقافـة والقوة أن تنضم إلى الغرب أو لا تستطيع ذلك ـ مـع الغـرب عبر تطـوير قـوتها الاقتصادية والعسكرية والسياسية الخاصـة. وهي تفعل ذلك بالنهوض بتنميتها الداخلية وبـالتعاون مع البلدان غير

الغربية الأخرى. وأبرز شكل لهذا التعاون هو الصلة الكونفوشيوسية ـ الإسلامية التي ظهرت لتتحدى المصالح والقيم والقوة الغربية.

ومن دون استثناء تقريباً، فإن البلدان الغربية أخذت تخفض قوتها العسكرية، وكذلك تفعل روسيا بقيادة يلتسين، بيد أن الصين وكوريا الشمالية وكثيراً من دول الشرق الأوسط، توسع قدراتها العسكرية بصورة كبيرة. وهي تفعل ذلك باستيراد الأسلحة هذه من المصادر الغربية وغير الغربية، وبتطوير صناعات الأسلحة المحلية. وإحدى نتائج هذا المنحى تتمثل في ظهور ما سماه تشارلز كروامهامر «دول الأسلحة»؛ ودول الأسلحة هذه ليست دولاً غربية، وهناك نتيجة أخرى تتمثل في إعادة تعريف الحد من الأسلحة، وهو مفهوم غربي وهدف غربي. ففي خلال الحرب الباردة، كان الهدف الرئيسي للحد من الأسلحة هو إقامة توازن عسكري مستقر بين الولايات المتحدة وحلفائها من جهة، والاتحاد السوفياتي وحلفائه من جهة أخرى. وفي عالم ما بعد الحرب الباردة، فإن الهدف الرئيسي للحد من الأسلحة هو منع استحداث المجتمعات غير الغربية لقدرات عسكرية قد تهدد المصالح الغربية. ويحاول الغرب أن يحقق هذا من خلال اتفاقات دولية، ومن خلال الضغط الاقتصادي والقيود على الأسلحة وعلى نقل تكنولوجيات السلاح.

ويتركز النزاع بين الغرب والدول الكونفوشيوسية ـ الإسلامية إلى حد كبير، وإن لم يكن على وجه الحصر، على الأسلحة النووية والكيميائية والبيولوجية والصواريخ البالستية وغيرها من وسائل إطلاقها وتوجيهها وقدرات الاستخبارات والقدرات الالكترونية وغيرها لتحقيق هذا الهدف. ويروج الغرب لعدم الانتشار باعتباره قاعدة عالمية ولمعاهدات عدم الانتشار والتفتيش باعتبارها وسيلة لتطبيق هذه القاعدة، كما يهدد بانزال مروحة متنوعة من العقوبات على من يعملون على نشر الأسلحة المتقدمة، ويقترح بعض المنافع لمن لا يفعلون ذلك. وبالطبع، يتركز اهتمام الغرب على الأمم المعادية للغرب.

وعلى الجانب الآخر، تؤكد الأمم غير الغربية حقها في الحصول على أسلحة تراها ضرورية لأمنها. كما استوعبت ـ الى أقصى حد ـ حقيقة رد وزير الدفاع الهندي عندما سئل عن الدرس الذي تعلمه من حرب الخليج، فقال: «لا تحاربوا الولايات المتحدة ما لم تكن لديكم أسلحة نووية». وتعتبر الأسلحة النووية والكيميائية، ربما بصورة خاطئة، المعادل المحتمل لقوة عظمى تقليدية غربية. بالطبع، إن لدى الصين أسلحة نووية، ولدى باكستان والهند قدرة على نشرها، ويبدو أن كوريا الشمالية وإيران والعراق وليبيا والجزائر تحاول الحصول عليها. وقد أعلن مسؤول إيراني كبير أن الدول الإسلامية كافة ينبغي لها أن تحصل على أسلحة

نوويـة، وعام ١٩٨٨ ورد أن رئيس إيران أصـدر توجيهـاً يدعو إلى تطـوير «أسلحة هجـومية ودفاعية وكيميائية وبيولوجية واشعاعية».

والأمر الذي له أهمية مركزية لتطويـر قدرات عسكرية مضادة للغرب، التوسع المستمر للقـدرة العسكـرية للصين ووسـائل انمائهـا. فـالصين التي ازدهـرت بفعل تنمية اقتصـاديـة مذهلـة، أخذت تزيـد سريعاً من انفاقهـا العسكري وتتحرك بقـوة إلى الأمام في مجال تحديث قواتها المسلحـة، وهي تشتري الأسلحة مـن دول الاتحاد السوفياتي السـابق، وتطور صـواريخ بعيدة المدى، وقد اختبرت عام ١٩٩٢ جهازاً نووياً قـوته واحد ميغا طن. وهي تطور قدرات نشر القوة واستخدامها، وتحصـل على تكنولوجيا إعادة التزويـد بالوقود في الجو، وتحاول شراء حاملة طائرات. ويثير حشـدها العسكري وتأكيدها السيـادة على بحر جنوب الصين سباق تسلح إقليمي متعـدد الأطـراف في شرق آسيـا. كما أن الصين مصـدر رئيسي لـلأسلحـة ولتكنولوجيا السـلاح، وقد صدرت مواداً إلى ليبيا والعراق يمكن استخـدامها في صنع أسلحة نوويـة وغاز الأعصاب، وسـاعدت الجزائر في بناء مفاعل منـاسب لبحوث الأسلحة النـووية وإنتاجهـا، وباعت الصين لإيـران تكنولـوجيا نوويـة يعتقد المسـؤولون الأميركيـون أنه يمكن استخدامها في إنتاج الأسلحة. ومن الواضح أنها شحنت مكونات صواريخ مداها ٣٠٠ ميل إلى باكستـان. ولدى كوريـا الشمالية برنـامج للأسلحـة النووية يجري تنفيـذه منذ فترة، وهي باعت صـواريخ متطورة وتكنولـوجيا الصواريـخ لسوريا وإيـران. وبصفة عامـة، فإن تدفق الأسلحـة وتكنولـوجيـا الأسلحـة يتم من شرق آسيا إلى الشرق الأوسط، بيـد أن هنـاك بعض التحرك في الاتجاه المعاكس، إذ حصلت الصين على قذائف ستنغر من باكستان.

وهكـذا، قامت رابطـة عسكريـة كـونفوشيـوسيـة ـ إسـلامية تهدف إلى دعم حصـول أعضائها على الأسلحة وتكنولوجيات الأسلحة المطلـوبة لمواجهة القوة العسكرية للغرب. وقد تستمـر هـذه الـرابطـة أو لا تستمـر، بيـد أنها في الـوقت الحاضر، تشكل، مثلما قـال ديف ماكوردي، حلفاً للدعم المتبادل «للمارقين يديره العاملون على نشر الأسلحة ومن يظاهرونهم». وهكذا يقوم شكل من التنافس على الأسلحة بين الدول الإسلاميـة ـ الكونفوشيوسية والغرب. وفي سبـاق للتسلح من الطراز القـديم، كان كل طـرف يطور أسلحتـه ليوازن أو يتفـوق على الطـرف الآخـر. وفي هـذا الشكل الجديـد من التنـافس على الأسلحـة، يطـور الطـرف الأول أسلحته، ولا يحاول الطرف الآخر موازنة هـذا الحشد للأسلحة، بل الحد منه ومنعه، في حين يقلل في الوقت نفسه من قدراته العسكرية الخاصة.

ثامناً: الآثار الضمنية بالنسبة إلى الغرب

لا يقول هذا المقال إن الهويات الحضـارية ستحل محل الهويات الأخرى، وإن الدول/ الأمم سـوف تختفي، وإن كـل حضـارة ستصبح كيـانـاً سيـاسيـاً متماسكـاً مـوحـداً، وإن المجموعـات داخل حضارة مـا لن تتنازع أو لن تحارب بعضهـا بعضاً. إن هـذه الورقـة تطرح فروضاً عن أن الخلافات بين الحضارات حقيقية ومهمة، وأن الوعي بالحضارة آخذ في التزايد، وأن النزاع بين الحضارات سيحل محل الأشكـال الإيديولوجية وغيرها للنـزاع، باعتباره الشكل العالمي المهيمن للنـزاع، وأن العلاقـات الدوليـة، التي كانت تـاريخياً مباراة يتـم لعبها داخل الحضارة الغربية، سيتم نزع طابعها الغربي بصـورة متزايدة وتغدو مباراة تكون فيها الحضارات غير الغربية قوى فاعلة وليست مجرد مفعول به، وأن المؤسسات الاقتصادية والأمنية والسياسية الدولية الناجحة يتزايد احتمال تطورها داخل الحضارات وليس عبر الحضارات، وأن النزاعات بين المجموعـات في الحضارات المختلفـة ستكون أكثر تـوتراً، وأكثر استـدامة وأكثـر عنفاً من النـزاعات بين المجمـوعـات في الحضـارة نفسهـا، وأن النزاعـات العنيفـة بين المجموعـات في الحضارات المختلفـة هي أرجح وأخطر مصدر للتصعيـد الذي يؤدي إلى حروب عـالمية، وأن المحور البارز للسياسات العالميـة سيتمثل في العلاقات بين «الغرب والباقي»، وأن النخب في بعض البلدان غير الغربيـة الممزقة ستحاول جعل بلدانها جزءاً من الغـرب، لكنها ستواجه في معظم الأحـوال عقبات في سبيل تحقيق ذلك، وأن البـؤرة المركزيـة للنزاع في المستقبل المبـاشر ستكون بين الغرب ودول إسلامية وكونفوشيوسية عدة.

وليس في هذا دعوة إلى استصواب النزاعات بين الحضارات، بل تقديم فروض وصيغة لما قد يكـون عليه المستقبل. بيـد أنه لـو كانت هـذه الفروض معقولـة، فمن الضروري بحث نتائجها الضـمنية بالنسبة إلى سياسـة الغرب؛ وهذه النتائج الضمنية ينبغي تقسيمها بين نتائج تعطي أفضلية للغرب في الأجل القصير ونتائج تسووية في الأجل الطويل.

فمن الـواضح أنه مـا يتفق في الأجل القصير مع مصلحة الغـرب، أن يتدعم التعـاون والوحدة المتزايدان داخل حضارته، وخصوصاً بين العنصرين الأوروبي والأميركي الشمالي، وأن تدمج في الغرب مجتمعات في أوروبـا الشرقية وأميركا اللاتينية ثقافاتها قريبـة لثقافات الغرب، وأن يتم الحفاظ على عـلاقات التعـاون مع روسيا واليـابان وبالتـالي تعزيـزها، ومنع تصـاعد النزاعات المحلية داخل الحضارات إلى حروب كبيرة، والحد مـن توسع القوة العسكرية للدول الإسلامية والكونفـوشيوسية، والاعتدال في تخفيض القدرات العسكريـة الغربية والحفاظ على

التفوق العسكري في شرق آسيا وجنوبها الغربي، واستغلال الخلافات والنزاعات بين الدول الكونفوشيوسية والإسلامية، ودعم المجموعات الحضارية الأخرى المتعاطفة مع القيم والمصالح الغربية، وتقوية المؤسسات الدولية التي تعكس المصالح والقيم المشروعة للغرب وتدعم مشاركة الدول غير الغربية في تلك المؤسسات.

وفي المدى الأطول، سيتطلب الأمر اتخاذ تدابير أخرى. فالحضارة الغربية غربية وحديثة في آن معاً. وقد حاولت الحضارات غير الغربية أن تصبح حديثة من دون أن تكون غربية، لكن اليابان فقط هي التي نجحت في هذا المسعى، وستواصل الحضارات غير الغربية محاولة الحصول على الثروة والتكنولوجيا والمهارات والآلات والأسلحة التي تشكل جزءاً من الحداثة، كما ستحاول التوفيق بين هذه الحداثة وثقافتها وقيمها التقليدية. وستزيد قوتها الاقتصادية والعسكرية بالنسبة إلى الغرب. ومن ثم سيتعين على الغرب أن يتراضى بصورة متزايدة مع هذه الحضارات الحديثة غير الغربية التي تقترب قوتها من قوته، وإن كانت قيمتها ومصالحها تختلف بصورة كبيرة عن قيمه ومصالحه. ويقتضي هذا أن يحتفظ الغرب بالقوة الاقتصادية والعسكرية الضرورية لحماية مصالحه بالنسبة إلى هذه الحضارات. بيد أن ذلك يقتضي أيضاً أن يطور الغرب فهماً أعمق للفروض الدينيةوالفلسفية الأساسية الكامنة وراء الحضارات الأخرى والطريقة التي ترى بها شعوب هذه الحضارت مصالحها. وسيقتضي ذلك جهداً لتحديد العناصر المشتركة بين الحضارة الغربية وغيرها من الحضارات. وبالنسبة إلى المستقبل، لن تكون هناك حضارة عالمية، بل عالم يضم حضارات مختلفة ينبغي أن يتعلم كل منها التعايش مع غيره.

الاستـدعـاء

فؤاد عجمي

«وأقمت عليكم رقباء قائلين أصغوا لصوت البوق فقالوا لا نصغي» ارميا ٦ : ١٧ .

في «شباب» جوزيف كونراد، نُشرت قصة قصيرة في مطلع القرن بعنوان «مارلو» يتذكّر فيها الراوي أول لقاء له مع «الشرق»:

«وعندئذ، وقبل أن أتمكّن من فتح فمي، تحدث الشرق إليَّ، ولكن بصوت غربي. وانهمر سيل من الكلمات في الصمت الشبيه باللغز وبالقدر، كلمات غير مألوفة وغاضبة، مختلطة بكلمات بل وجمل كاملة من الانكليزية الصحيحة، أقل غرابة، وإن كانت أكثر مدعاة للدهشة. كان الصوت يُقسم بأغلظ الأيمان ويلعن بعنف، كان يُربك السلام المقدَّس للخليج بوابل من الكلمات عن انتهاك المقدَّسات. وبدأ بأن وصفني بأنني خنزير ثم تصاعد من ذلك إلى صفات لا يمكن وصفها ـ بالانكليزية».

كان مارلو الشاب يعرف أن الغرب يشكِّل ويعيد تشكيل حتى أكثر الحضارات نأياً، وهو الذي يُعلم الطرق الجديدة.

ويبدو أن صمويل ب. هانتنغتون لا يعرف ذلك. ففي مقال له بعنوان «صدام الحضارات» وجد أن حضاراته كاملة ومتماسكة تحت سماء خالدة. وهذه الحضارات التي دُفنت حيّة، كما حدث خلال سنوات الحرب الباردة (وهي الحضارات الإسلامية والسلافية الأرثوذوكسية والغربية والكونفوشيوسية واليابانية والهندوسية . . . الخ) نهضت فور إزاحة الحجر من عليها، ونفضت الغبار عن نفسها، وشرعت تطالب أتباعها بالولاء لها. وقد بدت الحضارات، على الدوام، لدارس التاريخ والثقافة، مخلوقات تتسم بالفوضى. فالأخاديد الفاصلة تمتد عبر الحضارات بأكملها، عبر الأفراد أنفسهم ـ ذلك هو الحكم الذي قضت به الحداثة. لكن هانتنغتون يتغافل عن كل ذلك ويقوم بتقويم أزمة العالم الملتوية والمتعرجة. وبقلم رصاص حادّ ويدٍ ثابتة يحدِّد هانتنغتون أين تنتهي حضارة ما وأين تبدأ «براري» حضارة أخرى.

والأكثر مدعاة للدهشة هو موقف هانتنغتون تجاه الدول، ومكانها في نظام الأشياء الذي وضعه، إذ تصدر حالياً عن واحد من ألمع دارسي الدولة وأكثرهم تأثيراً، مقالة تغفل حكمة الدول والطبيعة الباردة غير العاطفية للكثير مما تفعله وهي تشق طريقها من خلال الفوضى والتشوش. وعلى الرغم من المقطع الاضطراري عن أن الدول ستظل هي «أقوى القوى الفاعلة في الشؤون الدولية»، فإن الدول، كما كتب قائلاً، تُخلي مكانها للحضارات المتصادمة. وعلى حد تعبير هانتنغتون، فإن «الحرب العالمية القادمة، إن حدثت، ستكون حرباً بين الحضارات».

قوة الحداثة

إن تفكير هانتنغتون ناجم عن انشغاله بالدولة في الغرب وقوتها وشروط اشتباكها مع «الباقي»[1]. لقد لاحظ المؤرخ الكبير فيرناند بروديل في حديثه عن انتقال الحضارات أن «من يعطي يسود»، وأن الغرب، وهو يصنع نفسه على مر القرون، ساعد أيضاً في صنع الآخرين. وقد وصلنا إلى نهاية الطريق، وكان هانتنغتون واثقاً من ذلك، وهو منزعج من «نزع الطابع الغربي عن المجتمعات»، و«إضفاء الطابع الوطني عليها»، ويشعر بالقلق من إرادتها الظاهرة في أن تمضي في طريقها الخاص. ورأيه في أمور مثل ظاهرة «إضفاء الطابع الهندوسي» في الهند والأصولية الإسلامية، هو نوع من قراءة الطابع. ويعزو هانتنغتون إلى هذه الانعطافات في «التقاليد» قوة وقدرة كبيرتين.

لكن هانتنغتون مخطىء. فقد بخس القدر الذي تتشبث به الحداثة والعلمانية في الأماكن التي كسبتاها على الرغم من حجم المخاطر التي اعترضتهما، بحيث بدا الوضع يقترب بصورة مهلكة من الهاوية، والظلام الذي لا يبدو بعيداً أبداً. إن الهند لن تصبح دولة هندوسية لأن تراث العلمانية الهندية سيصمد. فالطبقة الوسطى الواسعة النطاق ستدافع عنه، وستبقي على النظام سلمياً بغية الحفاظ على مكانة الهند ـ الخاصة بها ـ في عالم الدول الحديثة. إذ إن في تلك الدولة المتسمة بحالة من الفوضى خوفاً غريزياً من اللعب بالنار التي قد تُحرقها. وقد تجعل الشوفينية الهندوسية الحياة العامة للبلاد خشنة، لكن الدولة والطبقة

---

(١) لم تبحث مقالة هانتنغتون مسألة الغرب نفسه. فليست هناك شقوق فاصلة تمتد فيه. ولم نسمع فيه عن متعددي الثقافات. إنه غرب منتظم ومرتّب داخل حدوده. وأياً كانت الشكوك لدى هانتنغتون في شأن الإرادة داخل الجدران، فقد أبقاها في نفسه. وافترض أن دعوته إلى الوحدة ستتم تلبيتها، لأن رايات العرب والكونفوشيوسيين ترفرف في الخارج.

الوسطى التي تقـوم عليها تعرفان أن الانعطـاف إلى التعصب الديني هو انـدفاع إلى الخراب، علماً أن الطبقة الوسطى الواسعـة الحيلة تشارك في تبني الثقافة والقواعـد العالمية. ولقد انصرم قرن من الزمان منـذ أن طالبت البورجوازية الهندية، من خـلال أداتها السياسية، حزب المؤتمر الوطني الهندي، بـالهند لنفسها، وبمكانة للهند بين الأمم. ونتيجـة لهذا النضال الطويل من أجل التخلّص من الحكم البريطـاني والنضـال الموازي ضـد «الطائفيـة»، بنى المدافعـون عن الفكرة القومية دولة كبيرة ودائمة، ولن يتخلوا عن كل هذا لمملكة سياسية للنقاء الهندوسي.

لقد سمعنا الكثير من أنصار التقاليد، لكن ينبغي ألا نغالي في قوتهم. بيد أن التقاليد تصبح عادة أكثـر إلحاحاً وأعلى صوتـاً عندما تتحطم، وحين لا يعـود الناس يؤمنـون بها حقاً وعندما تفقد العادات القديمة العهد قـدرتها على إبقاء الرجال والنساء في ديارهم. إن الظاهرة التي وصفناها بالأصـولية الإسلامية هي علامة ذعر وارتبـاك وإحساس بالذنب من أن الحدود مع «الآخرين» قد تمَّ عبـورها، أكثر منها علامة على الانبعـاث. فهل يمكن أن نرى في هؤلاء الشبان المدينيين الفقراء، أنصاف المتعلمين في مدن العـالم العربي، ومبشريهم الذين تعلموا في السوربون، عودة حقيقيـة إلى التقاليد؟ لقد حطم هؤلاء أبواب أوروبـا وأميركا بحثاً عن الحرية والعمل، وتمرَّدوا على خطـايا الغرب. ومـن السهل فهم إحباط هـانتنغتون إزاء هذا النـوع من التعقيد و إزاء ذلك الخليط الغـريب من الجاذبية والنفور اللـذين يغذيها الغرب، وحـاجته إلى تبسيط الأمور، وترسيم حدود الحضارات.

ومع ذلك فإن الاتجار بالتقاليد ليس برهاناً على أن هذه الحضارت الواقعة خارج الغرب بـاقية كما هي لم تُمس، أو أن عـدم انهزامهـا دليل على حيويتهـا، أو أنها تُمثل تهديـداً تقليديـاً بالسلاح. وحتـى على الرغم من ذلك، فإن هجوماً ضـارياً وبعيد المدى ضد الهيمنـة الغربية مثل الثورة الثيـوقراطيـة في إيران، قد يفشل في فصل هـذا المجتمع عن حضارة الغـرب. لقد وُلـدت ثـورة ذلك البلـد القـاسية من إدراك «الإمـام المسلح» أن شعبـه يتم إغـواؤه بـالطـرق الأميركية. وفُتحت الأبواب على مصاريعها في السبعينات، وجاءت الجدران العالية التي بناها آيـة الله الخميني حـول حكمـه رد فعل إزاء هـذه الغوايـة الثقـافية. إن إيـران التي غـرقت في المستنقع «تم إنقاذها» على أيدي رجال يدّعون الاستقامة والأصالة مثل رايتهم. إن التطرف في ناحية يؤدي إلى التطرف في الناحية المقابلة.

وقد وصف مهدي بازركان، وهو من دعاة التحديث المعتدلين، وكان أول رئيس وزراء في عهد الإمـام الخميني، ما حـدث بالطـريقة التـالية: «لقـد صلينا من أجل أن تنـزل أمطار الرحمة، فأصابنا الطـوفان». وذهبت أدراج الرياح أحلام القيام بثورة للجـامعة الإسلامية على

غرار الثورة الإيرانية. واختلط الإرهاب والجور باليوتوبيا. واستطاعت السودان أن تقلد «المثل الثوري» الإيراني. لكن ذلك لن يعني إلا المزيد من الإفقار والدمار لبلاد اليأس. ولن يتم أي إصلاح عن طريق المثال الإيراني.

وتستعر معركة أخرى في الجزائر، وهي مجتمع من مجتمعات البحر المتوسط، قريب من أوروبا ـــ بلد منتج للنبيذ لهذه السوق ـ وفي مصر بين القوى العلمانية القائمة والبديل الإسلامي، لكن ينبغي ألا نتعجل نشر نعي هاتين الدولتين. ففي الجزائر فشلت مجموعة مصطلحات جبهة التحرير الوطنية ورموزها، وأثارت تمرد الشباب والفئات الدنيا والمُستبعدين. ورفع التمرد راية الإسلام. وإذ وقع المهنيون والنساء ودعاة التحديث من الطبقة الوسطى بين شقي رحى نظام يحتقرونه وحكم الفضيلة الذي يخشون، فقد ألقوا بتأييدهم إلى جانب قوى «النظام»، وأشادوا بانقضاض الجيش على الإسلاميين، وسمحوا بوقف العملية الديموقراطية التي كان من المؤكد أنها ستصل بالاسلاميين إلى السلطة، وقبلوا «الحريات» المحمية بالقمع. فالشر الذي تعرفه خير من الذي لا تعرفه.

وتتكرر الموضوعات المثارة في الجزائر في حالة مصر، على الرغم من أن معضلة مصر مع المعارضة الإسلامية ليست بمثل حدتها في الجزائر. ويواصل الإسلاميون تعقب الدولة، لكنهم لا يستطيعون إطاحتها. وليس هناك احتمال لانهيار الدولة المصرية ـ المفعمة حالياً بحالة من الرضاء عن الذات والفساد بما يجعلها تحاول التحلّي بالصبر والود المشهورين عن المصريين. ثم إن مصر بلد قديم يتسم بالتشكك. فهي تعرف الكثير بما لا يجعلها تعهد بمصيرها لفارضي المعتقدات الدينية الراديكالية، إذ لا تمثل هذه المعتقدات البنى العميقة والمأمونة للنظام الذي أقامته الطبقة الوسطى الوطنية.

كما أن تركيا لن تضل الطريق وتعطي ظهرها لأوروبا وتهرع وراء إغواء إمبراطوري في الميادين التي تم تدميرها وحرقها في آسيا الوسطى. إن هانتنغتون يبخس قدر الحداثة والعلمانية في ذلك البلد عندما كتب يقول إن الأتراك ـ الذين رفضوا مكة ورفضتهم بروكسل ـ من المرجح أن يتجهوا إلى طشقند بحثاً عن دور للجامعة التركية. وما من رحلة إلى مثل ذلك الماضي الإمبراطوري. فقد قطع أتاتورك تلك الرابطة بعنف بالغ، ودفع بلاده في إتجاه الغرب، وتبنّى حضارة أوروبا، وفعل ذلك من دون إحساس بوخز الضمير الناجم عن مراجعة التفكير. إن اهتمام الأتراك مُركَّز على فرانكفورت وبون ـ وواشنطن ـــ وليس على باكو وطشقند. وورثة أتاتورك أدهى من أن يسعوا وراء مجد إمبراطوري، وأن يجمعوا من حولهم الدوائر المبعثرة

للشعوب التركية. فبعد أن ضاعت ممتلكات الأتراك الأوروبية تشبثوا بثراسيا (الجزء الأوروبي من تركيا) وبكل ما تمثله هذه الرابطة بأوروبا.

إن هانتنغتون يرى أن الدول ستحارب من أجل الروابط والولاءات الحضارية، في حين أنها تتدافع بالمناكب من أجل حصصها في السوق، وتتعلم كيف تتنافس في اقتصاد عالمي لا يعرف الرحمة، وكيف توفّر الوظائف وتتخلص من الفقر. ومن جانبهم، فإن «زعماء الإدارة ودعاتها» ومن يؤمنون بأن المصالح بددت العواطف في عالم اليوم، يعرفون جيداً أن الناس يريدون سوني SONY وليس سويل Soil [٢] (التربة أو الأرض بالانكليزية). وهناك قدر كبير من الحقيقة في ما يقولون، فقد مل الناس من الطوباوية، وأصبحوا أكثر نفوراً من الحملات التي تستند إلى المبادىء أو المعتقدات. ومن الصعب التخيل أن روسيا التي خربها التضخم ستتبنّى القضية السامية لإقامة «بيزنطية الثانية» حاملة راية المشعل الأرثوذكسي السلافي.

وأين هو العالم الكونفوشيوسي الذي يتحدث عنه هانتنغتون؟ ففي بلدان حافة المحيط الهادىء المشغولة والمزدهرة، تحول قدر كبير من الأيديولوجية والسياسة إلى اهتمامات مالية على نحو جعل من دول شرق آسيا ورشاً حقيقية. لقد ماتت حضارة الكاثاي، وأصبح الأرخبيل أصماً عن دعوة الراديكاليين الدينيين في طهران، وهو يحاول اللحاق بماليزيا وسنغافورة. إن ريحاً مختلفة تهب في بلدان المحيط الهادىء. فالقيادة والسيطرة هي في مجال الإقتصاد وليس السياسة. وإن العالم لأقل تطهّراً مما كان يريده لي كوان يو، حيكم سنغافورة. والحقد قد يبقى متربصاً بكل الازدهار الذي جاء عقد الثمانينات به إلى المحيط الهادىء. لكن بلدان حافة هذا المحيط التي لا ريب في أن مظّلة الأمن الأميركية تحميها ـ ليست مستعدة للقيام بعملية توزيع كبيرة للمكاسب على الأمم. وعندما تثور المتاعب في ذلك العالم، فإنها ستتفجر داخل حدودها، وليس عبر الخطوط الحضارية.

إن الأشياء والطرق التي نقلها الغرب إلى «الباقي» ـ تلك الجمل الكاملة بالانكليزية الجيدة التي سمعها مارلو منذ قرن مضى ـ أصبحت هي أشياء العالم كله وطرقه. وباتت الفكرة العلمانية ونظام الدولة وتوازن السلطات وثقافة «البوب» التي تقفز فوق الأسوار والحواجز الجمركية، والدول كأداة للرفاهية، جزءاً من النسيج الداخلي في أكثر الأماكن نأياً. لقد أثرنا العواصف ذاتها التي تحملنا الآن.

---

(٢) Kenichi Ohmae, "Global Consumers Want Sony, Not Soil," *New Perspectives Quarterly*, Fall 1991.

ضعف التقاليد

إن الأمم تغش: فهي تلعب بـالهويات والمصـالح وطرقهـا خسيسة. يثبت هـذا تجارة السلاح وتهريبه من كوريا الشمالية والصين إلى ليبيا وإيـران وسوريا ـ فهذه الدول ستتماشى مع أي حضارة، مهما كـانت غريبة، ما دام الثمن منـاسباً والسلع جاهزة. وهـذا العمل الروتيني النابع من الأنانية يحوله هانتنغتون إلى «رابطة إسلاميـة ـ كونفوشيوسية» مشؤومة. بيد أن هناك تفسيرات أفضل: تجارة المارقين والقرصنة السافرة و«الاقتصاد السري» الـذي يزيل الركود الذي يخلفه موردو السلاح الكبار (الولايات المتحدة وروسيا وبريطانيا وفرنسا).

والطـريقـة التي يـرى بها هانتنغتـون الأمـور تتنـاقض مع وصف بـروديل للتجـارة بين المسيحية والإسلام عبر البحر المتوسط في القرن السادس عشر ـ وكان هذا في عصر سادة الدين بعد سقـوط القسطنطينية في أيدي الأتـراك وغرناطة في أيـدي الإسبان: «كان النـاس يمضون جيئة وذهاباً، غير مُبالين بالحدود والدول والعقائد. كانوا أكثر وعياً بضرورات الشحن بالسفن والتجارة ومخاطر الحرب والقرصنة، وفرص التواطؤ أو الخيانة التي تتيحها الظروف»[٣].

إن تلك الأنواع مـن «التواطؤ» والغمـوض مفتقدة في تحليل هـانتنغتون. فـالحضارات تُحشر في الزوايا والشقـوق ـ ونقاط التفتيش ـ في البلقـان. وهو يمضي إلى حيث لا يغـامر إلا الشجعـان، إلى ذلك الحزام من السكان المختلطين الـذي يمتد من الأدريـاتيك إلى البلطيق. وهناك يصنع عـددٌ لا نهاية له من القوميـات أوطاناً له، وكلهم لحقهم الضيم، ولـديهم جميعاً ذكريـات عن مـاض اسطوري ومستعدون بـالمثل للاستماع إلى المضللين الـذين يـدعون أنهم سيقوِّمون الخريطـة الملّتوية. وهو يجد في أدغال هذه الحركـات الجامعة الخط الذي رسم «الحد الشرقي للمسيحيـة الغربيـة عـام ١٥٠٠». إن التـدافع بالمنـاكب على السـاحـة بين القوميـة الكرواتية ونظيرتها الصربية «ومشروعهما المشترك» لتقطيع أوصال البوسنة، تحول عنده إلى حرب بين ورثة روما وبيزنطية والإسلام.

ولكن لماذا ينبغي لنـا أن نأخذ بهذا النـوع من الحتمية؟ «إن الغـريب الذي يسـافر على الطريق السريع بين زغرب وبلغراد لا يدهشـه الخط الفاصل التاريخي والحاسم الذي يقع عبر السهل السلافي الخصيب، بل إن ما يراه هو نقيض ذلك. فالصرب والكروات يتحدثون اللغة نفسها، ما عدا بضع مئات من الكلمات، ويتقاسمـون أسلوب الحياة القروي نفسه منذ قرون

---

(٣) Ferdinand Braudel, *The Mediterranean and The Mediterranean World in The Age of Philip* II, Vol. II (New York: Harper and Rou, 1976), p. 759.

طويلة»[٤]. إن العبقرية القاسية لسلوبودان ميلوسيفيتش وفرانجو تودجمان، وهما الرجلان اللذان ظهرا في الصورة المألوفة لمن يمتطون جيادهم في بلد بائس ـ تمثلت في تقديم عطاءاتهم للحصول على السلطة في إطار مشروعات حضارية كبرى ـ أسوار التنوير للدفاع عنها ضد الإسلام، أو، في حالة تودجمان، ضد ورثة العقيدة الأرثوذوكسية السلافية. وكان لا بد من تضخيم الخلافات. فبمجرد اختفاء تيتو من المسرح، وكان بدوره مغتنماً للفرص، بات محكوماً على عملية الموازنة بين القوميات بالانهيار. وكان للصرب قدر من الهيمنة في النظام القديم. ولكن في العالم الذي لاح في الأفق ـ الخصخصة والإصلاح الإقتصادي ـ كان الصرب أقل ثقة. وكان مواطنو سارايفو والكروات والسلوفينيون في وضع أفضل من الصرب الريفيين. وهكذا، أخذ الصرب يتطلعون إلى نظام الأشياء الجديد باستسلام يائس.

لقد جاء بعض المتطوعين المسلمين إلى البوسنة، تحركهم العقيدة والحماس الديني. ويرى هانتنغتون في تلك القلة من المتخلفين عن الركب، القوة الكاسحة لـ «احتشاد حضاري»، برهاناً على غلبة ما يسميه «ظاهرة البلدان الأقرباء». وذلك تضليل. فليس هناك فرسان مسلمون يمتطون خيلهم ويهبون للإنقاذ. ولربما تصايح الإيرانيون في شأن الجهاد، لكن الأوضاع استمرت على ما هي. ويتعيَّن على الولايات المتحدة أن تقوم بعملية فرض النظام والرحمة إذا أردنا كبح جماح اليوتوبيا الصربية القاسية.

ولن يستدعي الأمر قدرة على التنبؤ لمعرفة أين سينتهي القتال في البلقان، ذلك أن التخلي عن البوسنة مسألة تتعلق بالطرق التي يتبعها العالم. فلا أحد يريد أن يموت في سربرنيتشيا. وقد أشاح الأوروبيون بأبصارهم عن هذا الموضوع مثلما هو دأبهم. وتردد الأميركيون للحظه عندما تعارضت الدعوة إلى البقاء بعيداً عن البلقان مع مشاهد الرعب. وعندئذ غلبت الفطنة والتدبُّر. وربما كان ميلوسيفيتش وتودجمان في حاجة إلى أساطير حضارية، لكن ليس من حاجة إلى تغطية مشروعاتهما للغزو بهذا النوع من المعاني.

وفي سعيه للعثور على تلك الحرب التي لا تهدأ عبر «الحدود الدامية» للإسلام، يتبنى هانتنغتون تفسير صدام حسين لحرب الخليج. فقد كانت هذه الحرب بالنسبة إلى صدام وهانتنغتون، معركة حضارية. لكن الحكم الذي أسفرت عنه حرب الخليج كان مختلفاً كلية لأنه لو كانت هناك حملة تكشف مصالح الدول والمدى الذي ستذهب إليه لاستعادة توازن محتمل للقوى، فإنها كانت هذه الحملة. ذلك أن مُستبداً محلياً قد اقترب من ثروة الخليج

---

(٤) Michael Ignatieff, "The Balkan Tragedy", *New York Review Of Books*, May 13, 1993.

الفارسي، وجاءت قوة كبرى من بعيد لإنقاذها. وضمَّ الحشد الذي جمعه الأميركيون، السعوديين والأتراك والمصريين والسوريين والفرنسيين والبريطانيين وغيرهم من الفرسان.

والواقع أنه عندما تحطم حلم صدام حسين في الهيمنة، فإن ذلك العلماني المتحمِّس الذي حارب «العلماء»، لجأ إلى لغة آية الله الخميني عن النار والكبريت، واستعار رموز الحرب وصيحاتها التي أطلقها خصومه الإيرانيون القدامي. لكن قلة، إن كان هناك أحد فعلاً، قد خُدعت بهذا التحوّل المفاجىء إلى الإيمان. فهم يعرفون ذلك السلاب النهاب على حقيقته: فلديه وزير خارجية مسيحي (طارق عزيز)، وقد شن الحرب على الثورة الإيرانية نحو عقد من الزمان، وتباهى بعلمانية نظامه. وأخلى أهلُ الحذر في النظام الإجتماعي والسياسي والعلماء الطريق وأتاحوا لدولهم المجال الذي تحتاج إليه لوقف السلاب النّهاب عند الحدود الكويتية ـ السعودية [٥]. كانوا يعرفون أن تلك لحظة تنحني فيها الطهارة والنقاء أمام الضرورة. فبعد عشرة أيام من اجتياح صدام حسين للكويت، أصدر المجلس الديني الأكثر سلطاناً في السعودية، وهو مجلس كبار العلماء، فتوى بتأييد وجود القوات العربية والإسلامية «والقوات الصديقة الأخرى». وقضى العلماء بأن كل وسائل الدفاع مشروعة ليضمن الشعب «سلامة دينه وثروته وشرفه ودمه وحماية ما يتمتع به من أمان واستقرار». وفي الإتجاه نفسه في مصر، دان الشيخ جاد الحق، شيخ الأزهر، صدام حسين باعتباره طاغية، وشجب ادعاءاته الإسلامية باعتبارها ستاراً للطغيان.

كما لا يمكن اعتبار الخطاب الحماسي للزعيم الديني الإيراني آية الله علي خامنئي، خلال حرب الخليج، برهاناً على ميل إيران تجاه تلك الحملة. إن حكام إيران، وهم رجال دُهاة، لم يشتركوا في تلك الحرب وتفرجوا عليها. وانتظروا الفرصة ليبزغوا باعتبارهم المستفيد الرئيسي من هزيمة العراق. فقد بشرت الحملة التي قادها الأميركيون ضد العراق، بأن يميل الميزان الإقليمي لصالحهم. ولم يرق الدمع في إيران على ما أصاب نظام صدام حسين.

هناك موهبة مشتركة تتوافر للرجال والنساء الذين يعيشون في الأماكن الصعبة، تتمثل في معرفتهم كيفية التمييز بين ما يسمعونه وما هو قائم فعلاً: وهكذا لم تبق أي أوهام في ربوع العالم العربي ـ الإسلامي في شأن صدام، أو في شأن الحملة لإطاحته لهذا السبب. لقد اتضحت حقيقة حرب الخليج: تطلّع إلى السيطرة صَّدته حملة إمبراطورية قضت عليه. وأغلقت دائرة في الخليج: كان النظام في منطقة «شرق السويس» سابقاً من اختصاص

---

(٥) ينقل هانتنغتون عن صفر الحوالي، وهو راديكالي ديني في جامعة أم القرى في مكة، إن الحملة على العراق كانت حملة غربية أخرى ضد الإسلام. لكن ذلك لا يصلح دليلاً. لقد كان صفر الحوالي شخصاً مهووساً. وهو في كل الشؤون العملية، وحيد في رأيه بين طبقة العلماء وعلماء الدين في السعودية.

البريطانيين، فبات السلام الأميركي هـو الذي يوفّره حالياً. إن القوة الجديـدة للخفارة القائمة في الخليج تنتمي إلى حضارة الغـرب، مثلها مثل القوة السـابقة، لكن الـوجود الأميركي حظي بموافقة حماسية من البلاد العربية في الخليج الفارسي. لقد جاء الغريب لكبح جماح القريب.

إن العالم الإسـلامي منقسم على نفسـه بصورة أسـاسية، ثم بصـورة فرعيـة. وخطوط المعركـة في القوقاز هي أيضـاً لا تمتد عبر خطوط التقسيـم الحضاري. فالخطـوط تتبع مصالح الدول. وفي حين يرى هانتنغتـون صراعاً حضارياً بين أرمينيا وأذربيجان، فإن الـدولة الإيرانية ذرت الحماس والولاء الـديني أدراج الريـاح. فالـواقع أن الإيرانيين انحـازوا في تلك الحرب إلى جانب أرمينيا المسيحية.

مقتضيات الدولة

لا ريب في أننـا أسلمنـا أنفسنـا لعـالم جـديـد. لكنـه ليس عـالماً تسـوده مقتضيـات الحضارات. إن الحضارات والولاءات الحضارية بـاقية، وهناك قدر مدهش من الدوام فيهما. لكن لنتوخ الوضوح: إن الحضارات لا تسيطر على الدول، بل الدول تسيطر على الحضارات. وإن الدول لتشيح بنظرها عن روابط الدم عندما يقتضي الأمر ذلك، وهي ترى الأخوة والعقيدة والقرابة عندما يكون من مصلحتها أن تفعل ذلك.

إننا ما زلنا في عالم يتعين فيه على المرء أن يساعـد نفسه بنفسه. إن عزلة الدول مستمرة. وقد جعل اختـلال النظام في العالم المعـاصر تلك العزلـة أكثر بروزاً. ولم يتم بعـد التوصل إلى طريقـة للتوفيق بين فرنسـا وهيمنة السلام الأميركي، أو لإقناعهـا (فرنسا) بأن تعهـد بأمنها أو تتنازل عن حكمها لقوة غربية غالبة. ولم يتوصل الأذريون الى طريقة يحشدون بها بلاد الإسلام للقتال من أجل إقليم قره باخ. ولم تسقط السماء في كـوالالمبور أو في تونس من جراء النكسات التي أصابت أذربيجان في القتال مع أرمينيا.

إن الدرس الذي خلفه لنا ثوسيديدس في حواره المشهور بين الميلانيين وأهل أثينا ما زال باقيـاً. فكما نذكر، كـان الميلانيـون أهل مستعمرة تابعـة للأسيدامـونيين. وعندمـا حاصرهم الأثينيون صمـدوا وكانـوا على ثقة بأن الأسيدامـونيين «سيهبون إلى نجـدة عشيرتهم، حتى ولو بدافع الخجل فحسب». ولم تهتـز ثقة الميلانيين أبـداً في حلفائهم «في الحضارة»: «إن دمـاءنا المشتركة تضمن إخلاصنا»[٦]. لكننا نعرف ما صار إليـه حال الميلانيين، إذا لم يهب حلفاؤهم إلى نجدتهم، ونُهبت جزيرتهم، وتحطم عالمهم هباءً منثوراً.

---

(٦) Thucudides, *The Peloponnesian War* (New York: The Modern Americain Library, 1951), pp. 334 - 335.

أخطـار التفسـخ

كيشوري محبوباني



ما الذي يستطيع «الباقي» أن يعلمه للغرب

في العواصم الغربية الأساسية إحساسٌ عميق بالقلق تجاه المستقبل. فالثقة بأن الغرب سيظل قوة مسيطرة في القرن الحادي والعشرين، مثلما حدث في القرون الأربعة أو الخمسة الماضية، تُخلي مكانها لإحساس بنُذُر الشرّ من أن قوى مثل الإسلام الأصولي المنبعث، ونهوض شرق آسيا وانهيار روسيا وأوروبا الشرقية، قد تشكل تهديداً حقيقياً للغرب، والحال أن عقلية الحصار تتعاظم. وفي داخل هذه الجدران المضطربة، فإن مقال صموئيل ب. هانتنغتون «صدام الحضارات» قمين بأن يكون له رجع الصدى. ومن ثم سيبدو مفاجأة كبيرة لكثير من الغربيين أن يعرفوا أن باقي العالم يخشى الغرب حتى أكثر مما يخشى الغرب باقي العالم، وأنه يخشى بصفة خاصة التهديد الذي يشكّله غربٌ جريح.

وهانتنغتون على صواب: فالقوة تتنقل بين الحضارات. ولكن عندما تتحرك الطبقات التكتُونية للتاريخ العالمي بطريقة درامية، مثلما تفعل الآن، فإن التصورات الناجمة عن هذه التغييرات تعتمد على المكان الذي يقف المرء فيه. والغرض الرئيسي لهذا المقال هو توعية الرأي العام الغربي بتصورات باقي العالم.

إن انسحاب الغرب لايلقى ترحيباً عالمياً. فلا يوجد بعد بديل من القيادة الغربية، ولاسيما القيادة الأميركية. والنسحب المفاجىء للمساندة الأميركية من حلفاء الشرق الأوسط أو المحيط الهادىء، على الرغم من أنه غير محتمل، قد يُطلق العنان لتغييرات ضخمة لايمكن أحداً أن يستسيغها. وقد يكون الانسحاب الغربي مُدمراً قدر الدمار الناشىء عن السيطرة الغربية.

لقد كـان العصر الأخير للسيطرة الغربيـة، وخصوصـاً تحت قيادة الولايـات المتحدة، عصراً حميداً بصـورة ملحوظة، بأي مقياس تـاريخي قيس. وإن المرء ليفزع من مجرد التفكير في مآل العالم لو كانت ألمانيا النازية أو روسيـا الستالينية قد انتصرت في ما سُمي «حروب الحضارة الغربية» في القرن العشرين. والمفارقة هي أن الطابع الحميد للسيطرة الغربية ربما يكون مصدر كثير من المشكـلات. واليوم لايستطيع معظم صـانعي السيـاسة في الغـرب، وهـم أبناء هـذا العصر، أن يتصـوَّروا إمكان أن تـؤدي كلماتهم وأفعـالهم إلى الشر وليس الخير. وتفاقم وسـائل الاعلام الغربيـة هذا النوع من العمى الحقيقي. ذلك أن معظم الصحافيين الغـربيين يسافرون إلى الخارج حاملين معهم افتراضـات غربيـة، ولايستطيعون أن يفهمـوا كيف أن الغرب يمكن اعتباره أي شيء ما عـدا أنه خيِّر. وقناة السي إن إن (CNN) ليست حلاً. فالصور المرئية نفسها التي يتمُّ نقلها في اللحظة عينها إلى غرف المعيشة عبر العالم كله، قد تخلق تصورات متضاربة. فغرف المعيشة الغربية ستصفق عندما يصيب بغداد صاروخ تطلقه مدمرة، فيما يرى معظم من في غرف المعيشة الواقعة في الخارج أن الغرب يُنزل عقـوبة سريعة بالعراقيين أو الصوماليين غير البيض، لكنه لا يفعل ذلك بالصرب البيض، وتلك إشارة خطرة بكل المعايير.

الحشود الآسيوية

يناقش هانتنغتون التحدي الذي تطرحه الحضارتان الإسلامية والكونفوشيوسية. فمنذ تفجير مركـز التجارة العـالمي، بدأ الأميركيون يتمثلـون «البارانـويا» الأوروبيـة في شأن الإسلام الذي يتصورونه قـوة للظلام تحوم حول الحضارة المسيحية الفاضلـة. ومن السخرية أن الغرب يتزايد خوفه من الإسلام، في حين يتم تذكير المسلمين يـومياً بأوجه ضعفهم. يقول هانتنغتون «إن للإسـلام حدوداً داميـة». ولكن في كل المنازعـات بين المسلمين والقوى المواليـة للغرب، يخسر المسلمون، ويخسرون كثيراً، سـواء كانـوا أذريين أو فلسطينيين أو عراقيين أو إيـرانيين أو من مسلمي البوسنة. وليس بمثل هذا القدر من التفكُّك يوشك العالم الإسلامي أن يندمج في قوة واحدة.

والغريب أنه في ظل كل هـذه «البارنوايا»، يبدو أن الغرب يتبع بصـورة متعمدة تقريباً مساراً يهدف إلى استثارة العـالم الإسلامي. فالغرب يعترض على عكس مسار الديمـوقراطية في ميـانمار والبيرو ونيجيريـا، لكنه لايفعل ذلك في شـأن الجزائر. وهذا الكيل بمكيـالين يـؤذي المشاعـر. لقد تسببت البوسنـة في خسائر لايمكن حسـابها. فالسلبية المثيرة للـدول الأوروبية

القـويـة تجاه عمليات الإبـادة التي تُقترف على عتبـة دارهـا مـزقت الحجاب الـرقيق للسلطـة الأخـلاقية التي ادَّعـاها الغـرب لنفسـه كميراث لعصره الحميد الحديث . ويعتقـد كثيرون أن الغرب ما كان ليبقى سلبياً بالمثل لـو انهمرت قذائف مدفعية المسلمين على السكان المسيحيين في ساراييفو أو سربرنيتشا .

كذلك كان سلوك الغرب إزاء الصين محيراً . ففي السبعينات طور الغرب علاقة غرامية مع الصين التي كان يحكمها نظام ارتكب فظائع هـائلة خلال القفزة الكبرى إلى الأمام والثورة الثقافية . ولكن عندما أعقب كارثة حكم ماوتسي تونغ عهد تونغ زياو بنغ الحميد بدرجة أكبر كثيراً ، عاقب الغرب الصين على ما يُعد ، وفقاً لمقاييسها التاريخية ، عملية قمع ضئيلة : حادثة تيانانمين .

ولسـوء الحظ ، فإن تيـانـانمين أصبحت أسطـورة غـربيـة معـاصرة خلقهـا الارسـال التلفـزيـوني الحي من بعيـد لعمليـة القمع . لقـد أخطأت بكين كثيراً في استخـدامهـا المفـرط للأسلحة النارية ، لكنها لم تخطىء في تشددها لفرض النظام . إذ كان الفشل في كبح جماح تمرد الطلبة يمكن أن يودي إلى التحلل السياسي والفـوضى ، وذلك كابوس صيني أبدي . ويعترف صـانعـو السياسـة الغـربيـون بهذا في مجالسهم الخاصـة ، كما أنهم واعـون عدم أمـانـة بعض الصحافيين الغـربيين الذين يتنـاولون العشـاء مع الطلبة المنشقين ، بل قـد يحرضونهم قبل أن يكتبـوا تقاريـرهم عن «إضراب الجوع» المزعوم . ومـا من صحيفة غـربية كبيرة فضحت عـدم الأمانة هذا أو تحلت بالشجاعة السياسيـة لتقول إن الصين لم يكن أمامها عملياً أي خيار آخر في تيانانمين . وبدلاً من ذلك ، فُرِضت العقـوبات ، الأمر الذي هدد عملية تحديث الصين . إن الآسيويين يـرون أن الرأي العام الغـربي ـ الذي تقدسـه الديموقـراطية الغربيـة ـ يمكن أن يستخلص نتائج غير رشيـدة . وينتابهم الخوف وهـم يرون إلى السياسة الغـربية في شأن الصين وهي تتقلب مهددة التقدم السلس في شرق آسيا .

وقلة في الغرب يعون أنـه مسؤول عن إثآرة الاضطرابات بين مايـزيد على مليارى نسمة يعيشون في الحضارتين الإسلامية والصينية . وبدلاً من ذلك يعمد هانتنغتون ، باستدعائه صور الحشدين الآسيويين اللذين يخشاهما العقل الغربي أشد الخشية ـ قوتان غزتا أوروبا ، المسلمون والمغول ـ إلى وضع الـرابطة الكونفوشيوسيـة ـ الإسلامية في موضع العـداء للغرب . والواقع أن مبيعات الأسلحة الأميركيـة للسعودية لا تشي برابطـة مسيحية ـ إسلاميـة طبيعية ، كما لاتفعل ذلك مبيعات الأسلحة الصينيـة لإيران . فكلاهما عمل انتهازي لا يقـوم على تقمص عاطفي

طبيعي أو على أحلاف حضارية. والمأساة الحقيقية في الإشارة إلى رابطة كونفوشيوسية ـ إسلامية تكمن في أن ذلك يخفي الطابع المختلف بصورة أساسية للتحدي الذي تطرحه هذه القوى. إن العالم الإسلامي سيواجه صعوبة كبيرة في عملية التحديث. وإلى أن يحدث ذلك فإن اضطراباته ستفيض وتصل الغرب. وإن شرق آسيا، بما فيه الصين، مؤهل لتحقيق التكافؤ مع الغرب. والحقيقة البسيطة الواضحة هي أن شرق آسيا وجنوب شرق آسيا يشعران بأنهما أكثر راحة مع الغرب.

ويكشف هذا الفشل في وضع استراتيجية صالحة وقادرة على البقاء للتعامل مع الإسلام أو الصين عن عيب مميت في الغرب: العجز عن التكيف مع التحوُّلات في الأوزان النسبية للحضارات التي يوثقها هانتنغتون جيداً. عبارتان أساسيتان في مقال هانتنغتون يوضحان، إذا ما وضعتا جنباً إلى جنب، طبيعة المشكلة: الأولى« في سياسات الحضارات، لم تعد شعوب الحضارات غير الغربية وحكوماتها موضوعات للتاريخ يمارس فعله عليها باعتبارها أهدافاً للاستعمار الغربي، بل انضمت الى الغرب كمحرك ومشكِّل للتاريخ»؛ والثانية «الواقع أن الغرب يستخدم المؤسسات الدولية والقوة العسكرية والموارد الاقتصادية لإدارة العالم بطرق تُبقي على الهيمنة الغربية وتحمي المصالح الغربية وتروِّج القيم السياسية والاقتصادية الغربية». وتلك التوليفة وصفة لكارثة.

إن الحساب البسيط يوضح حماقة الغرب. إن الغرب يضم ٨٠٠ مليون نسمة، ويشكل الباقي نحو ٤,٧ مليار نسمة. وعلى الساحة الوطنية، لن يقبل أي مجتمع غربي وضعاً يُشرع فيه ١٥ في المئة من السكان للـ ٨٥ في المئة الباقين. ولكن هذا هو ما يحاول الغرب أن يفعله على النطاق العالمي.

والمأساة أن الغرب يدير ظهره للعالم الثالث تماماً في الوقت الذي يستطيع هذا العالم أخيراً أن يساعد الغرب على الخروج من ركوده الاقتصادي. لقد زاد إنتاج العالم النامي بالدولار عام ١٩٩٢ بأكثر مما زاد في أميركا الشمالية والمجموعة الأوروبية واليابان معاً. وذهب ثُلثا الزيادة في صادرات الولايات المتحدة إلى العالم النامي. وبدلاً من أن يُشجِّع الغرب هذا الزخم العالمي باستكمال جولة الأورغواي، يفعل النقيض. فهو يحاول خلق الحواجز وليس إلغاءها. وقد حاول رئيس الوزراء الفرنسي، إدوار بالادور، تبرير هذا العمل بأن قال صراحة في واشنطن

إن «المشكلة الآن هي كيف نُنظم أنفسنا لحماية أنفسنا من البلدان التي تُمكِّنها قِيَمُها من النيل منا» .

تخريب الغرب لنفسه

لقد تقاعس هانتنغتون عن طرح سؤال واضح : إذا كانت الحضارات الأخرى تحيط بنا منذ قرون كثيرة ، فلماذا تشكِّل تحدياً الآن فحسب؟ إن المحاولة المخلصة للإجابة عن هذا السؤال تكشف عن عيب مميت تَطور أخيراً في العقل الغربي : العجز عن تصور أن الغرب ربما كان قد طوَّر أَوجُهَ ضُعف هيكلي في نُظَم القيم والمؤسسات الأساسية الخاصة به . ويُفسِّر هذا العيب جزئياً الاندفاع الأخير لتبني الافتراض القائل إن التاريخ قد انتهى بانتصار النموذج المثالي الغربي : إن الحرية الفردية والديموقراطية ستضمنان دوماً بقاء الحضارة الغربية في مقدمة الجميع .

إن المغالاة في الثقة بالنفس وحدها هي التي يُمكن أن تفسر السبب في أن مثل هذا العدد الكبير من المجتمعات الغربية يحاول تحدي القوانين الاقتصادية للجاذبية . فانضباط الميزانيات آخذ في الاختفاء ، لأن البرامج الإجتماعية المُكلفة والمشروعات التي تفيد الأنصار والمحاسيب تتضاعف مع إيلاء التكاليف قليلاً من الاعتبار . وتؤدي معدلات الادخار والاستثمار المنخفضة في الغرب إلى انهيار القدرة على المنافسة في مواجهة شرق آسيا . ثم أن أخلاقيات العمل آخذة في التآكل ، في حين يخدع السياسيون العمال ويجعلونهم يعتقدون أنهم يستطيعون الإبقاء على الأجور المرتفعة ، على الرغم من عدم القدرة على المنافسة دولياً . إن أي سياسي يعلن الحقائق الصعبة يسقط في الاقتراع فوراً . ويعترف الأميركيون طوعاً بأن كثيراً من مشكلاتهم الاقتصادية ينبع من «الاختناق في الحركة» الكامن في الديموقراطية الأميركية . وبينما يشعر باقي العالم بالحيرة إزاء هذه الحماقات ، يطوف السياسيون والصحافيون الأميركيون حول العالم يبشرون بفضائل الديموقراطية . ويبدو منظرهم غريباً .

إن عبادة البطل نفسها كُرِّست أيضاً لفكرة الحرية الفردية . وتحقق من هذه الفكرة خيرٌ كثير. فقد انتهت العبودية . وأعقب ذلك حق الانتخاب الشامل العام . لكن الحرية لاتحل المشكلات فحسب ، بل قد تتسبب فيها أيضاً . والولايات المتحدة مرت بتجربة كبيرة ، ومزقت مؤسسة اجتماعية تلو الأخرى من المؤسسات التي كبلت الفرد . وكانت النتائج كارثة . ومنذ عام ١٩٦٠ ، زاد سكان الولايات المتحدة بنسبة ٤١ في المئة في حين ارتفعت جرائم العنف

بنسبة ٥٦٠ في المئـة، وزادت مواليد الأمهات غير المتـزوجات بنسبة ٤١٩ في المئـة، ومعدلات الطلاق بنسبة ٣٠٠ في المئـة، والنسبة المئوية للأطفـال الذين يعيشون في بيوت أحـد الوالدين بمعدل ٣٠٠ في المئـة. ويمثل ذلك تفسخاً اجتماعياً هائلاً. وإن كثيراً من المجتمعـات ليرتعد من احتمال أن يحدث هذا بين ظهرانيه. ولكن بدلاً من السفر إلى الخارج بإحساس من الذل، فإن الأميركيين يبشرون بثقة بفضـائل الحرية الفرديـة المتحررة من الأغلال، ويتجـاهلون، وهـم مبتهجون، النتائج الاجتماعية الملموسة.

لايزال الغـرب مستودع أكبر أصـول الحضارة الانسـانية وإنجـازاتها. وكثير من القِيم الغربية يُفسر التقدم المدهش للجنس البشري: الإيمان بالبحث العلمي، والبحث عن حلول رشيدة، والرغبة في تحدّي الافتراضات. لكن الإيمان بأن مجتمعـاً ما يمارس هذه القِيم قد يؤدي إلى عمى فريد: العجـز عن إدراك أن بعض القِيم التي تجيء مع هذه الحزمة قـد تكون ضارة. إن قِيم الغرب لا تشكّل نسيجـاً لاتنفصم عُراه. فبعضهـا جيد وبعضهـا الآخر سيء. ولكن على المرء أن يقف خارج الغـرب ليرى هذا بوضوح، وليرى كيف أن الغـرب يتسبب في انهياره النسبي بيديه. وهانتنغتون، أيضاً، يعمى عن هذا.

تطعيــم الحضــارة

الحضارات ليست جزراً

ليو بينيان

لا شك في أن نهاية الحرب البـاردة أدخلت السياسـة العالمية في مـرحلة جـديدة، ومع ذلك فإن تأثيرها ليس أحادي الإتجاه. فقد اختفت المواجهة الحادة بين المعسكرين المسلحين، وبهذا المعنى يبدو أن النزاع الإيديولـوجي قد انتهى في الوقت الحاضر على الأقل. لكن التنازع بين المصالح الإقتصـادية والسياسيـة يغدو أكثر شيـوعاً على نحو مطـرد بين الدول الكبرى في العالم، وتزداد حدتـه أكثر فأكثر. ولم تصبح الحضارة ولا الثقافة هـي «المصدر الأساسي للنزاع في هذا العالم الجديد».

إن العالم الجديـد آخذ في التماثل مع العـالم الذي حـدثت فيه في الثـلاثينات تغييرات هائلـة، إلا أن هناك أوجه تماثل متـزايدة. فقد تغيرت الـرأسمالية الغربيـة كثيراً، لكن الكساد العالمي الحالي يشبه في مناخ كثيرة الكساد الكبير. ربما يكون الإتحاد السـوفياتي كما ألمانيا النازية قد كفا عن الوجود، لكن العوامل الإقتصادية والإجتماعية والسياسية التي أدت إلى ظهورهما ما زالت قائمة ـ الارتباك الإقتصادي وكراهية الأجانب والشعبوية.

لقـد انتهت الحرب الباردة، لكن الحروب السـاخنـة تستعر في مـا يـزيد على ٣٠ بلـداً ومنطقة. وبلغـت موجة المهـاجرين مـن البلدان الفقيرة إلى البلدان الغنيـة وتدفق النـاس من المناطق الريفيـة على المدن حجماً غير مسبوق، الأمر الذي يشكل ظاهـرة سماها صندوق الأمم المتحدة للسكـان «الأزمة الراهنة للجنس البشري». ويصعـب القول إن هذه الظاهـرة جاءت نتيجة للنزاع بين حضارات مختلفة.

تجربة الصين الشاردة

لا تتمثل المهمة التي تواجه معظم البلدان في التمييز بين الحضارات وفصل بعضها عن بعض، بل في المزج في ما بينهـا وتحقيق التجانس فيها. ففي البلدان التي كـانت مستعمَرة، لم يتم حل مشكلات الفقـر والجوع بواسطـة حضاراتها الخاصة بها أو بـواسطة تفـاعل حضارتها

الأصلية المحلية مع الحضارة الغربية. لكن لا يزال هذا السعي مستمراً للوصول إلى صيغة ناجحة للرفاه الاقتصادي والحرية السياسية.

ولنتأمل حال الصين. فقد اعتنق الشعب الصيني بحماس الشيوعية سعياً وراء التنمية الاقتصادية والكرامة السياسية. وتم إفلاس الماوية والإشتراكية قبل انهيار الإتحاد السوفياتي السابق باثنتي عشرة سنة. ولم يكن ذلك نتيجة لانتهاء الحرب الباردة، لكن الكارثة نجمت عن الأيديولوجية الماوية. وللمرة الثانية انبعث سبب هذا التحول من الرغبة القوية لدى الشعب في التخلص من الفقر والحصول على الحرية. وبالنسبة إلى الصين، تلك هي المرة الثالثة التي حاول فيها الشعب تطعيم الحضارة التقليدية بالحضارة الغربية في النصف الأول من القرن العشرين، وبالرأسمالية في الثمانينات، ومن أواخر الأربعينات إلى السبعينات بالماركسية اللينينية.

والآن، وعلى الرغم من أن الكونفوشيوسية تعود إلى الصين تدريجاً، فإنه لا يمكن مقارنتها بالتأثير الغالب والمتزايد للثقافة الغربية في الشعب الصيني على مدى العشرين سنة الماضية. فالشعب الصيني يتسم بالطابع العلمي، وقد اهتم دوماً برفاهيته المادية. إضافة إلى أن الأربعين سنة الماضية جعلته حذراً من الفلسفات والآلهة والمثل غير الملموسة. وليس في أي مكان من الصين مجموعة أو زمرة سياسية يمكن تشبيهها بالقوميين المتطرفين في روسيا أو أوروبا.

ولا يمكن أن نتوقع أن تجمع أي وحدة حضارية العالم الكونفوشيوسي معاً. ففي العقدين الماضيين، كان انفصال الصين الأم عن تايوان مرده بالطبع إلى خلافات سياسية وإيديولوجية. وبعد انتهاء الحرب الباردة، فإن الثقافة الكونفوشيوسية، المشتركة بين الصينيين على جانبي مضيق تايون، لن تقضي على الخلافات في النظم السياسية والإيديولوجية والتنمية الاقتصادية.

وتتمثل تجربة دينغ زياو بنغ في محاولة مزج الرأسمالية الغربية بالماركسية ـ اللينينية، بل وبعض جوانب الكونفوشيوسية. وهكذا، ففي حين يعمل النظام الشيوعي الصيني على تحرير الاقتصاد، نراه يعارض النزعة الاستهلاكية ومذهب المتعة في الحضارة الغربية في محاولة لمقاومة تأثيرات الديموقراطية والحرية. وهو يستعير في الوقت نفسه جوانب من الفكر الكونفوشيوسي ـ الخضوع للرؤساء. . . الخ. ـ وهو أمر مفيد في تحقيق استقرار الحكم الشيوعي. كما أنه يحاول استغلال المشاعر الوطنية الصينية بدلاً من الإيديولوجية المفلسة، ويسعى لتأجيل انهيارها الحتمي.

وهناك أمثلة تاريخية وحالية عدة عـن حكام اهتموا كثيراً بالإبقاء على، أو تطوير، نوع من النظام التقليدي بـدلاً من التوفيق بين الصراعات والمصالـح المتغيرة للناس العاديين. ففي منتصف الثلاثينات، شنَّ تشـانغ كاي شيك حملة وطنية تدافع عن الكونفـوشيوسية ـ سميت «حركة الحياة الجديدة» ـ عندمـا راح سكان الصين ضحية للمجاعة والحرب الأهلية والعدوان اليابـاني. واستهدفت الحركة إلهاء النـاس عن مصالحهم الحقيقيـة، وانتهت إلى الفشل التام. ومنذ عقد الثمانينات، بـدأ حكام الصين الجدد حملة مماثلة ـ «الحركـة من أجل حضارة روحية أسمى» ـ تدعـــو إلى حب الوطن والحزب، والتصرف بصـــورة متحضرة إزاء الآخرين. لكن الهدف الحقيقي للحملـة كان إبـدال الإيـديـولوجيـة المفلسـة وإلهاء الرأي العـام عن اهتمامـه بالـديموقـراطية والحريـة، والتشويش على التأثير الثقـافي والمعنوي للغـرب. ومفهوم أن تلك الحملـة قـد فشلت، بل إن تعبير «الحضـارة الـروحيـة» أصبح مثـار سخـريـة واستهـزاء بين الصينيين.

إن ما سيبزغ في الصين هو مزيج من هذه القوى الكثيرة، لكنه لن يكون النوع نفسه من المزيج الذي يريـده هذا النظام. ولن يتم المزج بين الحرية الإقتصـادية واللاحريـة السياسية. فالشيـوعية والرأسماليـة مختلفتان كلية، ولن ينخـدع الناس طويـلاً بإمكان الجمع بينهما. وفي النهاية سيكون هنـاك طريق صيني، لكنه سيكون طريقاً مختلفاً إلى الحريـة، وطريقاً مختلفاً إلى الديموقراطية، ذلك أن الشعب الصيني الذي لا يتحدث بتعبيرات وجمل غربية ولا بفلسفات سياسية غـربية، يعرف ذلك النوع مـن النظام السياسي والإقتصادي الذي يحقـق رفاهيته على خير وجه.

استعارة الأفضل من كل جانب

من المفارقة أن صـامويل ب. هانتنغتون يرى انبعـاثاً للكونفوشيوسيـة في الوقت الذي يقوض التـدهور الـروحي والتفسخ المعنـوي الأساس الثقافي للصين. ذلـك أن سبعة وأربعين عاماً من الحكم الشيـوعي دمرت الدين والتعليم وحكم القانون والمعنويـات. وها هي عملية نزع الطـابع الانساني هـذه الناجمة عن الاستبـداد والفقر المطلق والإلحاد في عصر مـاو، تتبدى اليوم في الشهوة الجامحة للسلطة والنقود والمتع الجسدية لدى كثيرين من الصينيين.

ولا تمثل مـواجهـة هـذا الفراغ المعنـوي والـروحي مشكلـة للصين وحـدهـا، بل لكل الحضارات. فهل يكـون القرن الحادي والعشرون عصراً يمكن أن تندمج فيـه الحضارات، من

خلال التفاعل والتـوافق في الرأي، وبهذا تساعد الناس على كسر الدوائر القـديمة لعملية نزع الطابع الانسـاني؟ إن التخلص من الفقر والعبـودية هما أقل مشكلات الصين شأنـاً. والمهمة الأصعب هي عملية إنقـاذ الناس أنفسهم بأنفسهم، أي تحويل النـاس الخانعين المرتعدين إلى بشر حقيقيين. ولا ريب في أن إثـراء روح الانسـان هو المهمـة الأطـول والأشق؛ وهي مهمـة تتطلب استخدام خير ما في الحضارات جميعاً، وليس التركيز على ما بينها من خلافات.

حتمية التحديث

التقاليد والتغيير

جين كيركباتريك

قرأت عمـل صامويل هـانتنغتون بـاهتمام بالغ وآمـال كبيرة. وكنت مثل معظم علماء السياسة قد تعلمت الكثير من كتـاباته. وها هو يثير مرة أخرى في مقـاله «صدام الحضارات» أسئلة جديدة.

يـؤكـد هـانتنغتـون في مقالـه أن الحضـارات حقيقيـة ومهمـة، ويتنبأ بأن «النـزاع بين الحضارات سيحلُ محلّ أشكال النزاع الإيديولوجية وغيرها باعتباره الشكل العالمي المهيمن من المنازعات. ثم يحاجُّ بأن المؤسسات العاملة من أجل التعاون من المرجّح بدرجة أكبر أن تتطور داخل الحضـارات، وأن المنازعـات ستثـور عـادة بين مجموعـات في حضـارات مختلفة. وقـد أدهشتني هذه المقولات لأنها مثيرة، وإن كانت محلّ شك.

إن تصنيف هـانتنغتون للحضارات المعـاصرة مثير للتساؤل. فهـو يحدد «سبع أو ثماني حضارات أساسية» في العالم المعاصر: الغربية (التي تضم الشكلين الأوروبي والأميركي الشمالي) والكونفوشيوسيـة واليابانية والإسلامية والهنـدوسية والسلافية الأرثوذوكسية والأميركيـة اللاتينية و«ربما الإفريقية».

وتلك قائمة غريبة.

فإذا كانت الحضارة تُحّدد بعناصر موضوعية مشتركة مثل اللغة والعادات والمؤسسات، وتُحّدد بصورة ذاتيـة بالتطابق والتماثل، وإذا كانت الجماعيـة في أوسع صورها هي التي يتـوحّد معها الأشخـاص بصورة كثيفـة، فلماذا التمييز بين «الحضـارة الأميركية الـلاتينية» والحضـارة «الغربيـة»؟ فأميركا الـلاتينية، مثلهـا مثل أميركا الشماليـة، قارة استـوطنها الأوروبيـون الذين جاءوا معهم بـاللغات الأوروبيـة وبالصيغة الأوروبيـة للديانـة اليهوديـة ـ المسيحية وللقـانون والآداب ودور الجنسين. والمُكّـونُ الهندي في الثقـافـة الأميركية الـلاتينيـة أكثر أهميـة في بعض البلدان (المكسيك وغواتيمالا والإكوادور والبيرو) منـه في أميركا الشمالية. لكن التأثير الإفريقي

أكثر أهمية في الـولايات المتحدة منه في البلدان الأميركيـة اللاتينية كافة عـدا قلة منها (البرازيل وبليز وكوبا). إن أميركا الشمالية والجنوبية أوروبيتان «غربيتان» مع مزيج من عناصر أخرى.

وما الذي يمكن أن تكون عليه روسيـا إن لم تكن «غربية»؟ إن التسمية التي سادت في الحرب البـاردة في شأن «الشرق/ الغـرب»، كـان لها معنى في سيـاق الحرب البـاردة، لكن في السياق العـام والشامل، فإن الشعب السـلافي/ الأرثوذوكسي هو شعب أوروبي يتبنّى الثقـافة الغربيـة. وما اللاهوت الأرثـوذوكسي والطقوس الدينيـة الأرثوذوكسية واللينينية وتـولستوى إلاّ مجرد تعبيرات عن الثقافة الغربية.

وليس من الـواضح أيضاً أن الخلافـات بين الحضارات أدت على مـر القرون إلى أطـول المنازعات وأكثـرها عنفاً. ففي القرن العشرين على الأقل، وقعت أشد المنـازعات عنفاً داخل الحضارات: حملات التطهير التي قـام بها ستالين، وعمليات الإبـادة التي قام بها بـول بوت، والهولوكست النازي، والحرب العـالمية الثانية. ويمكن القول إن الحرب بين الـولايات المتحدة واليـابان تضمّنت صـداماً بين الحضـارات، لكن تلك الخلافات كـان لها دور ضئيل في تلك الحرب. وقد تضمّن فريقا الحلفاء والمحور أعضاء آسيويين وأوروبيين على حد سواء.

ولم يكن تحرير الكويت صداماً بين الحضارات بأكثـر مما كانت الحرب العالمية الثانية أو الحرب الكوريـة أو الفيتناميـة. فمثل كوريا وفيتنـام، أثارت حـرب الخليج الفارسي حكـومةٌ إسـلاميـة غير غربيـة ضـد أخـرى. وبمجـرد وقـوع العدوان، أصبحـت الولايـات المتحـدة والحكومـات الغربيـة الأخرى متورطـة لأسباب جيـوسياسية تسمـو على الخلافات الثقـافية. ولاشك في أن صدام حسين كان يودُّ لو أن العالم اعتقد النقيض.

وبعدمـا حشدت الـولايات المتحدة تحالفـاً دولياً ضـد العراق، اعتمـد صدام حسين الـذي كان حتى ذلك الحين قـائداً لنظام علماني ثـوري، النداءات لتضـامن العالم الإسـلامي معـه. ويذكّـرنـا هـانتنغتون بأن بعض الأصـوليين الإسـلاميين المتشدديـن المعادين للغـرب، استجابـوا لذلك مـؤكدين أن تلك الحرب كـانت حربـاً «للغرب ضـد الإسلام». لكن قليلين صدقـوا ذلك. واحتشد عدد أكبر من حكـومات المجتمعـات التي يسودها المسلمـون لتأييد الكويت وليس «لإنقاذ» العراق.

وفي البوسنـة، فإن محاولات رادوفان كـارادزيتش وغيره من المتطرفين الصرب لتصـوير أنفسهم بأنهم حصن منيع ضد الإسلام، ليست أكثر إقناعاً، على الرغم من أن سلبية الجماعة الأوروبيـة والولايـات المتحـدة وحلف الأطلسي والأمم المتحـدة في مـواجهة العـدوان الصربي

الوحشي على البوسنة، قد استثارت في نهاية المطاف قدراً ملموساً من التضامن الإسلامي. لكن معظم حكومات الدول التي يسودها المسلمون عزف عن معالجة النزاع البوسني باعتباره حرباً دينية. وقاومت حكومة البوسنة نفسها إغراء تقديم مشكلتها باعتبارها مشكلة عالم الإسلام ضد عالم اليهودية ـ المسيحية. وإن حقيقة أن القوات الصربية بدأت هجومها على كرواتيا وسلوفينيا توضح دوافع الصرب وأهدافهم، وهي التعاظم الإقليمي، وليس الحرب المقدسة.

ولاشك في أن هناك خلافات اجتماعية وثقافية وسياسية مهمة قائمة بين الحضارتين الإسلامية واليهودية ـ المسيحية. لكن أهم الخلافات التي تطول المسلمين وأكثرها تفجُّراً موجودة داخل العالم الإسلامي ـ في ما بين الأشخاص والأحزاب والحكومات المتسمين على نحو معقول بالاعتدال وعدم التطلع إلى التوسع وعدم العنف من جانب، والمعادين للحداثة وللغرب والمتعصبين إلى أقصى حد والداعين إلى التوسع والعنف من جانب آخر. والهدف الأول للأصوليين الإسلاميين لايتمثل في حضارة أخرى، بل في حكوماتهم. وقد قال لي صديق مسلم عميق التدُّين «من فضلك لاتُسميهم بالأصوليين المسلمين. فهم لايمثلون صورة أكثر أصولية من الدين الإسلامي. إنهم مجرد مسلمين لكنهم أيضاً متطرفون سياسيون يتبنون العنف».

وفي أماكن أخرى أيضاً، هناك صدام بين نزعة التعصب والنزعة الدستورية، بين الطموح الشمولي وحكم القانون، داخل الحضارات، بصورة أوضح وأكثر نقاء منها في ما بينها. ففي آسيا، قد يتضح أن أكثر الصدامات حدّة بين الصور المختلفة لكون الناس صينيين أو هنوداً.

ولاشك في أن الحضارات مهمة. وإذ تُقَوِّضُ الحداثةُ قوةَ الثقافات المحلية والوطنية، فإنها تعزِّز أهمية تطابق الوحدات الأكبر، مثل الحضارات. كما أنه ليس من شك في أن هانتنغتون كان على حق عندما أكد أن الاتصالات العالمية والهجرة المتصاعدة تفاقم الصدام بجعل القيم وأساليب الحياة المتعارضة على طول الخط في اتصال مباشر بعضها ببعض. فالهجرة تأتي بممارسات دخيلة وغريبة إلى المدارس والأحياء والمؤسسات الأخرى للحياة اليومية، وتتحدّى الطابع الكوزموبوليتي للمجتمعات الغربية. إن التسامح الديني في شكل مجرد شيء، ووجود فتيات محجبات في الفصول الدراسية الفرنسية شيء آخر. ومثل هذه التحديات لاتلقى ترحيباً في أيّ مكان. لكن هانتنغتون الذي أسهم كثيراً جداً في تشكيل فهمنا للحداثة والتغيير السياسي، يعرف أيضاً الطرق التي تغير الحداثة بها الناس والمجتمعات

والسياسات. وهو يعـرف الطرق العديدة التي تصبح بها الحداثة مُرَادفـاً للتغريب ـ بمفهومـه الواسع ـ وأنها قد تُسفر عن حركة ارتجاعية وعداء مرير. لكنه يعرف أيضاً مدى قوة زخم الطرق الغربية الحديثة في العلم والتكنـولوجيا والديموقراطية والأسـواق الحرة. وهو يعرف أن السؤال الأكثر أهمية بالنسبـة إلى المجتمعات غير الغربية هو ما إذا كـانت تستطيع أن تكون حديثة من دون أن تكون غربية. وهو يؤمن بأن اليابان نجحت ربما.

وربما كان على صواب في القول إن معظم المجتمعات ستسعى للاستفادة من التحديث ومن العلاقات التقليدية في الوقت نفسه. وبقدر نجاحها ونجاحنا في الحفاظ على تقاليدنا مع قبول التغييرات المتـواصلة النـاجمة عن التحديث، فإن اختـلافنا بعضنا عـن بعض سيستمر، وستزداد حِدّةُ الحاجة لا إلى مجرد مجتمع تعددي، بل إلى عالم تعددي.

إن لــم تكن الحضارة، فمــاذا يكــون؟

نماذج من عالم ما بعد الحرب الباردة

صامويل هانتنغتون

عندما يفكر الناس بجدية، فإنهم يفكرون بصورة تجريدية، ويستحضرون في أذهانهم صوراً مبسطة للواقع تُسمى مفاهيم ونظريات وأمثلة ونماذج. ويقول وليام جيمس إنه من دون مثل هذه التركيبات الفكرية لا يوجد سوى «تشويش له طنين مدوٍ». إن التقدم الفكري والعلمي يتحقق، مثلما أوضح توماس كوهن في كتابه الكلاسيكي **هيكل الثورات العلمية**، من خلال إزاحة نموذج أصبح عاجزاً بصورة متزايدة عن تفسير الحقائق الجديدة أو التي أكتشفت حديثاً، ليحل محله نموذج جديد يفسر تلك الحقائق بطريقة أكثر مدعاة للرضاء. وقد كتب كوهن أنه لكي تقبل «نظرية ما باعتبارها نموذجاً، ينبغي أن تبدو في صورة أفضل من النماذج المنافسة، لكن الأمر لا يقتضي أن تُفسر جميع الحقائق التي قد تواجهها، فذلك لا يحدث أبداً».

لمدة أربعين عاماً كان الدارسون والممارسون في مجال العلاقات الدولية يفكّرون ويتصرفون في إطار صورة للشؤون الدولية عالية التبسيط، وإن كانت جد مفيدة، هي نموذج الحرب الباردة. وفيها كان العالم منقسماً بين مجموعة من المجتمعات، الغنية نسبياً والديموقراطية أساساً، وتقودها الولايات التحدة، منغمسة في نزاع شامل إيديولوجي وسياسي واقتصادي، وفي بعض الأحيان عسكري، مع مجموعة أخرى من مجتمعات شيوعية، أفقر نوعاً ما، ويقودها الاتحاد السوفياتي. ووقع معظم هذا النزاع في العالم الثالث، الذي كان مكوناً من بلدان فقيرة عادة وتفتقر إلى الاستقرار السياسي، وحصلت على الاستقلال حديثاً وتدَّعي أنها غير منحازة. ولم يستطع نموذج الحرب الباردة أن يُفسر كل شيء يقع في مجال السياسة العالمية. فعلى حد تعبير كوهن، كانت هناك حالات كثيرة من الخروج على القياس، وأدى النموذج مراراً إلى إعماء الباحثين ورجال الدولة عن رؤية تطورات أساسية، مثل الانقسام الصيني - السوفياتي. ومع ذلك، وباعتباره نموذجاً مبسَّطاً للسياسات الدولية، استطاع تفسير ظواهر أكثر أهمية مما فعلت النماذج المنافسة له، وكان نقطة بداية لا غنى عنها للتفكير

في الشؤون الـدولية ، وانتهى تقريباً إلى أن أصبـح نموذجاً مقبولاً على النطـاق العالمي ، وشكَّل إطار التفكير في السياسات العالمية مدة جيلين .

وحولت الأحـداث المثيرة في السنوات الخمس الماضية هذا النموذج إلى تـاريخ فكري . ومن الواضح أن هناك حاجة إلى نموذج جديد يساعدنا على تنظيم وفهم التطورات الرئيسية في السياسات العالمية . فما هي أفضل خريطة بسيطة لعالم ما بعد الحرب؟

خريطة العالم الجديد

إن مقال «هل هـو صدام بين الحضارات؟» هو محاولـة لتحديد عناصر نمـوذج ما بعد الحرب الباردة . ومثلما هي الحال في أي نموذج ، فإن نموذج الحضارات لا يُفسِّر كل شيء ، ولم يجد النقادُ مشقة في ذكر أحـداث ـ بـل أحداث مهمة مثل غزو العـراق للكويت ـ لا يفسرها ولا يتنبأ بها (على الرغم من أنه تنبأ بتبخر التحالف المعادي للعراق بعد آذار/ مارس ١٩٩٢) . ومع ذلك ، فمثلما أوضح كوهن ، فإن الأحـداث غير القياسية لا تدحض نمـوذجاً ما ، ذلك أن النموذج لا يـدحضه إلا وضع نمـوذج بديل يفسر حقـائق أكثر أهميـة بمقاييس مماثلة في البساطة أو حتى أشد بسـاطة (ذلك أنه على مستوى مماثل من التجـريد الفكري ، يمكن دوماً لنظرية أكثر تعقيـداً أن تُفسر أشياء أكثر مما تفسره نظرية أكثـر شحاً) . وتُبين المجادلات التي أثارها نموذج الحضـارات عبر العالم أنه ، بمقياس ما ، أصاب كبـد الحقيقة . فإما أنه يتفق مع الواقع كما يراه الناس وإما أنه يقترب منه على نحو يدفع من لا يقبلونه إلى الهجوم عليه .

ما هي تجمعات البلدان التي ستكون أكثر أهمية في الشؤون العالمية والأكثر ضرورة لفهم السياسات العالمية وإدراك مغزاها؟ إن البلدان لم تعد تنتمي إلى العالم الحر والكتلة الشيوعية أو إلى العالم الثالث . وإن التقسيمات الثنائية البسيطة للبلدان إلى غنية وفقيرة أو ديموقراطية وغير ديموقراطية قـد تفيد قليلاً ، لكنها لا تنفع كثيراً . فالسياسات العـالمية معقدة جداً الآن بحيث لا يمكن حشرها في خانتين فقط . وللأسباب التي بسطناها في المقال الأصلي ، فإن الحضارات هي الخلف الطبيعي لعوالم الحرب الباردة الثلاثة . وعلى المستوى الكلي ، من المرجح أن تتضمَّن السياسات العـالمية منازعات وتحولاً في موازين قوة الـدول المنتمية إلى مختلف الحضارت ؛ وعلى المستـوى الجزئي ، من المرجح أن تثـور أكثر المنـازعـات عنفاً وطـولاً وخطـورة (بسبب احتمال التصعيد) في مـا بين الدول والمجموعـات المنتمية إلى حضارات مختلفـة . ومثلما أوضح المقال ،

فإن نموذج الحضارة هذا يفسر كثيراً من التطورات المهمة في الشؤون الدولية في السنوات الأخيرة، بما في ذلك تفكك الإتحاد السوفياتي ويوغوسلافيا والحروب الدائرة في أقاليمها السابقة، وصعود الأصولية الدينية عبر العالم، والصراعات داخل روسيا وتركيا والمكسيك حول هويتها، واحتدام المنازعات التجارية بين الولايات المتحدة واليابان، ومقاومة الدول الإسلامية للضغط على العراق وليبيا، وجهود الدول الإسلامية والكونفوشيوسية للحصول على أسلحة نووية ووسائل إطلاقها، والدور المستمر للصين كقوة كبرى «خارجية»، وتعزز النظم الديموقراطية الجديدة في بعض الدول في حين لا يحدث ذلك في دول أخرى، وسباق التسلح المتصاعد في شرق آسيا.

وفي الشهور القليلة التي انقضت منذ كتابة المقال، وقعت الأحداث التالية التي تتفق أيضاً مع النموذج الحضاري والتي ربما كان يمكن التنبؤ بها:

- استمرار القتال واحتدامه بين الكروات والمسلمين والصرب في يوغوسلافيا السابقة.

- تقاعس الغرب عن تقديم دعم له معنى للمسلمين في البوسنة أو عن شجب الفظائع التي اقترفها الكروات بالطريقة نفسها التي تم بها شجب فظائع الصرب.

- عدم استعداد روسيا للإنضمام إلى أعضاء مجلس الأمن الآخرين لإجبار الصرب في كرواتيا على تحقيق السلام مع الحكومة الكرواتية، وعرض إيران والدول الإسلامية الأخرى إرسال ١٨٠٠٠ جندي لحماية مسلمي البوسنة.

- احتدام الحرب بين الأرمن والآذريين، ومطالبة إيران وتركيا للأرمن بالتخلي عن الأراضي التي احتلوها، ونشر قوات تركية وإيرانية على الحدود الآذرية، والتحذير الذي أعلنته روسيا من أن الإجراء الإيراني يُسهم في «تصعيد النزاع» ويدفعه إلى حدود التدويل الخطيرة».

- استمرار القتال في آسيا الوسطى بين القوات الروسية وفرق المجاهدين لحرب العصابات.

- المواجهة في مؤتمر حقوق الإنسان في فيينا بين الغرب بقيادة وزير الخارجية الأميركي، وارن كريستوفر، الذي يدين «النسبية الثقافية»، وتحالف الدول الإسلامية والكونفوشيوسية الذي يرفض «مذهب التعميم الأميركي».

- عودة المخططين العسكريين الروس وفي حلف الأطلسي بصورة متوازية إلى التركيز على «التهديد القادم من الجنوب».

ـ الاقتراع الذي تم بصورة كاملة تقريباً على أسس حضارية، كما هو واضح، على منح سيدني تنظيم أولمبياد عام ٢٠٠٠ وليس بكين.

ـ بيع الصين مكوِّنات الصواريخ لباكستان، وما ترتَّب على ذلك من فرض الولايات المتحدة لعقوبات على الصين، والمواجهة بين الصين والولايات المتحدة على شحن مزعوم للتكنولوجيا النووية لإيران.

ـ انهاء الصين قرارها الخاص بوقف انتشار الأسلحة النووية والتجارب النووية، على الرغم من الاعتراضات القوية للولايات المتحدة، ورفض كوريا الشمالية المشاركة في محادثات في شأن برنامجها لإنتاج الأسلحة النووية.

ـ تكشف أن وزارة الخارجية الأميركية كانت تتبع سياسة «الاحتواء المزدوج» تجاه كل من إيران والعراق.

ـ إعلان وزارة الدفاع الأميركية إستراتيجية جديدة استعداداً لـ «نزاعين إقليميين كبيرين»، أحدهما ضد كوريا الشمالية، والآخر ضد إيران أو العراق.

ـ دعوة الرئيس الإيراني لتحالف مع الصين والهند حتى «تكون لنا الكلمة الأخيرة في الأحداث العالمية».

ـ التشريع الألماني الجديد الذي يحد بصورة كبيرة من قبول اللاجئين.

ـ الاتفاق بين الرئيس الروسي بوريس يلتسين والرئيس الأوكراني ليونيد كرافتشوك حول وضع أسطول البحر الأسود وقضايا أخرى.

ـ قيام الولايات المتحدة بقصف بغداد، ودعم الحكومات الغربية الإجماعي لها، وإدانتها من قبل الحكومات الإسلامية كافة كمثال آخر لـ «الكيل بمكيالين» من قبل الغرب.

ـ وضع الولايات المتحدة السودان في قائمة الدول الإرهابية ومحاكمة الشيخ عمر عبد الرحمن وأتباعه بتهمة التآمر على «شن حرب الإرهاب الحضري ضد الولايات المتحدة».

ـ تزايد احتمالات قبول بولندا والمجر وجمهوريتي تشيكيا وسلوفاكيا في حلف الأطلسي.

هل يفسر منظار «صدام الحضارات» كل الأحداث العالية المهمة التي حدثت خلال الشهور القليلة الماضية؟ بالطبع لا، إذ يمكن المحاجة مثلاً بأن الاتفاق بين منظمة التحرير الفلسطينية والحكومة الإسرائيلية في شأن قطاع غزة وأريحا يمثل شذوذاً مثيراً عن النموذج الحضاري، وهو كذلك بمعنى ما. بيد أن هذا الحدث، لا يُبطل صحة النهج الحضاري.

فهو مهم، مـن الناحية التـاريخية على وجـه التحديـد، لأنه تم بين مجمـوعتين من حضارتين مختلفتين ظلتا تتحاربـان لما يزيد على أربعة عقـود. وتعد الهدنات والاتفاقـات المحدودة جزءاً من الصدامـات بين الحضارات، مثلما كانت اتفاقـات الحد من الأسلحة السوفياتيـة الأميركية جزءاً من الحرب الباردة. وفي حين أن النزاع بين اليهود والعرب قد يمكن تطويقه، فإنه سيظل مستمراً.

إن القضايـا المثارة في ما بين الحضـارات تحل بصورة متزايـدة محل القضايـا التي كانت مثارة في ما بين الدولتين العظميين باعتبارها موضوعات لها الأولوية في جدول الأعمال العالمي. وتتضـمن هذه القضايا انتشـار الأسلحة (خصوصاً أسلحة الدمار الشـامل ووسائل إطلاقها) وحقوق الإنسان والهجرة. وفي ما يتعلق بهذه القضـايا الثلاث، يقف الغرب في جانب ويقف معظم الحضارات الكبيرة الأخرى في الجانب الآخر. وقد حث الرئيس كلينتون في الأمم التحدة على بذل جهود مكثفة للحد من الأسلحة النووية وغيرها من الأسلحة غير التقليدية، ومضت الـدول الإسلاميـة والكـونفوشيـوسية في جهـودهـا للحصول عليهـا، وتتخـذ روسيا مـواقف متناقضة. ويتفق المدى الذي تُراعي به البلدان حقوق الإنسان بصورة غالبة مع التقسيمات في مـا بين الحضـارات: فـالغرب واليـابان يحميـان حقوق الإنسـان بصورة كبيرة، وتحمي أميركـا اللاتينية والهنـد وروسيا وأجزاء من إفريقيا بعض حقوق الإنسـان، أما الصين وكثير من بلدان آسيا الأخرى ومعظم المجتمعات الإسلامية فهي الأقل حمايـة لحقوق الإنسان. إن تزايد الهجرة من مصادر غير غـربية يثير قلقاً متزايداً في كـل من أوروبا وأميركا. وإضافـة إلى ألمانيا، تشدد بلدان أوروبيـة أخرى قيودها على الهجـرة في الوقت الذي تختفي فيه سريعـاً الحواجز على تحرّك الناس في أوروبا. وفي الولايات المتحدة، فإن الموجـات الضخمة من المهاجرين الجدد، تولد التأييد للدعـوة الرامية إلى فرض ضـوابط جديدة، على الرغم من حقيقـة أن معظم الدراسات تُبين أن المهاجرين يقومون بمساهمة إيجابية صافية في الإقتصاد الأميركي.

هل تتفكك أميركا؟

من وظـائف أي نمـوذج أن يلقي الضـوء على مـا هـو مهم (مثل احتمال التصعيـد في المصادمات بين المجموعات المنتمية إلى حضـارات مختلفة)، وهناك وظيفة أخرى له هي وضع الظاهرة المألوفـة في منظور جديد. وفي هذا الصدد، فإن النموذج الحضاري قـد تكون له آثاره

(١) أنظر على سبيل المثال الخريطة المنشورة في *Die Wilt*, June 16, 1993, p.3.

بالنسبة إلى الولايات المتحدة[1]. وتميل بلدان مثل الإتحاد السوفياتي ويوغوسلافيا وهي تمتد عبر خطوط التقسيم الحضاري إلى التفكك. وقد اعتمدت وحدة الولايات المتحدة تاريخياً على دعامتين توأم من الثقافة الأوروبية والديموقراطية السياسية. وكان هذان العنصران جوهريين بالنسبة إلى أميركا وتمثلتهما الأجيال المختلفة من المهاجرين. إن جوهر العقيدة الأميركية هو الحقوق المتساوية للأفراد، وقد رفعت مجموعات المهاجرين والمنبوذين مبادىء هذه العقيدة ونفخوها في نضالهم من أجل المعاملة المتساوية في المجتمع الأميركي. وكان أبرز هذه الجهود وأكثرها نجاحاً في هذا الصدد، حركة الحقوق المدنية بقيادة مارتن لوثر كنغ الأبن في الخمسينات والستينات. بيد أن المطالبة تحولت بعد ذلك من الحقوق المتساوية للأفراد إلى الحقوق الخاصة (العمل الإيجابي والتدابير المماثلة) للسود والمجموعات الأخرى. وتتناقض مثل هذه المطالب بصورة مباشرة مع المبادىء الراسخة التي شكّلت أساس الوحدة السياسية الأميركية، وهي ترفض فكرة المجتمع «المصاب بعمى الألوان» المكوّن من أفراد متساوين وتروِّج بدلاً من ذلك للمجتمع «الواعي بالألوان» مع وجود امتيازات تُقرها الحكومة لبعض المجموعات. وفي حركة موازية، بدأ المثقفون والسياسيون في الترويج لأيديولوجية «التعددية الثقافية»، والإصرار على إعادة كتابة التاريخ السياسي والاجتماعي والأدبي الأميركي من وجهة نظر مجموعات غير أوروبية. وفي حالتها القصوى، تنزع هذه الحركة إلى إعلاء مكانة قادة مغمورين لمجموعات الأقلية إلى مستوى من الأهمية مماثل لمستوى الآباء المؤسسين. ويشجع كل من المطالبة بحقوق لمجموعات خاصة وبالتعددية الثقافية، صدام الحضارات داخل الولايات المتحدة ويشجع ما سماه آرثر م. شليزنجر «تفكيك وحدة أميركا».

إن الولايات المتحدة تغدو بلداً متنوعاً من الناحية الإثنية والعنصرية بصورة متزايدة. ويُقدر مكتب التعداد أنه بحلول عام ٢٠٥٠ سيضم الشعب الأميركي ٢٣ في المئة من الأسبان و١٦ في المئة من السود و١٠ في المئة من الأميركيين الآسيويين. وفي الماضي، كانت الولايات التحدة قد استوعبت بصورة ناجحة ملايين المهاجرين من عشرات البلدان لأنهم تكيفوا مع الثقافة الأوروبية السائدة وتبنوا بحماس العقيدة الأميركية عن الحرية والمساواة والفردية والديموقراطية. فهل سيستمر هذا النمط سائداً عندما يصبح ٥٠ في المئة من السكان من الأسبان أو غير البيض؟ هل يتم استيعاب المهاجرين الجدد في الثقافة الأوروبية التي سيطرت على الولايات المتحدة؟ وإن لم يفعلوا ذلك وأصبحت الولايات المتحدة متعددة الثقافات حقاً وسادتها الصدامات الداخلية بين الحضارات، فهل تستمر باعتبارها ديموقراطية ليبرالية؟ إن الهوية السياسية للولايات المتحدة راسخة بجذورها في المبادىء التي عبّرت عنها وثائق

تأسيسها. فهل يعني نـزع الطابع الغربي عن الـولايـات المتحـدة، إن حدث، نـزع الطـابع الأميركي عنها أيضـاً؟ ولو تحقق ذلك وكف الأميركيـون عن الالتزام بأيديـولوجيتهم السيـاسية الديموقـراطية ذات الجذور الأوروبية، فإن الولايـات المتحدة، كما نعرفها، تكف عـن الوجود وتتبع الدولة العظمى الأخرى التي كانت محددة أيديولوجياً، إلى كومة من رماد التاريخ [٢].

هل يمكن التوصل إلى فكرة أفضل؟

إن النهج الحضـاري يُفسر الكثير وينظم الكثير من «التشويش الـذي له طنين مـدو» الناشيء في عـالم ما بعد الحرب الباردة، وهـذا هو السبب في أنه استحوذ على مثل هـذا القدر من الاهتمام وأثار مثل هذا القدر من الجدل عبر العالم. فهل يستطيع أي نموذج آخر أن يحقق ما هو أفضل من ذلك؟ إن لم تكن الحضارات، فماذا؟ إن الردود المنشـورة في مجلة فورين أفريز *Foreign Affairs* على مقالي لم تقـدم أي صورة بـديلة مقنعـة للعالم. وهي في أفضـل الأحوال تقترح بديلاً زائفاً وبديلاً غير واقعي.

والبديـل الزائف هـو نموذج دولاني يخلق تعـارضاً مصطنعـاً وغير ذي أهمية إجمالاً بين الدول والحضارات، إذ يقول فؤاد عجمـي إن «الحضارات لا تسيطر على الدول» وإن «الدول تُسيطـر على الحضارات». لكن ليس من معنى للحـديث عن الـدول والحضارات من زاويـة «السيطرة». بـالطبع، إن الـدول تحاول موازنة القـوى، ولكن لـو كان هذا هـو كل مـا تفعله لانضمت بلـدان أوروبا الغـربية إلى الإتحاد السـوفياتي في مـواجهة الـولايات المتحـدة في نهاية الأربعينات. إن الـدول تستجيب في المحل الأول للتهديدات المتصورة، وحينـذاك كانت دول أوروبا الغـربية تـرى أن التهديـد السياسي والأيـديولـوجي يأتي من الشرق. ومثلما أكـد مقالي الأصلي، فإن الحضارات تضـم دولـة أو أكثر، وإن «الـدول ـ الأمـــم ستظـل أقـوى العناصر الفاعلة في الشؤون العالمية». وتماماً مثلما كـانت الدول ـ الأمم تنتمي بصفة عامة إلى واحد من العوالم الثلاثة في الحرب الباردة، فإنها تنتمي أيضاً إلى الحضارات. ومع اختفاء العوالم الثلاثة، فإن الدول ـ الأمم تحدد هويتها ومصالحها بمقاييس حضارية على نحو متزايد. وترى الشعوب والدول الأوروبية الغربية حالياً أن هناك خطراً ثقافياً عليها يجيء من الجنوب ويحل محل التهديد الأيديولوجي الذي كان يجيء من الشرق.

---

(٢) للإطلاع على بيـان ذكي وبليغ للأسباب التي تجعل مستقبل الولايات المتحـدة مشكلة، أنظر Bruce D. Porter, "Can American Democracy Survive?, *Commentary*, November 1993.

إننا لا نعيش في عـالم من البلدان التي تتسم بـ «عزلـة الدول» (وفق تعبير عجمي) ولا صـلات بينهـا ، بل إن عالمنـا هـو عـالم التجمعـات المتداخلـة من الـدول التي يجمع بينهـا ، بـدرجـات متباينـة ، التـاريخ والثقـافـة والديـن واللغة والموقع والمؤسسـات . وعلى المستـوى الأعرض ، فإن هذه التجمعـات هي حضارات . وإنكار وجودها ، إنكار للحقـائق الأساسية للوجود الإنساني .

والبديل غير الواقعي هو نموذج العالم الواحد الذي يقول إن هناك حضارة عالمية شاملة قائمة الآن أو من المرجح أن تقوم في السنوات القـادمة . ومن البديهي أن الناس يتسمون الآن ، وقد اتسموا منـذ آلاف السنين ، بسمات مشتركة تميز البشر عن الأنواع الأخـرى . وكانت هذه السمات على الدوام متسقة مع وجـود ثقافات مختلفة جـداً . ومقولة إن ثقافة عـالمية أو حضـارة عالمية شاملة تبزغ الآن ، تأخذ أشكالاً مختلفة لا يصمد أي منها حتى للتمحيص العابر .

فأولاً ، هناك المقولة بأن انهيار الإتحاد السوفيـاتي يعني نهاية التاريخ والإنتصار الشامل للديمـوقراطية الليبراليـة عبر العالم . وهذه المقولـة تعاني من مغالطـة البديل الوحيـد . وترجع بجـذورهـا إلى الإفتراض الـذي شـاع في الحرب الباردة بـأن البديـل الوحيـد للشيـوعيـة هـو الديموقراطية الليبرالية ، وأن زوال الأولى يؤدي إلى عالميـة الثانية . بيد أنه من الواضح أن هناك أشكالاً عديدة من النزاعات الإستبدادية والقومية وهيمنة الشركات وشيوعية السوق (مثلما هي الحال في الصين) لا تزال حيـة وفي حالة جيـدة في عالم اليـوم . والأمر الأكثر أهميـة ، أن هناك جميع البدائل الدينية التي تقع خارج العالم المدرك بمقاييس الأيديولوجيات العلمانية . إن الدين مركزي في العالم الحديث ، وربما كان هو القـوة المركزية التي تحرّك الناس وتحشدهم . والاعتقاد بأن الغرب قد كسب العالم إلى الأبد بسبب إنهيار الشيوعية السوفياتية محض غرور أجوف .

ثانياً ، هناك الإفتراض القائل بأن التفاعل المتزايد ـ الاتصالات والمواصلات على نطاق متنام ـ ينتج ثقافة مشتركة . قد تكون الحال كذلك في بعض الظروف ، لكن الحروب تنشب في غالب الأحوال بين المجتمعات التي توجد في ما بينهـا مستويات عالية من التفاعل ، والتفاعل يدعم عادة الهويات القائمة ويُنتج مقاومة وردَّ فعلٍ ومواجهة .

ثالثاً ، هنـاك الإفتراض القائل بأن التحديث والتنمية الإقتصـادية لهما تأثير باعث على التجانس ويُنتجـان ثقافة حديثـة مشتركة تشبه بصـورة وثيقة تلك القـائمة في الغـرب في هذا القرن . ومن الواضح أن المجتمعات الحديثة ، الحضرية والمتعلّمـة والثرية والصناعية ، تتقاسم سمات ثقـافيـة تميّزهـا عن المجتمعـات المتأخّـرة ، الـريفية والفقيرة وغير المتطـورة . وفي العـالم

المعاصر، فإن معظم المجتمعات الحديثة كانت مجتمعات غربية . ونظراً إلى أن التحديث ليس مرادفاً للتغريب ، فإن اليابان وسنغافورة والسعودية مجتمعات حديثة ومزدهرة ، لكن من الواضح أنها ليست غربية . والإفتراض الشائع لدى أهل الغرب بأن الشعوب الأخرى التي تأخذ بالتحديث لا بد لها أن تصبح «مثلنا» هو نوع من الغرور الغربي الذي يوضح بنفسه صدام الحضارات . والقول إن السلوفينيين والصرب والعرب واليهود والهندوس والمسلمين وأهل التيبت والصينيين واليابانيين والأميركيين ينتمون جميعاً إلى حضارة شاملة واحدة حددَّها الغرب ، هو هروب من مواجهة الحقيقة .

إن حضارة عالمية شاملة لا يمكن أن تكون إلا نتاجاً لسلطة عالمية شاملة . فقد أنشأت القوة الرومانية حضارة شبه عالمية داخل الحدود المعيَّنة للعالم القديم . ووسَّعت قوة الغرب في شكل الاستعمار الأوروبي في القرن التاسع عشر والهيمنة الأميركية في القرن العشرين نطاق الثقافة الغربية لتشمل كثيراً من أرجاء العالم المعاصر. ولقد انتهى الإستعمار الأوروبي؛ والهيمنة الأميركية آخذة في الإنحسار. ويتبع ذلك تأكل الثقافة الغربية ، مع إعادة تأكيد العادات واللغات والمعتقدات والمؤسسات المحلية ذات الجذور التاريخية لمكانتها .

والمدهش أن عجمي يذكر الهند كدليل على القوة الكاسحة للحداثة الغربية ، ويقول إن «الهند لن تصبح دولة هندوسية . إن ميراث العلمانية الهندية سيصمد» . ربما يحدث ذلك ، لكن من المؤكد أن الإتجاه الغالب يبعد عن رؤية نهرو لديموقراطية علمانية اشتراكية غربية برلمانية ، ليتجه نحو مجتمع تشكله الأصولية الهندية . ويمضي عجمي ليقول إنه في الهند «ستدافع الطبقة الوسطى العريضة عنها [العلمانية]، وتُبقي على النظام سليماً للحفاظ على مكانة الهند ـ ومكانتها الخاصة ـ في عالم الأمم الحديث» . حقاً؟ هناك قصة طويلة نشرت في النيويورك تايمز (٢٣ ايلول/ سبتمبر ١٩٩٣) حول هذا الموضوع تبدأ كالآتي «ببطء ، وتدريجاً ، ولكن بدأب مياه الفيضان ، أخذ الغضب الهندوسي المتنامي تجاه الأقلية الإسلامية في الهند ينتشر بين صفوة الهندوس من أبناء الطبقة الوسطى الراسخة ــ تجارها ومحاسبيها ومحاميها ومهندسيها ـ الأمر الذي يخلق حالة من عدم اليقين في شأن قدرة معتنقي الديانتين على العيش معاً في المستقبل» . كما يُلقي مقال له مغزاه نُشر في النيويورك تايمز (٣ آب/ أغسطس ١١٩٩٣) لصحافي هندي ـ الضوء على دور الطبقة الوسطى : «إن التطور الأكثر مدعاة للقلق هو تزايد عدد كبار الموظفين والمثقفين والصحافيين الذين بدأوا يتحدثون لغة الأصولية الهندوسية ، محتجين بأن الأقليات الدينية ، وخصوصاً المسلمة ، قد استنفدت قدرتهم على الصبر» . ويخلص الكاتب ، خوشوانت سنغ ، وهو حزين ، إلى القول إنه في حين

أن الهند ربما أبقت على واجهتها العلمانية «فإنها لم تعد الهند التي عرفناها طوال الـ ٤٧ سنة الماضية» و«أن الروح السائدة فيها ستكون روح الهندوسية المتشدِّدة». إن الأصولية في الهند مثلها مثل المجتمعات الأخرى، آخذة في التصاعد، وهي في الأساس ظاهرة من ظواهر الطبقة الوسطى.

إن إنهيار القوة الغربية سيتبعه انسحاب الثقافة الغربية، وقد بدأ ذلك. وستؤدي زيادة القوة الإقتصادية سريعاً في دول شرق آسيا، إلى زيادة قوتها العسكرية ونفوذها السياسي وتأكيدها لهويتها الثقافية كما يقول كيشوري محبوباني. وقد صاغ زميل له هذا التحذير في ما يتعلق بحقوق الإنسان:

إن الجهود المبذولة لدعم حقوق الإنسان في آسيا ينبغي أن تُراعي التوزع المتغيِّر للقوة في عالم ما بعد الحرب الباردة... لقد انخفضت بصورة كبيرة وسائل الغرب في التأثير في شرق آسيا وجنوبها الشرقي... وتقل كثيراً إمكانات وضع شروط وعقوبات لفرض الالتزام بحقوق الإنسان.. ولأول مرة منذ اعتماد الإعلان العالمي [لحقوق الإنسان] عام ١٩٤٨، تجيء في المرتبة الأولى دول ليست راسخة القدم في التقاليد اليهودية ـ المسيحية وتقاليد القانون الطبيعي: وهذا الموقف غير المسبوق سيحدد السياسات الدولية الجديدة لحقوق الإنسان. كما سيضاعف من فرص الصدام.

لقد ولدَّت النجاحات الإقتصادية ثقة أكبر بالنفس من الناحية الثقافية. وأياً كانت خلافاتها الثقافية، فإن دول شرق وجنوب شرق آسيا يتزايد وعيها بحضاراتها الخاصة بها وتنزع إلى عزو مصادر نجاحها الإقتصادي إلى تقاليدها ومؤسساتها المتميزة. إن النغمة التي يسودها الرضاء عن النفس، المفرطة في التبسيط، والمنافقة التي يتَّسم بها قدر كبير من التعليقات الغربية على نهاية الحرب الباردة والإحساس الحالي بانتصار القيم الغربية تثير غيظ أهل شرق وجنوب شرق آسيا [٣].

بالطبع، إن اللغة أساسية بالنسبة إلى الثقافة، ويذكر عجمي وروبرت بارتلي كلاهما الإستخدام الشائع للغة الانكليزية كدليل على عالمية الثقافة الغربية (على الرغم من أن المثال القصصي الذي ضربه عجمي يرجع إلى عام ١٩٠٠). لكن، هل استخدام اللغة الانكليزية آخذ في التزايد أم في التناقص بالنسبة إلى اللغات الأخرى؟ ففي الهند وإفريقيا وأماكن أخرى،

---

(٣) Bilahari Kausikan, "Asia Different Standard" *Foreign Policy*, Fall 1993.

أخـذت اللغات المحليـة تحل محل لغـات الحكـام الإستعماريين، حتى عندمـا كـان عجمي وبارتلي يكتبان تعليقهما، نشرت النيوزويك مقالاً بعنوان «لم تعد الانكليزية لغة الحديث هنا»، يتحدث عن حلول اللغـة الصينية محل الانكليزية بـاعتبارها اللغة المشتركـة في هونغ كونغ[٤]. وفي تطـور مـوازٍ، فإن الصرب يسمون لغتهم حـاليـاً اللغـة الصربيـة وليس الصربوكـرواتيـة، ويكتبـونها بالحروف السيريليـة (السـلافية القـديمـة) الخاصة ببنـي جلدتهم الـروس، وليس بالحروف الغربية لأعدائهم الكـاثوليك. وفي الوقت نفسه، تحول الآذريون والتركمان والأوزبك من الحروف السيريلية لسـادتهم الروس السابقين إلى الحروف الغـربية لبني جلـدتهم الأتراك. وعلى جبهة اللغة، تسود النزعة البابليـة (إشارة إلى اختلاف ألسنة من قاموا ببناء البرج الشهير) على العالمية، الأمر الذي يوضح بجلاء تزايد مكانة الهوية الثقافية.

الثقافة هدف يموت الانسان من أجله

أينما ولّىَ الإنسان وجهـه، يجد أن العالم متنـاقض مع نفسه. فإن لم تكـن الخلافات في الثقافات مسؤولة عن هذه المنازعات، فما هو العامل المسؤول؟ إن منتقدي نموذج الحضارة لم يتوصلوا إلى تفسير أفضل لما يجري في العـالم. وعلى النقيض من ذلك، فإن النموذج الحضاري يجد استجابة ويضرب على وتر حساس في العـالم كله. فهو في آسيا، مثلما أورد سفير أميركي، «ينتشر مثل حريق في البراري». وفي أوروبا، أيد رئيس المفوضية الأوروبية جاك ديلور صراحة مقولته عن أن «منازعـات المستقبل ستشعلها عوامل ثقافية وليس اقتصادية أو أيـديولوجية»، وحذر من أن «الغرب في حاجـة إلى تطوير فهم أعمق للافتراضات الدينيـة والفلسفية الكامنة وراء الحضارات الأخـرى، والطريقـة التي ترى بها الأمـم الأخرى مصالحهـا، وذلك لتحـديد الشيء المشترك الذي يجمع بيننا». ويرى المسلمون بدورهـم أن «الصدام» يوفّر دليلاً على تمايز حضـارتهم واستقلالها عـن الغرب، ويضفي عليهـا درجـة ما مـن المشروعية. إن الحضـارت كيانات هادفة تتفق مع الطريقة التي يرى بها الناس الواقع ويعايشونه.

إن التاريخ لم ينته. والعالم ليس واحـداً. والحضارات توحد الجنس البشري وتقسمه.

---

(٤) على حد تعبير أحد المقيمين البريطانيين: «عندما وصلت إلى هونغ كـونغ منذ ١٠ سنوات مضت، كان سائق التاكسي في ٩ مرات من كل ١٠ مرات يفهم مـا أقوله عن المكان الذي أقصده. أمـا الآن فهو لا يفهم ذلك في ٩ مرات من كل ١٠ مرات». وينبغي اكتراء الغربيين بصـورة متزايدة وليس أهل البلاد للقيام بـالوظائف التي تتطلب معرفة اللغـة الانكليزية.
Newsweek, July 19, 1993.

ويمكن احتواء القوى التي تثير الصدامـات بين الحضارات من خلال الإعتراف بها فحسب. ففي «عـالم الحضارات المختلفـة»، مثلما انتهى مقالي، سيتعين على كل [حضـارة] «أن تتعلم التعايش مع الحضارات الأخرى». إن ما يهم الناس في نهايـة المطاف ليس هو الأيديولوجية أو المصالح الإقتصاديـة، بل الإيمان والأسرة والدم والعقيدة، فذلك هو مـا يجمع بين الناس وما يحاربـون من أجله ويمـوتون في سبيلـه. وهذا هـو السبب في أن صدام الحضـارات يحل محل الحرب البـاردة باعتبـاره الظاهرة المركزية للسيـاسات العالمية، وفي أن النموذج الحضـاري يوفِّر أفضل من أي بديل آخر، نقطة بداية نافعة لفهـم التغيرات الجارية في العالم ومواجهتها.

«صدام حضارات»
أم إدارة أزمـات؟

وجيه كوثراني

لعلَّ أهم ما يستوقف في مقالة هانتنغتون «صدام الحضارات» إستدراجها الكتّاب والباحثين في العالم إلى سجالٍ لم يقف عند حدود الملف الذي أعدته مجلة *Foreign Affairs*، بل تعداه إلى حوارات وتعليقات وندوات في صحف ومجلات وفي مراكز ونواد ومحافل ثقافية وعلمية في كل أنحاء العالم. وفي العالمين العربي والإسلامي، حظيت مقالة هانتنغتون باهتمام واسع، ولاسيما لدى بعض القوى القومية والإسلامية التي وجدت في خطاب غربي يعترف بـ «الحضار ة الإسلامية» طرفاً في الصراع العالمي، شهادة من أهله على «تهافت» نظرية «نهاية التاريخ» التي حظيت هي، أيضاً، غداة انهيار الاتحاد السوفياتي ونهاية الحرب الباردة، باهتمام وتعليق بلغا حد «الضجيج» المؤيِّد أو المعارض.

والمراقب الدارس لا بد أن يقف أمام الظاهرة موقف المتسائل: لم كل هذا الضجيج عندما يتعلق الأمر بصدور «مقولة أميركية» يُراد لها أن تسوَّق وتروَّج في العالم، وفي لحظة معينة من لحظات موازين العلاقات الدولية؟

في المرة الأولى، غداة نهاية الحرب الباردة، بدا أن المهمة العاجلة التي تستدعيها مقالة فوكوياما «نهاية التاريخ» هي التبشير بانتصار الليبرالية كنهاية لصراع الإيديولوجيات في العالم، بعدما انهزمت الشيوعية وتداعت مجتمعاتها، وأخذت تبحث عن خلاصها في صيغ من الديموقراطيات الغربية.

وفي المرة الثانية، غداة التشظي القومي والإثني والديني الذي شهدته أوروبا الشرقية وآسيا الوسطى والبوسنة والهرسك، والحروب الأهلية ـ الطائفية في أماكن أخرى، وتعثر محاولات التحول الديموقراطي في العالم، وعودة القوميات الشوفينية والعنصرية في أوروبا الغربية، واضطرابات لوس أنجلوس . . . بدا أن المهمة التي تستدعيها مقالة «صدام الحضارات» هي الدعوة إلى نمط من التعايش مع نوع من الأزمات في العالم مرشحة لأن تتفاقم وتدوم. وهذا النمط من التعايش يقوم، كما تنتهي مقالة هانتنغتون، على الدعوة إلى «احتواء

القوى التي تُثير الصدامات بين الحضارات عبر الإعتراف بها . . . »، وأنه «يتعين على كل حضارة أن تتعلم التعايش مع الحضارات الأخرى».

إذن، بين مقالة أميركية تُبشر بـ «نهاية التاريخ» ومقالة أخرى، أميركية أيضاً، تقول إن «التاريخ لم ينته»، أقل من سنتين. وفي الحالتين، نلاحظ أن ثمة ضجيجاً إعلامياً واستدراجاً لخطابات من هنا وهناك تعارض أو تؤيد أو تفند. وفي كل الأحوال، نلاحظ أن ثمة استتباعاً فكرياً ومنهجياً تفرضه مركزية التفكير الاستراتيجي في العالم على التفكير المحلي في أطراف العالم. هذا التفكير الذي لا يخرج في أغلب الأحيان عن إطار ردود الفعل ليس أكثر.

لماذا إذن العودة إلى الموضوع

قد يكون ذلك من أجل ضرورة الإطلاع على اتجاهات الفكر الاستراتيجي العالمي، ولكن أيضاً، وبشكل أساسي، من أجل التفكر في وظائفية الخطاب الاستراتيجي الأميركي عندما يراد لهذا الخطاب أن يكون حدثاً مركزياً أو خطاباً محورياً لإدارة النقاش العالمي وتوجيهه.

ما نسجله في هذا الصدد ملاحظات نسوقها في عُجالة:

ليست هي المرة الأولى التي يدور الحديث فيها عن صراع الحضارات في التاريخ. فمنذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ومع تصاعد حركات الاستعمار والإلحاق واقتسام العالم إبان تحول الاستعمار إلى أمبريالية عالمية، كثر الحديث عن الصراع بين شرق وغرب، وعن حضارة غربية يحمل أصحابها رسالة التمدين إلى العالم. بل إن المسألة الشرقية التي لخصت في عنوانها العريض هذا الصراع في أواخر القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين، حملت معها العديد من المظاهر التي يعود إليها هانتنغتون اليوم ليعتبرها حقل صدام بين الحضارات، مع فارق أساسي هو أن صدام الحضارات في مرحلة «المسألة الشرقية»، أي مرحلة السيطرة والإستتباع والإلحاق (مرحلة الأمبريالية) كان ينبيء بغلبة وجاذبية حضارة غربية كانت تقدم نفسها عالمية بفعل سيطرة الرأسماليات الغربية على العالم، عبر أسواقها وإنتاجها وآلتها العسكرية وأنظمتها الدولتية والإدارية والمدرسية والجامعية، و«ليبراليتها» الجاذبة. وفي المقابل، كان هناك اجتماع سياسي إسلامي تمثل بشكل أساسي في الدولة العثمانية، ولا يزال، يحمل بعضاً من ذاكرة تلك الحضارة الإسلامية والحنين إليها.

غير أن هذا الحنين لم يكن مجرد وجدانية حيال ماض انقضى، بل إن المجتمعات الإسلامية كانت، وما زالت، تعيش «إسلاماً شعبياً» يتداخل فيه المعتقد الديني مع أنماط من

العيش والسلوك والعقلية. ولعله عبر هذه الأنماط وجدت الممانعة ركائزها الاجتماعية والسياسية والتعبيرية والتنظيمية الأولى.

أما على مستوى الأفكار ـ أفكار النخب ـ فكانت الردود المحلية في عالم الإسلام تعبر في معظمها عن حالة توليفية لمعطيات حضارية مركبة، بعضها جاء نتاج استحضار لمعطيات أوروبا «النهضة» «والتنوير» وأولوية القومية وفكرة «الديموقراطية»، وبعضها الآخر نتاج استحضار لذاكرة عصر «الازدهار الإسلامي» وأخبار عصر «الشورى».

ولم يقدر لتجربة «التوليف» أو لما يمكن أن نسميه حالة «التوفيق بين الإصلاحية الإسلامية والليبرالية الغربية» أن تنجح في العالم الإسلامي. وإذ لا يتسع المجال في هذه المقالة لمعالجة الأسباب، فإنه من المؤكد أن السياسات الاستعمارية، التي أعطت الأولوية لأنظمة الاستبداد المحلية ولسياسات «الأعيان» في المجتمعات الإسلامية، كانت المسؤولة الأولى عن إخفاق التجارب الديموقراطية الأولى في العالم الإسلامي. وكان هذا الاخفاق مقدمة لتعثر التجارب القومية واليسارية والاشتراكية لاحقاً، كما كان هذا التعثر الأخير مقدمة لتأجيج الممانعة الإسلامية التي تحملها اليوم الحركات الإسلامية الحزبية في العديد من مناطق العالم الإسلامي والتي يسمي هانتنغتون بعض تعبيراتها «صداماً بين حضارات».

السؤال: هل صحيح أن نسمي أشكال الممانعة ذات الأبعاد التاريخية والاجتماعية والثقافية، صداماً بين حضارات؟

لعل في الأمر التباساً في معاني المصطلح وفي تصور السياقات التي ظهرت واستخدمت فيها مصطلحات الثقافة والحضارة في العصر الحديث. لذا، فإن استعادة السياق التاريخي الذي تم فيه استخدام مصطلح «صراع الحضارات» قد تكون مفيدة في عملية التوضيح.

يبدو أن هانتنغتون يستخدم تعبير «ثقافة» وحضارة بمعنى واحد، بل إن تعبير الحضارة عنده يشمل الثقافة بمعناها الإثنولوجي، أي بما تحمله هذه الأخيرة من معانٍ ترتبط بالدين وأنماط الحياة والعلاقات والطقوس والعبادات؛ فهي بهذا المعنى تشمل سمات الأقوام والشعوب والجماعات الدينية المذهبية والعرقية. فهذه كلها في استخدامه المعلن أو الضمني «حضارات». إن الأمثلة التي يعددها هانتنغتون تشي صراحةً بهذا المعنى.

أما في شأن السياق التاريخي لهذا الاستخدام، فإنه مثير هو، أيضاً، لأكثر من التباس. كان شبنغلر في كتابه **انحطاط الغرب** قد أطلق لفظة "Culture" على الحضارة بمعنى «الوحدة الأساسية» أو الحدث الأول في الاجتماع والتاريخ. كما كان قد أطلق التعبير نفسه على

دور الفتوة وطور الإنتاج الروحي من الحضارة، في حين أطلق تعبير الحضارة نفسه على طور الهرم والركود. وفي رأيه، يتميز هذا الطور بـ «الإنتاج المادي» وحده.

واضح ما لهذا الاستخدام الوظيفي لتعبير «حضارة» في زمنه. فشبنغلر ينتمي إلى ذاك الجيل من المفكرين الغربيين الذين هالهم ما نتج من حروب الغرب من ويلات، فوجدوا فيها تعبيراً عن انحدار وانحطاط في قيم الحضارة الحديثة التي فقدت «طور ثقافتها»، أي «طور إنتاجها الروحي»، بحسب مفهوم شبنغلر، كما وجدوا في الحضارة الغربية، وهي في طور «إنتاجها المادي»، حالة شيخوخة سائرة نحو الموت والزوال.

نقرأ هذا اليأس، أيضاً، من مستقبل الحضارة الغربية، وبشكل أوضح، لدى توينبي، وذلك كجزء من نظرته إلى «التردي الرتيب للتاريخ». يقول: «إذا كان تشابه التاريخ المعاصر للحضارة الغربية والتاريخ القديم للحضارات الأخرى، يشمل التفاصيل التسلسلية، فإننا اليوم على حافة هاوية تظهر حيالها الهاوية التي برزت في المجتمعات الغربية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر كالحفرة الصغيرة البسيطة. إن فكرة كهذه كفيلة بأن تجعل أكبر فرد فينا يحس بالرعب والرهبة، ذلك أن النهايات التي وضعت حداً للفترات المضطربة في التاريخ القديم، إنما كانت قضاءً مبرماً على حضارات اندثرت نهائياً ولم تنهض. . . ترى هل علينا نحن أيضاً أن ندفع الثمن نفسه فداءً لسلامنا. إن هذا سؤال لا تستطيع شفاهنا الإجابة عنه لأن مصير أي حضارة حية يشكل أمراً أكثر غموضاً، بالنسبة إلى من هم جزء منها، من مصير حضارة ميتة».

وفي رأيه، إن النزعة العسكرية للدول وأهواء القلة المتحكمة في قرارات الحرب هي التي تدفع بالحضارات إلى الانتحار: «إن النزعة العسكرية تهدم الحضارة بإثارتها الصدام بين الدول المحلية التي تتألف منها. . . وفي هذا التدمير للذات يستخدم كل البناء الاجتماعي وقوداً لاشعال اللهيب المفترس الذي يجيش في جوانح البشر. إن فن الحرب وحده هو الذي أحرز التقدم على حساب كل فنون السلام»، بل «إن كبر الامكانات العلمية والتصنيعية التي تسخر لتسيير آلة الحرب تدفع بالتاريخ إلى دورة من الحروب وصلت إلى آخر حدودها، أي إلى الحد الذي يمكن تدمير الانسانية جمعاء».

إلا أن مكمن هذا التقهقر يظل، في رأيه، في سياسات الدول وقرارات المتحكمين في استخدام تكنولوجيا السلاح التي تمثل أحد أبرز أوجه الإنتاج المادي للحضارة الغربية، لا في اختلاف الحضارات في العالم.

قد يكون الخوف المتمثل في نظرية «تردي التاريخ» عند توينبي، وشيخوخة الحضارة عند شبنغلر، مفهوماً ومبرراً حيال حربين عالميتين مدمرتين، وحيال هول تفجير القنبلة الذرية في الحرب الثانية. إلا أن هذا الخوف لم يكن لدى ذاك الجيل من صدام حضارة ضد حضارة أخرى، إنما كان خوفاً من سياسات الحكام أن يدفعوا بحضارتهم إلى الصدام والانتحار، ومن توجيه الإنتاج الحضاري في وجهة مادية وحيدة الجانب.

بعد الحرب العالمية الثانية، وتشكل توازن الرعب بين المعسكرين في العالم، بدا أن حقل الحروب انتقل إلى خارج المركز الغربي، فبدت حروب التحرير وحروب الحدود والحروب الأهلية وحروب الدول الناشئة تعبيراً عن تاريخ مختلف، ولكن، أيضاً، تعبيراً عن «سخونة» حرب باردة، كان يحرص على نقل «حرارتها» خارج حقل محورها الحضاري الغربي (الاتحاد السوفياتي ـ أوروبا ـ أميركا).

وبدأ اهتمام جديد بدراسة العالم وبدراسة «المختلف» حضارياً (الصين، الهند، العالم الإسلامي، أميركا اللاتينية...) وبمنهج جديد لا يهدف هذه المرة إلى توظيف المعرفة في الحركة الاستعمارية، كما كان الحال في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، بل يهدف، في جملة ما يهدف، إلى معرفة الآخر واكتشاف طبائع الاختلاف في العالم، حضارة وثقافة وأنماط عيش.

ولعله في هذا السياق (النصف الثاني من القرن العشرين) تشكلت القفزات المعرفية والمنهجية الكبرى في العلوم الانسانية، والتي تمثلت بشكل أساسي في مدارس تاريخية مجددة كمدرسة Annales الفرنسية وفي مدارس إثنولوجية وأنثروبولوجية انطلقت من نقد المركزية الإثنية الغربية لترى حق الجماعات في ثقافاتها كجزء أساسي من شرعة حقوق الانسان.

لقد أعيد الاعتبار في الدراسة التاريخية للحضارات القديمة البائدة أو الكامنة (بيرانا، بروديل...)، كما نُظر إلى حياة الشعوب والأقوام والجماعات في الدراسة الإثنولوجية على أنها تعبير عن ثقافات معيشة، وبرزت مفاهيم «النسق الثقافي» و«المرجعية»، و«البراديغم» كمفاهيم ومداخل لفهم نسبية الثقافات «وجود الحضارات» وتحولات مناهج العلم والمعرفة. بل إن أصواتاً غربية ذهبت إلى مدى أبعد في ترشيح ثقافات وحضارات وفلسفات وأديان «شرقية» لتكون بدائل للحضارة الغربية أو مرجعيات مصححة لمسارها.

ظهرت في هذا السياق، ومنذ مطلع الستينات، أدبيات غربية كثيرة تتحدث فعلاً عن «الإسلام قوة عالمية متحركة» (للكاتب الألماني هربرت غوتشالك، عام ١٩٦٢). ومنذ

السبعينات ظهرت أدبيات غربية تبشيرية تراهن على مستقبل الإسلام الحضاري. وكان أكثرها ذيوعاً أدبيات روجيه غارودي المعروفة، بل إن النقد الابستمولوجي للعلم طاول حقل العلوم الفيزيائية والطبيعية، فبرزت نظريات نقدية للمنهج الديكارتي وفيزياء نيوتن والتقسيم الوضعاني للعلوم، واتهم البراديغم الغربي للعلم بالتجزيء والتفكيك. ومدت النظرية الفيزيائية الحديثة حول الكون هذه النظريات بمبررات اعتقادية حول وحدة الكون وعضويته. ودفع هذا المنطق أحد علماء الفيزياء المعاصرين إلى تثمين الفلسفة البوذية الشرقية من حيث نظرتها المتوازنة والمتكاملة إلى الانسان والكون والوجود.

ما نود أن نقوله هو أن هذه الأمثلة وغيرها تعبر عن احتمال تعددية التصور لدور الثقافات والحضارات والفلسفات في العالم. ولكن هذا التعدد يبقي أشكالاً من التمثلات والرؤى والتحليلات الذهنية التي لا علاقة لها بصدام أو صراع في ما بينها. إنها تعبير ـ وفي الحالات التي نعرض لها ـ عن سياقات في تحول العقليات الغربية ومن داخل معايشة أزمة الحضارة الغربية نفسها. أما أهل هذه الثقافة أو تلك، فلا يصادمون بعضهم بعضاً بسبب اختلاف ثقافتهم وحضارتهم وتصورهم للحياة والكون. وليس صحيحاً أن ثقافة أو حضارةً ما تحمل في داخلها عنفاً أو عدوانية كثقافة أو حضارة لجماعة من البشر، أللهم إلا إذا تلبست هذه الحضارة أو هذه الثقافة دولاً وإمبرطوريات وسياسات توسعية أو أنها شكلت، في المقابل، إطار حماية وممانعة في وجة سيطرة أو استتباع أو اقتلاع أو إفقار وتجويع أو اضطراب اجتماعي.

كان المؤرخ الفرنسي، فرناند بروديل، قد أشار في كتابه الشهير **المتوسط والعالم المتوسطي** إلى أنماطٍ من الحضارات الحية أو الكامنة في حوض المتوسط في فصل بعنوان لافت: «الحضارات: فردوس البشر وجحيمهم». يقول بروديل: «يحتوي المتوسط ثلاث حضارات هائلة وثلاث مجموعات ثقافية وثلاثة أنماط أساسية في الاعتقاد والتفكير والعيش والأخلاق والمأكل... متجسدة في ثلاث شخصيات لانهاية لأقدارها، وكانت دائماً قائمة منذ قرون وقرون، متجاوزةً حدودها وحدود الدول التي لا تشكل إلا لباساً لها... الحضارة الأولى هي الحضارة الغربية ـ وعلى الأصح اللاتينية أو الرومانية... الحضارة الثانية هي الحضارة العربية ـ الإسلامية. والغرب والإسلام يجمعهما تعارض عميق يقوم على التنافس والعداء والاقتباس. إنهما عدوان متكاملان، الأول ابتكر الصليبية وعاشها، فيما ابتكر الثاني الجهاد وعاشه. أما الحضاره الثالثة فهي الحضاره اليونانية التي لا تكشف اليوم عن وجهها بوضوح، بل تحافظ فقط على جوهرها».

غير أن إبـراز بروديل لهذا المستـوى الثابت والعميـق من التاريخ للحضـارات وقعرهـا الجغـرافي ـ التـاريخي يستدركـه في الكثير من المواضع بـالتشديـد على «تداخل الحضـارات»، أيضاً، والتحـولات والتغيرات التي تطرأ عليهـا: «الصليبية» مـن جهة، «والجهاد» مـن جهة ثانية، حالتان تاريخيتان نسبيتان لوظيفة «الحس الديني» لاتدخلان في الثابت إلا لتغييره ببطء شديـد، «فكما تداخل الحركة الثبـات وتلازمـه، فإن كلاً منهما يُفسر الآخر ويكملـه». هكذا تخترق الحركة كل ثبات. يقول بروديل: «وفي المتوسط، كل شيء كان عرضة للتبادل والانتقال والاستعارة، من الناس إلى الأفكار وأنماط العيش والمعتقدات وأساليب الحب وأشكال السكن والأخلاق والمآكل».

والفصول الرائعـة التي يعقدها بروديل في كتابـه عن «الاقتصادات والتجارة والنقل»، وعن صعود الإمبراطوريـات وانهيارها، وعن «المجتمعات وصراعاتها المقنعة» تُـرينا كم كانت واسعـة في حينه (القـرنين الخامس عشر والسـادس عشر) عمليـات التداخل بين الفضـاءات الحضارية والثقافية في المجال الجغرافي ـ الحضاري الذي درسه (مجال البحر والسفينة في حوض المتـوسط)، فكيف بنا اليـوم مع عالم الثـورة المعلومـاتية وتحول العـالم إلى سوق ومجال إعـلامي واحد؟

واللافت في دراسة بروديل أن هـذا الأخير لم يسم «الصراعات والصدامات التي نشبت في الحقبة التي درسهـا صراعاً أو صداماً بين حضارات، وإن شدد على دور «الحس الديني» في بروز الإمبراطوريات والدول الكبرى آنذاك (الصليبية والجهاد).

إن الصـدامات والحروب تبقى في أبعـادهـا العميقة، وفي المستـوى الذي تحدث عنـه بروديـل، نزاعـات تتحكم فيها مصـالح الدول والتجـارة والطرق ومصـادر الثروة والتـوترات الاجتماعية. فما قام به ملوك أوروبا بعد حرب المئة عام، مثلاً، كان، في رأيه، «صدوعاً لإرادة برجوازيات المدن البـاحثة عن استتباب السلام الضروري لازدهار تجارتها». وأما الحروب داخل الـدول والمدن والمناطق في حـوض المتـوسط «فتختلط فيهـا الحروب الدينيـة بحروب الفقـراء وانتفاضاتهم... ففي كل مكان من المجتمعات المتوسطية انتشر العنف مقنعاً بأوجه سياسية واجتماعية واقتصادية: في نابولي والبندقية، كما في حلب والاسكندرية».

ليس الهدف من هـذه الاستعادة التـاريخية الاستنتـاج بأن التـاريخ يعيد نفسـه، أو أن الأزمنـة تتماثل، بل على العكس، إن الهدف هـو الاستـدلال على تنوع وتشـابك مستـويـات الأحداث و«الواقعات» في مرحلة التحولات والانعطافات الكبرى في التاريخ. فالقرن الخامس

عشر والسادس عشر اللذان درسهما بروديل دراسة معمقة، تأسيساً على الثوابت والمتغيرات في تاريخ العلاقات ما بين الحضارات، يشكلان مرحلة التأسيس لأوروبا الحديثة، ولكنهما يشكلان أيضاً، مرحلة التأسيس للعلاقة غير المتكافئة مع العالم الإسلامي والشرق إجمالاً، بعدما تغيرت أسس وطرق السيطرة على الجغرافيا ـ السياسية والاقتصادية في العالم، وبعدما ضعف نبض المتوسط لينتقل هذا النبض إلى عالم المحيطات.

لاشك في أن دور «الحس الديني» في الحضارة وفي الصراع وفي الحروب كان قائماً وفاعلاً. ولكن، وكما يُظهر تحليل المصالح وسياسات الدول والقوى الاقتصادية ومعطيات الجغرافيا ـ السياسية، فإن هذا الحس الديني يتدخل كعنصر «تغير» لا كعنصر «ثبات»؛ وعنصر تغير للحضارة نفسها ولتعبير هذا الحس على مستوى اللاهوت والعمل والسياسة والأخلاق. فكان المشروع الرأسمالي في الغرب نتاجاً لهذا التغيير. وكان ينبغي انتظار تطور أدوات ومفاهيم البحث التاريخي والاجتماعي حتى « تصبح هذه التحولات جزءاً من المعرفة التاريخية والوعي التاريخي، وكما نلاحظ لدى ماكس فيبر في إدراكه لدور الحس الديني في بروز التحولات الاقتصادية.

أما في الشرق الإسلامي، فقد غرق الحس الديني في فقه سلطاني لم يأبه للتحولات الحاصلة في العالم، لا من قريب ولا من بعيد. (وهذا موضوع للدراسة). وقد يكون التهميش الذي أصاب جغرافية العالم الإسلامي عبر تهميش المتوسط، مدخلاً لفهم غياب الوعي التاريخي للعلاقة اللامتكافئة في العالم، الأمر الذي أدى إلى نشوء رأسمالية توسعية تعتمد على الحروب والاكتساح والسيطرة والالحاق، وفي ظل مشروع حضاري عالمي تعددت تسمياته وتلويناته وشعاراته خلال القرنين الأخيرين بين التمدين والتحديث والتحويل الديموقراطي أخيراً. إلا أن هذا المشروع الحضاري كان، في كل الأحوال والمراحل، يعبر، صراحةً أو ضمناً، تشجيعاً أو إعاقة، عن مصالح القوى والدول الرأسمالية الصناعية المهيمنة على العالم. فكان منطق السوق والتسويق والتنافس على الأسواق يبتلع مجالات «التثاقف» وأقنية التفاعل الثقافي. وكل خير وجمال ونفع في مشروع الحضارة العالمية لايتوظف في عملية الاغتناء الثقافي والتلاقح الحضاري، بل في ثقافة الاستهلاك ومعاييرها الذوقية والقيمية الأحادية الجانب. هذه الثقافة الاستهلاكية التي كانت من جملة أسباب انهيار الإيديولوجيات الأحادية الشمولية شكلت أيضاً عنصر تخريب للثقافات المحلية في العالم، الأمر الذي ولّد في مرحلة التقاطع بين حركة الاستعمار ومعطيات المجتمعات المحلية (الجماعات الدينية والطائفية والقبلية والإثنية)، ولايزال يولد حتى الآن، بعداً أيديولوجياً سياسياً للثقافات والأديان في «العالم الثالث» و«عالم

الجنوب» اليوم؛ وهو بعد يختلط فيه الديني بالسياسي، والمقدس بالعصبيات والحزبيات الاجتماعية. ولعل هذا البعد كان في أساس بروز إيديولوجيات حركات التحرر الوطني وثقافات المقاومة والممانعة لدى المستعمَر. وكما تحدث عنها فانون في الستينات، وكما تعود اليوم فتبرز بشكل أكثر حدة في الحركات التي يدعوها الفكر الغربي الآن «أصوليات»، ويدعوها هانتنغتون بكثير من التسرع والخفة «حضارات».

إذا أضفنا إلى تركة الاستعمار وإلى ذاكرة الحرب الباردة وحركات التحرر الوطني والقومي ما استجد ويستجد الآن من انفجار وتفكك لتسويات سايكس ـ بيكو ولوزان ويالطا وللمشروع الصهيوني ولمشروع الوحدة العربية، ومن فراغ وهواجس ولدت في آسيا الوسطى وباكستان والهند وإيران وتركيا بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، ومن قلق نجم عن الانفجار السكاني والتباس العلاقة بين شمال وجنوب، بانت صورة لصراعات العالم مختلفة في أسبابها وتعبيراتها عن تلك الصورة المبسطة التي يقدمها هانتنغتون.

والواقع، إن الأشكال الصراعية التي يصفها هانتنغتون بالصدامات بين الحضارات، لا تعدو أشكالاً من الممانعات الثقافية وحركات الاحتجاج والرفض والحروب الأهلية الناتجة من عجز الحضارة الغربية عن أن تصبح عالمية مستوعبة لتنوع العالم، وذلك بسبب تطابقها مع مشروعها الرأسمالي، وتحولها إلى دعوات إيديولوجية لهذا المشروع واستدخالها لمنطقه في الربح والسيطرة والاستهلاك، وبالتالي، بسبب إعاقة هذا المشروع لخطط التنمية التي فشلت في بلدان الأطراف فشلاً ذريعاً، وتحولت في مظاهرها العالمية الغالبة إلى حضارة «صورة» «وسلعة» يتجاذبها تناوب المتعة والملل السريعين لدى الميسورين، والحقد والجوع والعنف لدى المحرومين.

إن ما لا يقوله خطاب «صدام الحضارات» المتأخر، هو أن انبعاث الثقافات الفرعية لحضارة قديمة كالحضارة الإسلامية ـ على سبيل المثال، هو صيغة من صيغ يقظة المغلوب الذي يلجأ إلى الذاكرة الجماعية الثقافية للإحتماء والإحتجاج والرفض، وأن الثقافة المقاومة أو المصادمة اليوم، والتي تصدر عن مخزون من الذاكرة الجماعية والمقدس الديني، ليست «حضارة» بالمفهوم الذي يعني أنساقاً فكرية وفلسفية وإبداعية وإنتاجاً للمعرفة على المستوى الانساني والعالمي، كما كان شأن الحضارة الإسلامية سابقاً، بل إنها نمط من ثقافة فرعية لحضارة أصبحت، في حال العرب والمسلمين، تراثاً وتاريخاً ومشروع استلهام حضارة إسلامية جديدة.

إن العرب والمسلمين، اليوم، لا ينتجون وسائل الحضارة الانسانية الحديثة ولا علومها

ولا فلسفتها. وأما العودة إلى معالم الحضارة الإسلامية إبان ازدهارها فهي عودة إلى التاريخ واسترجاعاً لذاكرة أو دراسة لمرحلة. وفي الحالتين، لا تملك «الحضارة الإسلامية»، بما هي تراث، دينامية التصادم مع الحضارة الغربية الحديثة. إن الشعوب الإسلامية تبحث عن مشروع حضاري جديد لا يمكن للإسلام إلا أن يكون في قلبه، ولا يمكن للمعطيات الحضارية العالمية إلا أن تكون مادة اقتباس وتوليف وهضم له.

إذن، ماذا نسمي كل هذه الصدامات في العالم التي يزهو هانتنغتون بتعدادها في مقدمة رده على مساجليه عبر إعطاء نماذج من عالم ما بعد «الحرب الباردة»؟

الواقع أن أمثلة هانتنغتون هي نماذج من تكوينات طائفية ـ دينية وإثنية وقبلية ـ كانت موجودة في عالم الحرب الباردة، بل في عالم ما قبل الحرب الباردة. ولنلاحظ أيضاً أن هذه التكوينات كانت جزءاً من نسيج اجتماعي ساد عوالم حضارية قديمة انتظمت في أطر من الجغرافيات السياسية والتاريخية: عالم الصين والهند والعالم الإسلامي ـ العثماني. ولنلاحظ أيضاً أن هذه التكوينات الثقافية لم تتحول إلى عناصر صدام إلا مع التفكك والتفكيك الذي حصل لها بفعل عوامل ذاتية وخارجية.

وإذ لا مجال في هذه العُجالة لدراسة هذه العوامل (ثمة دراسات تاريخية واجتماعية كثيرة متخصصة تطرقت إلى جوانب من هذا الموضوع)، نشير باختصار إلى أن عوامل التفكيك والتفكك جرت ببطء وخلال القرون الحديثة، وفي خطٍ تقاطع فيه الجمود الحضاري «الذاتي» (العوامل الداخلية) مع توسع الرأسماليات الغربية في العالم (العوامل الخارجية). فقد تحول العالم (غير الصناعي) تدريجاً إلى أطراف مجتمعية وثقافية واقتصادية تابعة. وما أن أطل القرن العشرون عبر حربه الأولى حتى كان النظام العالمي يتشكل في أطرافه (المستعمرات ومناطق النفوذ) عبر تفكيك مبرمج ومدروس وموظف لتلك التكوينات الثقافية والاجتماعية والإثنية، وفقاً لخطوط جيوسياسية ومراكز نفوذ ومصالح وطرقات وثروات واستتباعات ثقافية وسياسية للقوى المحلية من إثنيات وقوميات وقبائل وجماعات دينية وطائفية ومذهبية وعشائرية.

كل هذه العناصر سُميت في الخطاب الغربي منذ أواخر القرن التاسع عشر «خصوصيات ثقافية» (Particularismes Culturels)، ودخلت حقولاً وموضوعات في البحث الإثنولوجي والأنثروبولوجي، كما وُظفت في السياسات الغربية تجاه المجتمعات الأهلية، وفي إقامة الإدارات المحلية وبرامج الثقافة والتعليم. وإذا كانت هذه العناصر تنفجر الآن ـ في مرحلة ما بعد الحرب الباردة ـ فإنما يعبر انفجارها في الأمكنة التي تنفجر فيها عن ضيق وتوتر

ومخاوف وهواجس جماعية، ولعوامل كثيرة لا علاقة لها بالثقافة أو الحضارة أو الدين.

والأنسب أن نبحث عن هذه العوامل الآن في مناطق «الجنوب» لنجدها في أسباب الفقر وسوء توزيع الثروة والتكاثر الديموغرافي وانسداد أبواب الرزق والعمل والخلل في توزيع السلطة ودخول سلطة الدولة طرفاً في الصراعات الأهلية... كما أنه من المفيد أن نبحث عن هذه العوامل في مناطق «الشمال» لنجدها في تفاقم الأزمة الاقتصادية والبطالة المتزايدة والموزاييك الديموغرافي الداخلي بين «أصيل» و«وافد» وبين «وطني» و«أجنبي»، والهجرة المتصاعدة من مناطق الجنوب. ولعله بسبب هذا، يرتسم في المشهد الأوروبي صعود لأحزاب اليمين المتطرف، وعودة إلى صور شتى من العرقية والماضوية والأصولية والإيديولوجيات القومية ـ الشوفينية التي ترمي بمسؤولية الأزمة على «الآخر» المختلف، ثقافةً وعاداتٍ وأنماط حياة...

وربما لهذا كله، ترتسم في المشهد العالمي ألوان فاقعة من الاختلافات العرقية والدينية والإثنية والثقافية التي تتصادم في أماكن شتى من العالم. لا بأس من أن نبحث عن نعوت وخلفيات إصطلاحية لهذه الصدامات، ولكنها بالتأكيد لن تندرج في مصطلح «حضارات». وإذا كان لبعض تلك الصدامات، أو لها جميعاً، أبعاد في الاستراتيجيات والسياسات الإقليمية والدولية الكبرى، من حيث علاقتها كمادة وحقل بما يُسمى «إدارة الأزمات» في العلوم السياسية والاستراتيجية الأميركية، فلماذا نسمي هذه الصدامات «صدامات بين حضارات»؟

نخلص إلى القول إن عناصر الصدام التي يعددها هانتنغتون ليبني عليها فرضيته، لا تندرج في نسق ومفهوم «الحضارات»؛ إنها تعبير عن أزمة نظام عالمي يمر في «النقطة الحرجة» التي تجعل منه، على حد ما يقوله الباحث الفرنسي في الاستراتيجيا، بيار لولوش (Pierre Lel-louche)، «فوضى الأمم»؛ وإن ما يقترحه هانتنغتون بصيغة الدعوة إلى تعايش الحضارات واحتواء أسباب انفجارها، هو نوع من سياسة «إدارة الأزمات» في «كوكب الفقراء» الذي تنفجر فيه الديموغرافيا والثقافات (التي يمتزج فيها الديني والسياسي). وأما عن دور مقالته (الجديدة ـ القديمة) فهو نوع من إدارة للنقاش الفكري والثقافي ومحورته حول «مركزية الخطاب الاستراتيجي» الأميركي. إنه، أيضاً، نوع من «إدارة الأزمة» من باب الفكر والثقافة، وفي انتظار «خطاب جديد» بعد أن ينتهي الدور الاستهلاكي لخطاب هانتنغتون، كما انتهى قبله خطاب فوكوياما.

الصراع العربي - الإسرائيلي
وصدام الحضارات

محجوب عمر



لم تكد تخفت حـدة الصراع الفكري الـذي ساد العـالم طوال القرن العشريـن، بل منذ منتصف التاسع عشر، في ما بين الإيديولوجيات الغربية، بسبب انهيار الإتحاد السوفياتي وكتلة الدول الاشتراكية وما تبع ذلك من إعلان هزيمة الأفكـار الشيوعية، حتى بدأت معركة أخرى يشهر فيها أطراف الصراع أسلحة يصنفونها هم وخصومهم بأنها أسلحة الحضارات.

والمتابع للدراسات والمقالات، بل والندوات والمؤتمرات الفكرية، يلاحظ بوضوح تكرار استعمال كلمـة «الحضارة»، وتصنيف الـدراسات والمقـالات، وحتى المواقف السياسيـة بهذا الإسم، أي نسبتها إلى حضارة ما. ويتحدث كثيرون عن المواجهات المقبلة في العالم ويتوقعون أنها ستكون مـواجهات بين حضارات. وزاد البعض الأمـر تفصيلاً فتحـدث عن كل حضارة على حدة، بل قسّم العالم جغرافياً خطوطاً طولية وعرضية على أساس حضاري، وتنبأ البعض الآخر بـانتصار الحضـارة الغربيـة التي تُنسب إلى ما يسمونـه الحضارة اليهـودية ــ المسيحية، ويتمنى آخـرون ألا تصل حـدة الصـدام بين «الحضـارات» إلى مـا بلغتـه في الماضي بين الأيديولوجيات أو الإقتصادات المتصارعة أو غيرها، وأن يكون الطريق تفاعلاً سلمياً حضارياً لا بديل منـه وطريقـاً قصيراً خاليـاً من الآلام أو على الأقل يمكن اجتيازه بأقل قـدر ممكن من الشقاء الانساني.

*****

ضبط المصطلح

وعلى الـرغم من عدم الاتفـاق حتى الآن على معنى كلمـة «حضارة» بـاللغـة العربيـة والاختلاف البيّن عند ترجمة الكلمات المقابلة من اللغة الانكليزية أو الفرنسية، فإن كل ما كتب حتى الآن ونشر متفق على أن «الحضارة» مرتبطـة ارتباطاً وثيقاً بالدين أو العقيـدة الدينية، وأن

صدام الحضـارات المتوقع سيكون على الأرجح بين «الإسـلام» من ناحية، والحضارة الغـربية ـ المسيحية (وأحياناً تضاف اليهودية) من ناحية أخرى.

والجدل حول صـدام الحضارات وحـروبها بدأ منـذ سنوات قليلـة (بعد انهيـار الإتحاد السوفياتي) ببطء وبشكل متناثر، ثم أخذ يتسارع حتى نشرت فصلية Foreign Affairs الأميركية (صيف ١٩٩٣ ـ مجلـد ٧٢ ـ عدد ٣) المقالـــة التي أصبحت من أشهر المقـالات والتي كتبها صامويل ب. هانتنغتون بعنوان صدام الحضارات(Clash of Civilizations). وتوالت بعدها الـردود والتعقيبات والمقـالات والأوراق المشـابهة وحلقـات النقاش والنـدوات، وأصبح تعبير «صراع الحضارات» شـائعاً تكاد تنقسم فيـه نُخبة المفكـرين والسياسيين بين مؤيـد للفكرة أو منكر لها، وبينهما فريق يعترف بها ويقلل من خطرها.

رجَّحت مقالـة صمويل هانتنغتون المذكـورة جانباً في معركـة لغوية سابقـة حول كلمة حضارة في اللغة العربية. فعندما ترجمت كلمة Civilization بكلمة «حضارة» ثار سؤال حول معنى كلمـة "Culture" التي كـانت تترجم سـابقـاً بمعنى «حضـارة» وتترجم أحيـانـاً بمعنى «ثقـافـة». وبصرف النظر عـن معاني هـاتين الكلمتين، فإن الجدل الحالي يـدور حـول معنى الكلمة الأولى، أي Civilization. وكانت تترجم سابقاً بمعنى «مدنية».

وبالعودة إلى المعاجـم العربية، لن نجد كلمة حضارة في اللسان العـربي بالمعنى الذي نفهمه نحن الآن. وسنجدها في المعجم الوسيط الذي يذكر أن هذه الكلمة بمعناها الحالي هي من الكلمات التي أقرها المجمع اللغوي في مصر.

لقد أقر مجمع اللغة العربية في جمهورية مصر العربية كلمة «الحضارة» بمعنى «الحضارة ضد البـداوة، وهي مرحلة سـامية من مراحل التطور الإنسـاني. والحضارة هي مظاهـر الرقي العلمي والفني والأدبي والإجتماعـي في الحضر». وهـــو تعبير، على إيجازه، ذو بُعـــد تـــاريخي واجتماعي واضح (وتطـوري)، ولكنه لا يفيـد تماماً عنـد مناقشـة ما يجري الحديث عنـه الآن باعتباره «صداماً» أو «تفاعلاً» بين «الحضارات».

أما كلمة «ثقافة» التي شاع استعمالها سابقاً بهذا المعنى وبمعنى الحضارة، فهي لا تزال تستعمل في الكتابـات والمحاورات حول الموضوع، ولكن أصحـابها يجدون أنفسهـم مضطرين إلى التعريف بالمعنى كلما ذكروها. والسبيل الأفضل هو تقديم تعريف لمعنى الكلمة المستعملة قبل الـدخول في الموضـوع. وهو أسلـوب يشيع الآن أكثـر فأكثر مع ازديـاد التفاعل الفكـري واللغـوي حتـى اتفق الكثيرون على أن تكـون نقطـة البـدء في أي حلقـة نقـاش هي «ضبط

المصطلح».

في الخطاب العـربي تكاد كلمتا الثقـافة والحضارة تتطـابقان. البعض ينسب الأولى إلى الثانية، والبعض الآخر ينسب الثانية إلى الأولى، وكلاهما يتفقان على أن الثقافة / الحضارة هي إرث اجتماعي ومحصلـة للنشـاط المعنوي والمادي للمجتمع تـراكم عبر مئـات السنين. كما أن الشق المعنوي يتكون من حصيلة الإنتاج الذهني والفكري والفني والأدبي والقيمي، والمفاهيم والنظم وسلم القيم والحس الجمالي، وتجسد كل ذلـك في رموز وأفكار تتـوارث وتشيع متخطية كل التمايزات داخل المجموعة البشرية المعنية التي تنتسب إلى هذه الحضارة / الثقافة.

ويُلاحظ من ذلك أن تعبير المدنيـة، وإن كان يستعمل الآن بـدلاً من تعبير الحضارة، لا يغطي التعـريف بالهويـة التاريخيـة للمجموعـة البشرية، وهـو ما تفعلـه الحضارة. كما أن تعريف المدنية نفسه خاضع بالضرورة في تشكيله ومحتواه للإرث الاجتماعي المشترك للمجموعة البشرية المعيَّنة والذي يوصف بأنه الثقافة/ الحضارة.

وعلى أي حال، فإن الشائع الآن، وخصـوصاً بعد مقالة صمـويل هانتنغتون الأخيرة، هو استعمال كلمة «حضارة» عوض كلمة «مـدنية» أو كلاهما معاً، بينما يتراجع استعمال كلمة «ثقـافة» نظـراً إلى استعمالها أحيـانـاً كتعبير عن وعي وإدراك وإنتاج فئـة معينـة من المجتمع، بحيث يقال ثقافـة العمال أو ثقافة الفلاحين أو ثقافة العسكر أو ثقـافة... كذا، فيما تشمل كلمـة حضـارة أو كلمـة مـدنيـة المجتمع أو المجمـوعـة البشريـة بكل فئـاتها، وتجمع سمات «ثقافاتها» المشتركة.

الحضارة ظاهرة ثابتة نسبياً

وبقـــراءة التـاريخ، ولضرورة تنظيم النقـاش والبحث بل الصراع، يتم التمييـز بين الحضـارات التي سادت ولا تـزال موجـودة في المجتمع العالمي. وقـد يجري حوار بين أطـراف يتبنون مواقف معينـة وينسبون أنفسهم إلى هذه الحضارة أو تلك، أو يقـرأ البعض التاريخ من زاويـة حركـة «هذه الحضـارات» وصراعهـا في ما بينهـا. ومع أن كل الظـواهر تتحـرك وتتغير وتتبدل، فإن ظاهرة «الحضارة» هي أقلها حـركةوتبدلاً وتغيراً، ولعلها لهذا السبب تعد حاضنة لتاريخ مجمـوعة بشرية مميزة ولأفعـالها أيضاً، وهي التي تعطي سلوك المجمـوعة طابعه وتـوفر بشيوعها بين من يحملـونها أو ينتسبون إليها الشعور بالجماعية، ومن ثم تـوفِّر الأساس العام لما يُسمى في الكتـابـات الحديثـة الاجماع الـوطني أو القـومي (Consensus). ومـع ذلك، فـإن

البعض، عندما يتحدث عن صراع الحضارات، يعتمد مقاييس متغيرة وموقتة كأن يقول «هُزمت الحضارة» أو «انتصرت الحضارة» أو «تخلفت الحضارة» أو «تقدمت الحضارة»، وينسب ذلك بالطبع إلى جماعته البشرية التي ينتمي إليها راضياً أو كارهاً.

الحضارات لا تهزم في المعارك أبداً. فأي معركة هي لحظات موقتة في مجرى تاريخي طويل، وهي بحكم ذلك لا يمكن أن تستعمل في وصف أو في قياس ظاهرة يتفق الجميع ـ على الرغم من اختلاف التعريفات بشكل أو آخر ـ على أنها ظاهرة تاريخية، بمعنى أنها ذات استمرار تاريخي. والذين يُهزمون هم أبناء الحضارات؛ وهؤلاء قد يشكلون جيلاً أو أكثر. ولكن ذلك لا يعني أبداً أن الحضارة، بمكانتها المعنوية في تشكيل البشر، هي التي تهزم أو تتراجع، بل على العكس ربما أدت هزيمة أبناء حضارة ما إلى استفزاز الأجيال التالية لهم لجلاء وجه حضارتهم والاستنجاد بها.

الحضارات قد تندثر وتنشأ وتنضج وتشيخ، وتلك عملية تاريخية طويلة جداً؛ ومنذ بدأ تسجيل التاريخ بالتقويم الميلادي، لا يذكر أحد أن حضارة ما قد اندثرت تماماً. وإنما يتفق الجميع على أن الحضارات التي نتحدث عنها الآن هي امتداد لحضارات سابقة، وأن هذا الإمتداد نفسه قد تم بشكل تدريجي من دون انقلاب إلا في حالات الكوارث الكونية، وهو تفسير يحتاج إلى دليل عبر مسار طويل من البناء والكوارث والتكاثر والإبادة والحروب والتفاعل، وفي زمن لم يكن العالم موحداً بوسائط انتقاله كما هو موحد الآن. وفي القرن الحالي تجدد ذكر حضارات صغيرة كان يعتقد أنها انتهت ولم يبق منها إلا آثار حية في مجموعات بشرية متناثرة. وتبين أن ثورة الإتصالات التي تعم العالم كله الآن توفر للحضارات ولأبنائها فرصاً لم تكن متوافرة في الماضي للإستمرار والتطور، وبالطبع للتفاعل مع غيرها.

وترجع أهمية التمييز بين «الحضارة» كحاضنة تكاد أن تكون غير متغيرة بالنسبة إلى ما تضمه من مكونات متغيرة، وبين هذه المكونات المتغيرة كالأفكار السياسية وغير السياسية والمواقف السياسية وغير السياسية بل والإنتاج الأدبي والفني، ناهيك بالأفعال والنشاطات الإنتاجية والهدامة، وكلها من نشاطات الانسان التي يمكن تحديد بدايتها ونهاياتها وحساب حركاتها وتوقعها. . . ترجع هذه الأهمية إلى تجنب الوقوع في الخطأ الشائع الآن واستعمال «الحضارة» كطرف مباشر في نزاع واعٍ، مقصود ومدبر ومخطط، أو حتى عفوي وعشوائي.

ففي خضم الصراعات ذات الأسباب المادية نجد البعض ينسب إلى حضارة ما أنها هي مصدر هذا الشر أو العدوان، كأن يُقال تلك حضارة عنيفة بطبيعتها (وهو ما يقال عن

الإسلام من جـانب الكثيرين). ولن يُعدم القـائلون بـذلك ادلة وبـراهين يقدمهـا أبناء تلك الحضارة، ولكنهم عندما يتحدثون، ينسبون ذلك إلى جوهر الحضارة وليس إلى موقف أبنائها. وتلك مشكلة يـواجهها المسلمون الآن في العـالم أجمع، وبخاصة عنـدما تقدم وسـائل الإعلام العـالمي أفعالاً يقـوم بها مسلمون بـاعتبارهـا أفعـالاً «إسلاميـة». ومن المؤسف أن أفرقـاء من المسلمين يساعـدون في ذلك ويوفرون رمـوزاً مرئية وأفعـالاً محسوسة ينقض عليهـا مفكرون من حضارات أخـرى، ولاسيما الحضارة المسيحية الغـربية، لإثبـات مقولة إن الإسـلام والحضارة الإسلاميـة حضارة مولدة للعنف وغير متسـامحة في جوهرهـا، مع أن ذلك لا يمكن أن يكون صحيحاً، ليس لأن الإسـلام على غير ما يقـولون فحسب، بل لأن جميع الحضـارات والأديان هي بحكم التعريف «متسامحة»، وإلا ما كانت لتدوم آلاف السنين. ولا ينفي ذلك أن الأديان والحضارات كافة تعرف الفرق المتطرفة على جـانبي أفكارها، فإن كان بين أبناء الدين متطرفون عنفاً، فإن فيهم من هم متطرفون سلامـاً، لأن البشر يعيشون في الوسط؛ والحضارات تستمر في هذا الوسط الذي هو، كما جاء في التعـريف الأول، محصلة للنشاطات البشرية، والمحصلة أصلُها مواقف وآراء مختلفة تتفاعل وتتصارع لتبني هذه المحصلة.

معنى ذلك أنـه ما من فعل انسـاني، أياً كـان تقـويمه من هـذه الزاويـة أو تلك، إلا ويحمل طابعـاً حضارياً بحكم انتسـاب القائم بـه إلى هذه الحضارة. والمشكلـة عند المؤرخين والمفسرين الذين يشددون أحياناً على هذا العامـل أو ذاك ولا يذكرون ـ وربما لـــم يكن ذلك ضرورياً ـ الطابـــع الحضاري لهذا العامل، على الرغم مـن وجوده وتأثيره في كل لحظة. ولعل الإتفـاق شبـه الجماعي بين القـائلين بأن صـدام الحضارات في الغـرب ظهـر بعـد فشل عصر الإيديـولوجيـات، فيه إقرار ضمني بتغـافل قراءة أثـر الحضارة في كل نشـاط إنساني في عصر الإيديولوجيات ذاك.

لقد تعـود الكتّاب والمفكـرون والسياسيون لعقـود طويلة أن يتحـدثوا عن النشـاطات والأفعال دون أن يبينـوا هوية هذه النشـاطات والأفعال الحضاريـة. حتى الحروب وتكتيكاتها واستراتيجياتها والسياسات لم تبد لفترة طـويلة أي اهتمام بهذا الجانب. ولعل المشكلة كانت رد فعل للمعركة الفكرية التي دارت قبل الحرب العالمية الثانية وأثناءها وبعدها، ولخوف المفكرين من الإتهام بـالعرقيـة والعنصرية والتعصب الـديني إذا مـا قارنـوا بين هذا الفعل السيـاسي أو العسكري أو الإقتصـادي وبين هوية القائمين بـه. ولكن هذه الهوية الحاكمة كـانت ولا تزال مـوجـودة. ولا يعني عـدم الحديث عنهـا أنـه لم يكـن لها دور. صحيح أن قسماً كبيراً من الإستراتيجيات والتكتيكـات العسكرية كـان من منتجات الحضـارة الغربية ــ المسيحية (التي

يسميهـا البعض الآن الحضـارة اليهـودية ـ المسيحية الغـربيـة)، ولكن اعتماد هــذه الإستراتيجيات والتكتيكات كـان متأثراً على الدوام بهوية مستعمليهـا، وكان من حق البعض أن ينسب الهزيمة في حال وقوعها إلى اغفال الدور المعنوي للهوية الحضارية.

ولكن الحديث عن الحضارة / الثقافة ودورها في كل ما يفعله البشر، أفراداً وجماعات، ليس جديداً بالطبـع. فقد شهد القرن التاسع عشر والقرن العشرون (مرحلـة انتشار ما يُسمى الفكر العلمي المادي) تراجع دور الدين في ما يُنشر من أدبيـات سياسية وغيرها. وظهر ذلك في مدارس الفكـر السياسي الإستراتيجي التي تقيم نظريـاتها وخططها بحساب عوامل مـادية ملموسة.

كل الإنتاج الفكري والسياسي الخاص بـالصراع بين المجموعات البشرية على اختلاف تصنيفـاتها، كـان يتضمن، بدرجـة أو بأخـرى، حـديثـاً عن دور الحضـارة / الثقافـة، إمـا باعتبارها عامـلاً من العوامل تختلف درجة أهميته من مدرسة إلى مدرسة، أو بـاعتبارها عاملاً شاملاً يصبغ كل مـا عداه من عوامل ويتحكم فيها؛ والنوع الأخير من الكتابـات كان قليلاً، ولكنـه لم يكن غـائبـاً حتى عنـد الماديين الـواقعيين العمليين البراغماتيين. وعنـدمـا لم يستطع الواقعيـون الماديون، بمقاييسهم هم، تغافـل دور الحضارة / الثقافة، بل والـدين، اعتبروها إنتاجـاً بشرياً يشكل مـا أطلقوا عليـه «البناء الفـوقي»، ووضعوا لأنفسهم المقـاييس والمعايير والنظريات الخاصة بعـلاقة هذا البناء الفوقي بالبنـاء التحتي. وخصَّ أحدهم ممن لا يُنكرون ماديتهم الأمـر قائلاً: «إن الثقـافة/ الحضارة كإنتـاج مباشر أو غير مبـاشر للنظام الاجتماعي كله . . . هي في الوقت نفسه من مكوِّنات هذا النظام وليست مجرد إنتاج له».

ولكن ها هو القرن العشرين ينتهي ببروز دور الثقـافة / الحضارة في حساب صراعات القوى وفي تشكيل النظريات والخطط. ويتوافق ذلـك مع النهوض الديني العام في كل أنحاء العالم، ويؤثر فيـه ويتأثر به. ويمكن الدراسات المتأنية للأدبيات السيـاسية، وبخاصة تلك المتعلقة بالصراعات بين أطراف كبار (غرب) وأطراف صغار (شعوب ومستعمرات)، ملاحظة زيادة الدور المعطى للعامل الثقافي / الحضاري في كل هـذه الكتابات، وهو أمر مفهوم لكون أحـد أطراف الصراع (الأضعف) يعتمـد على جانب التعبئـة الجماهيريـة المعنويـة ضد طـرف مسلح بقوة مادية هائلة. ويمكن القول من دون مبالغة إن دور العامل المعنوي كان أساسياً في كل ما حققته الشعوب من انتصارات في معارك الاستقلال في نصف القرن الأخير.

ومع تـوالي هـزائم الغـرب في معـارك التحريـر والاستقـلال، وفي محاولـة لتفسير هـذه

الهزائم، طرح مفكرون واستراتيجيون غربيون مسألة العامل الحضاري في المواجهات والعلاقات الدولية. وقد ناقش أحدهم، وهو ديزموند بول، في مقال حديث له بعنوان «الإستراتيجية الحضارية في إقليم آسيا ـ الهادىء» ما سماه مفهوم «الإستراتيجية الحضارية» بالقول «إن مختلف البلدان والأقاليم تتعامل مع القضايا الأساسية في الحرب والسلم والإستراتيجية من منظور أو منظورات متميزة وعميقة الجذور تعكس أوضاعهم الجيوستراتيجية المختلفة ومواردهم وتاريخهم وخبراتهم العسكرية ومعتقداتهم السياسية. هذه العوامل تؤثر بعمق في طريقة تصور بلد ما لمصالحه وقيمه وحمايتها وتطويرها في ما يتعلق بالتهديد أو باستعمال القوة (. . .) والأهم أن مفهوم الإستراتيجية الحضارية قصد بها إخراج النظرية الإستراتيجية من داخل «الصندوق الأسود» للتمركز على الذات، ولتقديم وسيلة مفاهيمية لتجنب سوء الفهم في العلاقات الدولية، ولتحسين قدرة مؤسسات الأمن القومي على التواصل مع الآخرين أو التعامل معهم في ما يتعلق بالقضايا الأساسية الخاصة بالسلام والحرب. .». وإن مفهوم السياسة الحضارية يشير إلى «تعقيد المواقف والممارسات التي تعكس كلاً من التطور التاريخي لمجتمع ما وردود الفعل السيكولوجية للتغير الإجتماعي والعوامل السياسية الفاعلة في المجتمع»؛ هذه الثقافة / الحضارة تشكّلها مجموعة عوامل تاريخية عالمية، وبخاصة التواريخ القومية والسمات السيكولوجية للأفراد أنفسهم المتأثرين بالنمط العائلي الإجتماعي. وهي تحدد على نحو أكيد، وإن يكن غير مقرر، المطامح والمخاوف والأفضليات والعداوات والأولويات وتوقعات الشعوب عندما تواجه تحديات التغير الإجتماعي والسياسي، كما تحدد مواقفها تجاه مفاهيم السلطة والشرعية، وبالتأكيد تجاه مفهوم القوة نفسه»[1].

على الجانب الآخر، يُلاحظ أن معسكر التيارات القومية والدينية الذي اعتمد في برامجه وشعاراته على إعلاء جانب «الفكر» و«العقيدة» و«التراث»، أي جانب الحضارة / الثقافة، لم يتقدم كثيراً في تعميق دراسته في هذا الموضوع، وبخاصة في مجال انطباقه على أساليب إدارة الصراعات والنزاعات، وكذلك العلاقات في ما بين الجماعات أو الدول، بل إن بعضهم لا يزال عندما يحاول تحليل واقعه أو حاضره، يطبّق مناهج «مادية» بحت (كموازين القوى مثلاً) أو يهرب إلى الأمام نحو حتمية قدرية بالنصر من دون وضع الخطط اللازمة لتحقيقه.

ومع أن هذا الجيل من العرب والمسلمين شهد معارك ظافرة وتحولات كاملة لا يمكن أن

---

(١) أنظر: ديزموند، بول، «الاستراتيجية الحضارية في إقليم آسيا الهادىء» فصلية دراسات الأمن، خريف ١٩٩٣، مجلد ٣، عدد ١، لندن ١٩٩٣.

تفسرها العوامل المادية وحدها، إلا أن الدراسات التي تناولتها لم تفض إلى بلورة ما يمكن أن يسمى المفهوم الإستراتيجي الحضاري العربي ـ الإسلامي.

لقد عبر الجيش المصري أكبر حاجز مائي في التاريخ. وكان عبوره خلال ساعات معجزة بالمقاييس الغربية ذاتها. تعالت أصوات تستنكر أن ينسب هذا النصر الكبير إلى الدور المعنوي الذي أدته صيحة «الله أكبر»، مع أن جميع خبراء الإستراتيجية الآن باتوا يوافقون ويؤمنون بأهمية هذا العامل المعنوي. وفي المقابل، اكتفى المؤمنون بتفسير هذه المعجزة المادية تفسيراً غيبياً، فلم يتقدموا كثيراً للكشف عن أثر البعد الحضاري ودوره. كذلك حدث بالنسبة إلى الصراع العربي ـ الإسرائيلي عبر سنوات النضال الفلسطيني، وبخاصة في المرحلة السابقة للانتفاضة، عندما كان يتم التركيز على قيام مجموعات أو أفراد بالتسلل إلى الوطن المحتل والقيام بعمليات عسكرية. وكانت نسبة الشهداء بين الفدائيين الذين يقومون بهذه العمليات عالية جداً. ومن المعروف أنه، في تلك المرحلة، لم تكن التنظيمات والحركات الإسلامية قد تبنت بعد خطة الكفاح المسلح والعنف. ومع ذلك لا يمكن تصور أن فدائياً أو فدائية ذهب في «عملية» إلا ودافعه «الشهادة»، وهي كلمة لها عمق ديني ووجداني وحضاري ربما لا يُوجد في أي حضارة أخرى.

إن الإستشهاد بما له من معنى عقيدي عميق، كان ولا يزال أهم أسلحة المجاهدين الفلسطينيين والعرب ضد العدو الصهيوني الإسرائيلي، ولا يتصور إنكار هذا العامل، وإن لم ينل حظه في الكتابات السياسية. وفي أواخر الستينات وفي مرحلة شيوع الخطاب السياسي الماركسي والقومي المتأثر بالماركسية، لم يستغرب أحد أن «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» أو «الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين» لاحقاً، كانت تُصدِّر ملصقات الشهداء الخاصة بمناضليها في العمليات ضد العدو الصهيوني بالآية الكريمة «لا تحسبن الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون». وفي بعض الأحيان كانت هذه الآية الكريمة تتصدر ملصقاً لشهيد وتتضمن تصريحاً للأمين العام للجبهة وتحمل توقيع جورج حبش. ومع ذلك لم يحظ هذا الدور الشامل، بكل ما في داخله وتحت غطائه، بدراسات معمقة حتى الآن، وإلا لما كانت المفاجأة عندما بدأ مفكرو الغرب يتحدثون عن المواجهة مع الإسلام.

لا مفر من أن نعترف بأن اهتمامنا بالبُعد الحضاري في الصراع العربي ـ الإسرائيلي جاء كرد فعل أو كاستجابة لإهتمام الغرب بهذا البُعد المهم. وليس في ذلك عيب، وإن كانت له محاذيره ومخاوفه. والخوف أن يجرنا مفكرو الغرب إلى جدل يوقعنا في مأزق رد الفعل وفي موقف

الدفاع أو يستفزنـا لنندفع برد الفعل نحو حفرة عنصريته هـو. كما أن من محاذير الإنطلاق من رد الفعل استجـابة للتحـرك في الغـرب، أن نتأخـر طويـلاً قبل التقـدم بمشروعنا الحضـاري المستقبلي الناضج، ليس لبناء الذات فحسب، وإنما للتعامل مع الآخر أيضاً. وقد ضاع وقت طـويل في صراع داخلي «بين الحركـات القـوميـة» و«الحركات الـدينيـة»؛ وهي هنـا الحركـات الإسلامية. وبينما اندفع كل فريق إلى إثبـات خطأ الآخر، كان من الضروري والمفيد أن يبحث كل فريق عن نقطـة لقائه مع الآخر؛ ولو فعل ذلك من قبل، كما يحاولـون الآن، فلربما كانت النتائج على غير ما هي عليه الآن.

ها هـو القرن العشرون يقترب من نهايته ويشهد اتجاه «الماديين الـواقعيين» نحو الإهتمام بدور الثقـافة/ الحضارة، بل بـدور الدين مباشرة، في الـوقت الذي زاد إهتمام القوى المتـدينة المؤمنة بدراسة سُبل إدارة الصراعات وخططها وامتلاك مهاراتها.

ولكن في الجانب الآخر، يحمل هـذا التقارب في طياتـه مخاطر؛ فلا الماديون والـواقعيون على استعـداد للتخلي ببساطـة عن ماديتهم وأفكـارهم، ولا المتدينـون المؤمنون على استعـداد للقبول (بمنتج فكـري) سبق اتهامه طـويلاً بأنـه شر مطلق مصدَّر من الغـرب. ولعل المرحلة المقبلة ستشهد نتائج قد تكون مأسوية لهذا الصدام ـ الاحتكاك، إلا إذا تنبه العاملون من أجل التقدم إلى المخاطـر المصاحبة للتشديـد على الجانب الحضاري / الثقافي / الدينـي، وأخطرها الانزلاق إلى فخّ العنصرية والتعصب.

هل يمكن تجنب الصدام؟

الحديث عن «صدام الحضارات» يعني صدامـاً بين «أبناء هذه الحضارات». وبصرف النظر عن نتائج هذا الصدام، فإن الحضارات تستمـر وقد يتغير تأثير هذه النتائج في أبنائها، بل قد تتغير هذه النتـائج نفسها مع استمرار الصدام لأسباب خارجيـة وداخلية مجتمعة. وقد تتأثر صورة هذه الحضـارات حتى عند أبنائها أو عند الآخرين بهذه النتـائج. ولكن ما يتصوره هؤلاء أو الأبنـاء أنفسهم عن الحضارات هـو الذي يتغير وليس الحضـارات ذاتها، فهذه تظل محتفظة بعوامل تكوُّنها في جوهرها.

قد يمـر مجتمع ما بمرحلـة تفسخ أو مرحلـة ازدهار. ومن الطبيعي أن يتوحـد في هذه المرحلـة أبناء هـذا المجتمع مع هـذا التفسخ أو الإزدهـار، وكذلك مـع حضارتهم لتحمل مـا يحملون من صفـات تماماً كما يحدث بالنسبـة إلى الحضارة الإسلامية الآن، وينسبـه الأعداء إلى

العقيدة الإسلامية ذاتها. وتكون النتيجة ترسخ مفاهيم تُعطي هـذه الحضارة أو تلك صفات ليست فيها كـأن يقال إنها تحمل في باطنهـا عناصر التفسخ أو إنها تحمل في جـوهرهـا عناصر الإزدهار. فإذا كانت «الحضارة» في ذاتها لا تحارب، وإنما هي تطبع سلوك المحاربين وأفكارهم وأدواتهم، فإن فهمها ودراستهـا ضروريان عند قراءة «صراع» مـا لتكون هذه القراءة شـاملة، ليس للعـوامل الماديـة المشكلة لجانب القـوة عنـد الأطراف المتحـاربين فحسب، وإنما أيضـاً للعوامل المعنوية المحركة لهم والمفسرة لسلوكهم. وكذلك ستساعد القراءة الحضارية على توقع أفعال أطـراف الصراع. وعندمـا يُستعمل تعبير «الحضاري»، يجب أن يكـون ذلك في حدود إعلان التمايز (وليس التمييز) بين البشر على أساس من مكونات حضاراتهم سواء كانت الدين أو العرق أو اللون أو التكوين النفسي أو الإرث المشترك... وما إلى ذلك، علماً أن المحاولات المفتعلـة للتمييـز ستؤدي (أو هي تكشف) إلى مـوقف عنصري يبرر العـدوان والحرب ويفضي إليهما.

ومع ذلك يجب التسليم بـأن طيف الـوعـى البشري ليس «وسطـاً»، وأن هنـاك دائماً «جماعات» تعتقد أن لها دوراً «رسـالياً» في نشر حضارتها/ ثقافتها أو دينها. وعنـدما تعلن قوة أو جماعة أن لها دوراً «رسـالياً»، فإن ذلك يعني أنها ستسعـى لنشر رسالتها هـذه بكل سبيل، بالطرق السلمية، وإذا استطاعت بالقوة والعنف.

ولـو اقتصر الأمر على الـدعـوات الـدينية لهان الخطب. فـالأديـان عـامة، والإسـلام خاصة، دعـوة «رسالية»، وهي لا تنشر دعواتها «بالسيف»، وإنما بالموعظـة الحسنة والقدوة. ولا حاجة إلى التكذير بالآية الكريمة «لا إكراه في الدين».

والمشكلة أن بعض الجماعـات البشرية يعتبر أن «رسالته» هي نشر قيم اجتماعيـة معينة أو أيـديولـوجيـة معينة يعتبرهـا واجبـة التطبيق والشيوع في كل أنحـاء العـالم. كذلك كـانت الأيديولـوجيات الشيوعية، وكذلك أيضـاً ما قيل ويُقال عن القيم الليبرالية الغـربية والنموذج الغربي الرأسمالي ومـؤسساته. ولعل مفكراً مثل فرنسيس فوكـوياما عندما قال بنهـاية التاريخ باعتبار انهيار الشيوعية وانتصار الليبرالية الغربية، قد كشف بوضوح عن النوازع «الرسالية» في الدوائر القيادية الأميركية. وهو إن ذكر ذلك تنظيراً، فإن الإدارات الأميركية المتتالية تطبقها منذ زمن وتؤكدها في السنوات الأخيرة عندما تربط بين اتفـاقات المعونة والمبادلات التجارية وغيرها وبين تنفيذ القيم الغربية وتطبيقها، ولاسيما الأميركية منها، لا في المجال الإقتصادي فحسب، وإنما في مجال الحياة الإجتماعية أيضاً.

الحملات التي جاءت من الغرب إلى الشرق أثناء العصور الوسطى الأوروبية، إختارت شعار «الصليب» لغـزواتها. وبصرف النظر عن عـلاقة الـذين قامـوا بهذه الحملات بـالتدين الحقيقي المسيحي، وعن التفسيرات المتعددة التي قدمها معـاصرون ومؤرخون لهذه الحملات، فإنها دخلت التاريـخ باسم «الحملات الصليبيـة». ولم يكن للعرب والمسلمين عـامة ذنب في هذا الإسم ذي الظلال التعصبيـة والدينية المباشرة. فهؤلاء وصفوا الحمـلات وكتبوا عنها حتى وقت قـريب (إلى أن بـدأوا في تـرجمة مـا كُتب عنهـا في الغرب) بحمـلات «الفـرنجـة» وليس الحملات الصليبية. وكانوا مدركين بحكم الواقع المعاش، أن غزاتهم، وإن كانوا يرتدون رداء الصليب ويستعملون الرموز المسيحية، لم يحضروا إلى بلادنا لهذا السبب.

وعلى الـرغم من أن العـرب والمسلمين لم يستعملوا وصـف الصليبية قـديماً، فإن هـذا الوصف هو الذي شاع وانتشر ودخل حتى في لغـة الخطاب العربي ـ الإسلامي، بل إن بعض الفرق الإسـلامية وغير الإسـلامية الحديثة بين العـرب يحلو لها قراءة تـاريخها المعـاصر بإسقاط صـورة ذلك التـاريخ القـديم عليـه، مستعملـة الكلمـة المترجمة بمـدلـولاتها، أي كلمـة «الصليبية».

المثال السـابق يوضح مشكلة تعبير «صدام الحضـارات» وانتشاره الآن. فكما أن تعبير «الصليبية»، بمدلولاتـه التاريخية، هو تعبير غريب (مستورد) ولكنـه شاع وأصبح له تأثير في الفكر والحركة، كـذلك تعبير «صدام الحضارات» الوارد إلينا من الولايـات المتحدة الأميركية. ولن يمنع الإختـلاف حول هـذا التعبير من استعمالـه سـواء كغطاء لأعمال ذات دوافع أخـرى وتبريراً لها (إقتصـادية ــ توسعية ــ سياسية دوليـة أو غيرها) أو حتى كهـدف في ذاته، من أن يؤدي دوره في التأثير، وربما في اشعال صراعات وصدامات قد يقال إن القصد منها هو تغليب حضارة على أخرى أو ترويج قيم حضارة على حساب أخرى، بينما حقيقة الدوافع والقصد لا يذكرها أحد علانية.

لا بد إذن من التعامل مع هذا التعبير الـذي شاع وانتشر؛ وهو أيضاً يعترف في جانب منه اعترافاً إيجابياً بقصور الأفكار السياسية المعاصرة عندما استبعدت دور العامل الحضاري في التأثير والدفع سواء في البناء أو في الصراع. ولدينا في منطقتنا النموذج الواضح لهذه المشكلة.

لا يستطيع أحد أن ينكر أن الغرب إجمالاً يحاول منذ قرن تفتيت قوة العرب والمسلمين؛ وفي ذلك أدبيـات كثيرة من منطلقات مختلفـة. وطوال العقـود، بل القـرون السابقـة، لم يكن المفكرون الغربيون يُبرزون ما يحاولون إبـرازه الآن في شأن العامل الحضاري الإسلامي أو الديني

المباشر، وإنما كانوا يصدرون إلينا أشكالاً وقيماً ومؤسسات تستغل نقاط ضعف في داخلنا وتمهد لتسللهم وتغلغلهم؛ وهو ما تم بالعنف في نهاية الأمر.

وفي هذه المعركة المستمرة حتى الآن يصر مفكرو الغرب على وصف حضارتهم بأنها الحضارة المسيحية. وفي الأعوام الأخيرة استطاعت الحركة الصهيونية (واليهود بشكل عام) صوغ مقولة جديدة تدعي وجود «مثل يهودية ـ مسيحية» يعتبرونها الأساس لأفكار الغرب عن الليبرالية بشكل عام.

وفي هذه المرحلة يجد أبناء الحضارة الإسلامية (عرباً وغير عرب)، كما يجد أبناء الحضارات الأخرى غير المسيحية الغربية أنفسهم، في معركة مفروضة، وبلغة خطاب مفروض، ويا للأسف.

وسواء رغب العرب والمسلمون أو حاولوا تجنب خوض المواجهة من منطلقات حضارية / ثقافية صرفة، أو حتى من منطلق ديني عقيدي بحت لأي سبب ولأي دافع عند القائلين بذلك، فإن معركتهم مع الكيان الصهيوني المسمى إسرائيل، لا يمكن أن تغفل هذا العامل الحضاري / الثقافي / الديني الموجود على الدوام، وإن تراجع في ترتيبه وتأثيره من مرحلة إلى أخرى بالنسبة إلى العوامل المحركة للصراع (السياسية / الإقتصادية / الدولية/ . . . الخ.) كما حدث منذ بدء المشروع الصهيوني في مطلع القرن الحالي، أو كما تراجع بعد الحرب العالمية الثانية التي سادت فيها فكرة الدولة ـ الأمة وأصبحت وحداتها هي التي تشكل المجتمع الدولي والتي قامت فيها دولة إسرائيل؛ وهي خليط متناقض بين الدين والقومية، إذ اعتبرت الصهيونية «اليهودية» قومية شأنها شأن القوميات التي نشأت في أوروبا أواخر القرن الماضي، وصاغت مشروعها على هذا الأساس وقدمته للعالم. ووجد العرب أنفسهم يخوضون المعركة دفاعاً عن فلسطين في إطار «صراع القوميات» ـ عروبة ضد صهيونية ـ وتراجع ذكر الإسلام و«صفة» الإسلامية مع إنهيار الدولة العثمانية.

الصراع العربي ـ الإسرائيلي يكاد أن يصل الآن إلى مرحلته النهائية لأسباب دولية وإقليمية ومحلية عدة، وهو بكل تأكيد سيبرز وجهه الأساسي الحاكم والشامل، وسيظهر كصراع للحضارة العربية الإسلامية ضد غزوة حضارية غربية يهودية ـ مسيحية. وبقدر ما يكون العرب والمسلمون، والفلسطينيون بالطبع، أصحاب مشروع مبادر للمستقبل ورؤية دينية وحضارية صحيحة ترفض التعصب والإنكفاء، تقل خسارتهم، وبخاصة التأثر السلبي بقيم الحضارة الغازية، وتتعاظم مكاسبهم، وبخاصة في احتواء الجماعات البشرية

التي جاءت بها هذه الغزوة من بعيد.

أما القول بإمكان «تجنب» الصدام، فضلاً عن القول بانتهاء الصراع العربي ـ الإسرائيلي، فإن مفكري الغرب وقياداته، ومفكري إسرائيل وقادتها أنفسهم لا يقولون بذلك، وهم يرتبون خطواتهم وخططهم على هذا الأساس.

الصدام الحضاري مفروض على العرب والمسلمين، كما هو مفروض على جميع أبناء الحضارات الأخرى غير الغربية (اليهودية/ المسيحية)، وهو صدام مباشر في منطقتنا ما دامت أرض فلسطين ومدينة القدس الشريف، بما لها من مقام ديني وحضاري، محتلة من هذه المجموعات البشرية التي تقدم نفسها باعتبارها قاعدة الحضارة الغربية في الشرق.

إن «الصدام» مفروض علينا، وهم يسمونه ويقرأونه «صداماً بين الحضارات» مع أنه صدام بين أبناء هذه الحضارات. ويجب أن نذكر ذلك باستمرار، وإن قبلنا تسهيلاً ـ وحذراً أيضاً ـ تعبير صدام الحضارات.

استمرار الصراع العربي ـ الإسرائيلي

لم تمر مقولة صمويل هانتنغتون عن صراع الحضارات من دون تعليقات وردود ما زالت مستمرة. وقد خصصت فصلية *Foreign Affairs* (مجلد ٧٢ عدد ٥/ ١٩٩٣) ملفاً آخر في عدد تالٍ لأهم هذه التعليقات التي وصلتها؛ وفيها يلاحظ القارىء تمسك المعارضين لفكرة هانتنغتون ببقايا الأفكار القديمة (المادية وحدها).

المهم أن هانتنغتون عندما رد على منتقديه طرح سؤالاً آخر، وهو: إذا لم يكن هذا الذي يحدث صداماً بين الحضارات فماذا يكون إذن؟ وعندما تناول حجة أحد منتقديه بأن توقيع إعلان المبادىء الخاص بغزة وأريحا هو دليل على خطأ مقولته عن صدام الحضارات، أجاب: «يمكن المحاجة مثلاً بأن الاتفاق بين منظمة التحرير الفلسطينية والحكومة الإسرائيلية في شأن قطاع غزة وأريحا، يمثل شذوذاً مثيراً عن النموذج الحضاري، وهو كذلك بمعنى ما. بيد أن هذا الحدث لا يبطل صحة النهج الحضاري: فهو مهم من الناحية التاريخية على وجه التحديد لأنه تم بين مجموعتين من حضارتين مختلفتين ظلتا تتحاربان لما يزيد عن أربعة عقود. وتعد الهدنات والاتفاقات المحدودة جزءاً من الصدامات بين الحضارات، مثلما كانت اتفاقية الحد من الأسلحة السوفياتية ـ الأميركية جزءاً من الحرب الباردة. وفي حين أن النزاع بين اليهود والعرب قد يمكن تطويقه، فإنه سيظل مستمراً».

والمثير لـلانتباه والـدهشـة أن وزير الخارجيـة الأميركي وارن كـريستـوفر قـد نطق بهذه الكلمات تقريباً في احتفال ٤/ ٥/ ١٩٩٤ لتوقيع اتفاق تنفيذ إعلان المبادىء (غزة ـ أريحا)، إذ قال «نحن لن نصل إلى نهايـة الصراع في الشرق الأوسط ولكننا نغير شكلـه . فنحن نتجه الآن إلى المنطقـة التي كانت القـوة فيها هي العـامل الأساسي، أمـا الآن، فالكلمـة هي العنصر» . والكلمة كما هـو معروف، هي لسـان الحضارة وسلاحهـا أيضاً . فإذا كـانت الرؤيـة الأميركية والإسرائيلية هي خوض الصراع في المرحلة المقبلة من دون «قـوة» (يقصد عنفاً بالطبع) فإن كل المعارك على الساحات الأخـرى تحتاج إلى «الكلمة» سواء كانت ساحـات التعامل التجاري أو المالي أو الأدبي أو السياحي أو ما شابه من قطاعات مجتمع المعلومات والمال الذي تعد إسرائيل نفسها لتكون هي الأولى فيه في منطقتنا .

ولعل هذه الإشارات القـادمة من الولايات المتحـدة الأميركية تنبه إلى ضرورة الإسراع في إعادة النظر ـ وتجديد ـ الأدبيات العربية حول الصراع العربي ـ الإسرائيلي .

لا بد من الإعتراف بأنه على الرغم من وضوح الوجه الحضاري / الثقافي / العقيدي في الصراع العربي ـ الإسرائيلي كله، فإن الكتابات والدراسـات العربية التي تناولت ظاهرة الكيان الصهيـوني، أي دولـة إسرائيل، وقعت (كما وقعت الكتـابات عن المعسكـر العـربي) في خطأ التجريد الكلي الذي يشمل الظاهرة ويبسطها من دون ملاحظة التنوعات في داخلها . ولم يكن أحد ليلتفت كثيراً إلى كتابات «يهودية» (أي كتَّابها من أبناء العقيدة اليهودية) رفضت فكرة قيام دولـة يهودية وبينت زيف الإدعـاء بأن هنـاك حضارة يهوديـة تضم اليهود جميعـاً، أو إلى تلك الكتابات التي كشفت منذ البداية عن الخلافـات العرقية والدينية العميقة داخل هذا التجمع البشري الذي تجمع بالقوة والإغراء على أرض فلسطين من أنحاء عدة من العالم .

وفي السنوات الأخيرة، وبعدما برز بوضوح التناقض بين اليهود الغربيين (الأشكنازيم) واليهـود الشرقيين (السفارديم)، بـدأت بعض الجهـود الفكريـة والعمليـة للتعامل مع هـذا الصراع . ومع ذلك لا يمكن القـول إن الجانب العـربي والمسلم بشكل عـام قـد استقـر على ضرورة التعامل مع الظاهرة الإسرائيلية واضعاً في اعتباره تركيبها الفسيفسائي .

في المقابل، كان منظرو الحركة الصهيونيـة ومنظرون إسرائيليون ويهود آخرون وسياسيون يجهـدون لبلـورة مـا يمكن أن يسمى القـوميـة الإسرائيليـة، وذلك في محاولـة لمواجهـة احتمال الإندماج في المنطقة الشرق أوسطية، فتكون إسرائيل دولة ـ أمة من دون أن يؤدي ذلك إلى إثارة الاحتكاكات الـدينية، إذا أصر أصحابها على تقديمها بـاعتبارها دولة يهوديـة دينية، وكذلك

لتجنب مشكلة الولاء المزدوج التي يـواجهها اليهود الذين لم يأتـوا إلى فلسطين وفضلوا البقاء في أوطانهم الأصلية أو الذهاب إلى بلاد غربية والتجنس بجنسيتها.

يطرح هـؤلاء منذ سنوات فكـرة القومية الإسرائيليـة. ويدعي بعضهم أن هنـاك براعم لثقافة إسرائيلية خاصة، ويحاول تقديم بعض الإنتاج الأدبي والفني باعتباره إنتاجاً إسرائيلياً له مميـزات خاصـة شأنه شأن الإنتـاج الأدبي والفني في البلاد الأخـرى ذات الأغلبية المسلمـة أو المسيحية، ولكنها تتميز بهوية وطنية مستقلة (وليس بمجرد طابع يهودي ثقافي).

هـذه المحاولات جميعـاً محكـوم عليها بـالفشل. فقـد كانت إقـامـة الكيان الصهيـوني (إسرائيل) عملاً مصطنعـاً ترفضه فطـرة البشر. ومنذ البداية وقع هـذا الكيان أسير توصيفـاته السياسية المقصودة. فهو دولة عبرية يهودية وتجسيـد للقومية اليهودية (!!) تقام على النموذج الأوروبي (دولة ـ أمـة). ومنذ البداية رفض المتـدينون اليهود هذه الفكـرة، وإن غيروا مواقفهم بعد إعلان قيام الـدولة لاعتبارات نفعية أو خوفاً. وحتى الآن تـرفض غالبية اليهود المجيء إلى فلسطين إلا تحت ضغوط قاهرة. ولا تزيد نسبة الذين جاءوا بدافع ديني على العُشر.

أمـا عن احتمال تطـور «قـوميـة إسرائيليـة»، ومـن ثم الحديث عن حضـارة / ثقـافـة إسرائيلية، فذلك أمر مستحيل، ليس بسبب عوامل التصارع على مستوى العالم والتفاعل مع المحيط فحسب، وإنما لعـدم وجـود مكـونـات متسقـة داخل الكيـان الصهيـوني من شأنها الاندماج في ما بينها وإفراز هوية إسرائيلية «تاريخية» حية.

سيظل هناك بـالطبع من يحمل الجنسية الإسرائيلية قـانوناً. وقـد يستمر ذلك عشرات السنين، ولكن مستقبل التجمع البشري الإسرائيلي هو إلى مزيد من التفتت والتنازع الحضاري / الثقـافي بين مكونـاته البشريـة، وهو أمـر توضحـه الدراسـات المفصلة لهذا التجمع إذا مـا درست مكوناته من منظار تاريخي حضاري / ثقافي.

وأبرز الأمثلة على ذلك دور اللغة العبرية في تشكيل ذلك التجمع. لقد نجحت الحركة الصهيونية في إخـراج اللغة العبرية من داخل مراسيم الصلاة وطقوسهـا ونشرتها بين قطاعات واسعة من اليهود في العالم (الذين يستعملونها في مـا بينهم، وبخاصة في المعابد). ولكن حتى هذا «الإنجاز» محكوم بالفشل إذا كان المطلوب إسرائيلياً الإندماج في المنطقة التي تغرق كلياً في بحر اللغة العربية.

المهم أنه عند دراسة سبل المواجهة مع هذا الكيان المصطنع الدخيل لا بد من استعمال المنظار الحضاري / التاريخي وعدم التسرع بالتسليم أمام أرقام وموازين لقوى مادية تبدو فائقة

القوة والثبات، بينما هي تفتقد الجذور من التاريخ والجغرافيا، بل الحضارة.

لقد ردد المفكرون العرب كثيراً، ومن ورائهم السياسيون، مقولة صحيحة هي أن دولة إسرائيل هي القاعدة المتقدمة للغرب الإمبريالي الإستعماري، وقد تم التعامل معها طوال العقود الماضية من هذا المنطلق، فتحولت المعارك إلى معارك من أجل الاستقلال والتحرر.

ولعل الوقت قد حان بالفعل للسير بهذه المقولة الصحيحة حتى نهاياتها التاريخية والمستقبلية وإعطائها صفتها الحضارية. ففي المرحلة المقبلة ستؤدي دولة إسرائيل بالفعل دور المخفر الأمامي للحضارة الغربية السائدة الآن والتي يسعى أصحابها لفرضها على العالم كله.

وليس من المبالغة إعلان التفاؤل بهزيمة المحاولات الصهيونية المقبلة. فالواقع أن التفاعل اليومي (حتى في ظل ما يُسمى التطبيع) يشير إلى هزيمة المجتمع الإسرائيلي البشري كله الذي ستفصل قطاعات منه الإلتحاق مرة أخرى بالمحيط العربي ـ الإسلامي، وقد تبقى قطاعات «أجنبية» سيعاملها هذا المحيط كما يعامل كل تدخل أجنبي، مع التأكيد أنها ستكون أقلية عددية لا يمكن أن تتفوق بأي حال.

وفي صدام الحضارات قد لا تذوب مجموعة بشرية ذات حضارة مختلفة، وقد لا تندثر، ولكنها على أي حال لا يمكن أن تكون الأعلى والأكثر تفوقاً، وإنما تكون الغلبة للحضارة الأقوى والأكبر والأكثر عدداً والتي تراهن الأقليات عندئذ على سماحتها.

وليس الصراع العربي ــ الإسرائيلي هــو عملية التسوية القائمة الآن. بل إن عملية التسوية هي مجرد حلقة أو مرحلة يمر بها هذا الصراع الممتد منذ ما يقرب من قرن والذي اتخذ أشكالاً عدة، وسيتخذ أيضاً أشكالاً عدة في المستقبل. وتصور أن عملية التسوية الجارية تحتوي هذا الصراع بكل أبعاده، هو خطأ فادح في الرؤية الفكرية والسياسية، وهو انزلاق للنهج البراغماتي الأميركي، الذي يتعامل مع الواقع المباشر من دون اعتبار لأثر الماضي الذي أحدثه، وتأثير ذلك في مستقبله.

لا يمكن فهم الصراع العربي ـ الإسرائيلي بهذه المقاييس العملية البراغماتية، وإنما يمكن خوض حلقاته ومراحله بهذه الطريقة من دون تغييب العمق الحضاري. وأي محاولة لتغييب أبعاد هذا الصراع التاريخية ومستقبله أيضاً، محكوم عليها بالفشل بغض النظر عن الطرف الذي يحاولها.

إن الصراع العربي ـ الإسرائيلي هو في جوهره صراع حضارات... صراع بين الحضارة العربية الإسلامية وبين التجمع البشري اليهودي الذي بعثت به أوروبا والغرب والحضارة

الغربية اليهودية ـ المسيحية «العلمانية» بهدف السيطرة على هذه المنطقة الحيوية من العالم. المواجهة مع إسرائيل هي في جوهرها مواجهة لحضارة الغرب العلماني ومذاهبه الغربية أكثر منها مواجهة العقيدة اليهودية. فليس لليهود حضارة محددة، وإنما لهم دين ومذاهب؛ فهم موزعون على مناطق العالم وحضاراته منذ آلاف السنين؛ وحضارتهم هي خليط من تلك الحضارات بلغاتها. أما إسرائيل فهي بالفعل قاعدة الغرب الحضارية تتبع الفئة المسيطرة فيه، وهي الآن أميركا. وهي كذلك منذ كانت مشروعاً وخطة وغزواً وإعلان دولة.

وهكذا يمكن فهم لماذا تفوقت أصوات «العلمانيين» في الانتخابات الإسرائيلية الأخيرة؛ ولماذا تراجعت قوة المنظمات الدينية؛ ولماذا صوت المهاجرون القادمون من الإتحاد السوفياتي السابق لمصلحة حزب العمل ورابين عندما اتضح لهم أن شامير يمكن أن (يورطهم) في نزاع مع أميركا، فيعرقل سيل الدولارات. وكان البعض يتصور أنهم بهجرتهم من الإتحاد السوفياتي إلى فلسطين، إنما يعبرون عن تمسكهم بالتفسيرات التوراتية لإسرائيل وموقفها في فلسطين. وقد تبين أنهم هاجروا إلى فلسطين (إسرائيل) كخطوة نحو الإنتقال إلى أميركا أو أي بلد غربي غني.

حتى من الناحية العملية، وليس النظرية والتحليلية فحسب، فإن التأكيد على البعد الحضاري العربي الإسلامي لهذا الصراع يصبح ضرورياً لا لتعبئة قوى الأمة ضد العدوان الغربي الصهيوني وصون حقوقها فحسب، على الرغم من المعاهدات والاتفاقات التي قد تفرضها الظروف عليها، وإنما لترهيب العدو أيضاً وهو في هذه الحال الصهاينة والغرب عامة، وأميركا خاصة.

إن البعض من بيننا يغفل هذا البعد المهم في الصراع، وذلك على الرغم من أن القيادات الأميركية ذاتها تضعه الآن في اعتبارها، وإن لم تسلم به بالطبع. فالذين يتابعون كتابات السياسيين الأميركيين وتصريحاتهم يجدونهم يحذرون من ابطاء عملية التسوية الحالية استباقاً لانفجار الغضب العربي الإسلامي. بل إن رئيساً سابقاً للولايات المتحدة الأميركية هو ريتشارد نيكسون، أورد النزاع العربي ـ الإسرائيلي، عندما أراد أن يتحدث عنه، في الفصل الخاص بالإسلام من كتابه الفرصة السانحة. ولعله عندما قال إن المعاهدات لن تجعل الناس تحب بعضها بعضاً في المنطقة، وإن هناك حقداً استمر قروناً، ونادى بوجوب الفصل بين إسرائيل وجاراتها بقوة رادعة، كان يفكر في أهمية هذا البعد الحضاري الذي لا يمكن القضاء عليه أبداً. حتى أن كثيرين من قادة الصهاينة ومؤسسي إسرائيل وصلوا إلى هذه النتيجة منذ

زمن. وقد تحدث ناحوم غولدمان قبل موته بسنوات عن ضرورة اندماج إسرائيل في منطقتها الحضارية. وتحدث آخرون عن استحالة حل النزاع إلا بموافقة «براغماتية» من جانب أطرافه. والحكماء منهم أوصوا بتعليم أبنائهم اللغة العربية. وأما المتطرفون فهم ينادون بالإبادة والتهجير وامتلاك أسلحة التدمير الشامل مذكرين العالم بعقدة شمشون الذي هدم المعبر فوق رؤوس أعدائه، وبعقدة «مسادا»، وهي قلعة يهودية فضل أصحابها قديماً الانتحار على أن يستسلموا أمام الرومان في فلسطين. فإذا كانت هذه هي الحال في الجانب الآخر من الصراع، فما الذي يوجبه هذا البعد الحضاري علينا؟

الواجبات كبيرة وكثيرة، ولعل أكثرها إلحاحاً الآن في هذه المواجهة القائمة والمستعرة، هو الحفاظ على وجه الحضارة الإسلامية نظيفاً من أي اتهام بالعنصرية أو التعصب. . . فليس من المفيد أبداً تحميل التاريخ الإسلامي ما لا يحمله فعلاً بحجة التحريض على اليهود في فلسطين، ولا بد من إظهار وجه الإسلام السمح الذي حمى اليهود أربعة عشر قرناً من الزمان في ظل الخلافة الإسلامية والذي استقبلهم هاربين من أسبانيا وأوروبا في عهد محاكم التفتيش، واستقبلهم أيضاً هاربين منها في ظل الاضطهاد النازي العلماني في العصر الحديث.

إن الفكرة الصهيونية الحديثة هي نتاج حضارة غربية علمانية؛ والتشديد على ذلك ضروري لكي نتجنب الانزلاق في حفرة الصراعات ذات الطابع الديني، ومن ثم تشويه التاريخ الإسلامي كله. والمثير للأمل أن القوى الفلسطينية عامة، والمنظمات الإسلامية هناك خاصة، يتزايد إدراكها لهذا الآن.

ختاماً، من المفيد التذكير بما قاله السياسي والمفكر الأميركي بريزنسكي في تفسير سبب الفشل الأميركي في توقع الثورة الإيرانية وسقوط الشاه: «لا يمكن فهم الأمم والصراعات إلا بـ «نظارات» حضارية، ولم نتمكن بعد من تركيبها للعقول الألكترونية لدينا».

*****

ربما أمكن حساب العوامل المؤثرة في هذه المرحلة من الصراع بالحسابات المادية البراغماتية المجردة، ولكن حساب مستقبل الصراع كله وحركة التاريخ لا يمكن أن يصح من دون استدعاء إطار الحضارة التي يجري فيها؛ وهي حضارة عربية ـ إسلامية باقية بإذن الله. أما بالنسبة إلى العدو الإسرائيلي الصهيوني ودولة إسرائيل، فقد آن الأوان لتشريحها داخلياً وخارجياً من منظار «حضاري» لكشف زيف هذا التجمع البشري ومصيره المحتوم.

أطروحات الحركات الإسلامية
في مجال الحوار مع الغرب

حسن عبد الله الترابي

شهدت القارة الإفريقية جنوب الصحراء علائق الاتصال بأوروبا، لأول عهدها، في بداية عصر الاكتشافات الجغرافية في خواتيم القرن الخامس عشر الميلادي، وذلك عندما طور البرتغاليون تقنية صناعة السفن حتى تمكنوا من البقاء في عرض البحر بضعة شهور، وأفلحوا، بفضل نجاح تجاربهم على الملاحة في أعالي البحار، في اختطاف السيادة البحرية من أيدي العرب في المحيط الهندي. ويعبِّر المؤرخ البريطاني، أرنولد توينبى، عن هذا الإجراء قائلاً: «لم يقتصر الأمر على الإحداق بالعالم الإسلامي، ولكن أمكن تطويقه تماماً. ففي أواخر القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر، وضع الطوق حول رقبة الفريسة».

وبالنظر إلى حركة اللقاء الإسلامي ـ المسيحي في العالم القديم، يتضح لنا أن حركة الاكتشافات الجغرافية كانت جزءاً من هذا الصراع. فقد كانت الحضارة العربية ـ الإسلامية لا تزال، عند نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، مهيمنة على الشاطىء الإفريقي المطل على المحيط الأطلسي الممتد من بوغاز جبل طارق حتى السنغال، وكان العالم المسيحي الغربي، والحال هذه، مقطوع الصلة براً بالقارة الإفريقية، بينما كانت موجات التأثير الإسلامي تتدافع في القارة السوداء، ليس على طول حدودها الشمالية في السودان خارج الصحراء الكبرى فحسب، بل على طول ساحلها الشرقي المعروف بالسواحيلي، والذي يطل على المحيط الهندي.

لقد اتسمت روح اللقاء بين الإسلام والمسيحية، على أرض القارة الإفريقية، تاريخياً، بالعنف واللاأخلاقية. وقد أشار إلى ذلك أحد الباحثين الغربيين، دونالد وايدنر، عندما تساءل قائلاً: «ليس واضحاً سبب الدمار الذي ألحقه فاسكو دي غاما بالمدن الساحلية. هل

كانت الحماسة الدينية هي التي تدفعه إلى ذلك، أم الخوف من قوة العرب والعمل على كسر شوكتهم وقتل روحهم المعنوية؟»

لقد جانب التوفيق نمط اللقاء العنيف بين الإسلام والغرب في إفريقيا، فاندثرت كل آثار التجارب المسيحية بمجرد زوال الوجود البرتغالي. لذلك، عندما حاول الغرب السيطرة على إفريقيا مرة أخرى، في منتصف القرن التاسع عشر، اتعظ بتجارب البرتغاليين في كثير من أنحاء إفريقيا، ولكنه وقع في الخطأ نفسه في ما يخص سودان وادي النيل.

اتسمت تجربة لقاء الغرب المسيحي بالإسلام في سودان وادي النيل بالعنف غير المبرر في خواتيم القرن التاسع عشر الميلادي، فقد استشهد في صباح يوم واحد أكثر من سبعة عشر ألف سوداني في معركة كرري، وقد كانت سيرة الإنكليز عنيفة مع كل الحركات الإسلامية السودانية خلال النصف الأول من القرن العشرين، وتقف حركة الإمام عبد القادر ود حبوبة شاهداً على انعدام وسائل الحوار بين الإسلام والغرب في السودان.

والمقال الذي بين أيدينا يدعو إلى تجديد العلاقة مع الغرب، ويقترح أن يتولى السودانيون عبء إقامة هذه العلاقة على الحوار لأنهم المؤهلون أكثر من غيرهم لتحررهم من هجوم النموذج الغربي. ويسعى المقال في جملته للتأطير للحوار الإسلامي مع الغرب؛ يؤطر لدواعيه ومبرراته، ويحدد طبيعة العلاقة، ويجمل قضايا الحوار في استراتيجية الخطاب الثقافي والسياسي والاقتصادي والإعلامي والاجتماعي والفني والرياضي، كما يرسم وسائل الحوار وإجرائياته.

دواعي الحوار ومبرراته

أما أصل الحوار الذي قد يبدأ جدالاً ويقود تدرجاً، بحسب أهمية العلاقة فيه، ربما إلى قتال، أصله في سنة الخلق الإلهي المؤسسة طبيعتها على الثنائية أو الزوجية، فلا تتولد الحياة نفسها إلا بالتفاعل بين الحق والباطل أو بين الخير والشر، وما من دعوة إلا وتتعرض إلى الحوار

والمجادلة، فالحركة أو السكون. تلك سنة خلق الله (سبحانه وتعالى) وأمره للكون والحياة والدعوة. ونحن المسلمون قد يبدو لنا ذلك الآن دفاعاً عن النفس في واقع محاصر بالهيمنة الأوروبية على وسائل الإعلام والاتصال والخطاب الشفهي والكتابي المحيط بنا، محروساً بقوة العلم وآليات الحرب. وقد نقدِّر أنهم يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم وأقلامهم ومادياتهم وخططهم المنظومة لذلك. ولكن لو لم يبادرونا هم بهذا الاستفزاز العدواني الذي يؤدي بالضرورة إلى تحريك الحوار، لوجب علينا في الأصل، نحن أهل الرسالة، حمل لواء تبليغها، وأن نكون شهداء بها على العالمين، نبادرهم نحن بالخطاب حتى لو لم يبادرونا هم، ليس حذراً من أن ندفع عن أنفسنا غشيان الباطل، ولكن حرصاً على ألا نفوِّت على البشر كافة بلوغ الرسالة، ونُسأل من بعد ذلك عن كتمانها. ذلك هو مبدأ الدعوة الإسلامية والضرورة الشرعية للحوار المتمثلة في حمل الأمانة. فالأصل هو التفاعل التبليغي وعدم جواز السكون. وبما أن تطور العالم الحديث وثَّق الصلات العالمية وجعلها محوراً واحداً للتفاعل السياسي والاقتصادي والاجتماعي، كما جعلها، أيضاً، محوراً للخطاب الفكري والثقافي، فلا مجال لنا في الواقع أن نعكف على ساحة خاصة داخلية، مما أوجد ضرورة عملية ملحة للحوار فرضها الواقع العالمي المؤسس على التواصل والتبادل والتفاعل والاعتماد المشترك بين الأمم والشعوب والجماعات والحركات. وهذا يقتضي منا ويدفعنا في سبيل فهم الآخرين، تاريخهم وواقعهم وحقائقهم وإمكاناتهم، ثم السعي للتدريب والتأهيل والتفاعل معهم، وتأسيس أرضية ثابتة وراسخة من الفهم المتبادل والحقيقي لطبيعة كثير من الموضوعات المطروحة وعلاقاتها في هذا العصر، ومحاولة الالتقاء حول نقاط مشتركة في الحقوق والواجبات، والعمل على التقريب بينها وتوسيعها للحيلولة دون أن تشكل عقبة في سبيل التفاهم والتفاعل الاستراتيجي المشترك، قاصدين من ذلك تغيير كثير من الأفكار والمفاهيم الثقافية والحضارية الراسخة لدى الغرب عن الإسلام ورسالته وتكيفه مع الواقع المعاصر وتكيف الآخرين معه؛ وهي محاولة في آن لمحو الكثير من الإشكاليات والتناقضات التاريخية بين الإسلام والمسيحية واليهودية أو بين المشرق الإسلامي والغرب عموماً.

الحركة الإسلامية الحديثة والحوار

إن من أوجب واجبات الحركة الإسلامية الحديثة اليوم هي الانفتاح على العالم كله تبلغه رسالتها وتحمل إليه الأمانة من بعد انغلاق طويل أقبلت فيه على أهل التراث الإسلامي التقليدي الداخلي، تذكرهم بما غفلوا عنه، وتعلمهم ما ضيعوا علمه أو تحركهم بعد أن فترت همتهم. واليوم لا يمكن لها أن تتمدد وتكسب إلى تيارها الآخرين في الداخل أو الخارج وهي تعكف لذلك وتنقطع له. فالعالم كله أصبح وسطنا، وحتى خطابنا المصوب إلى أهل التراث الإسلامي أو إلى أهل ملتنا من المتغربين المتعلمين لا بد له بالضرورة أن يخاطب الغرب لأننا نلقاه من تلقاء ما أصاب المسلمين كذلك.

ويأسف المرء أن يقول الآن إن تصويب الخطاب الإسلامي المعاصر لمخاطبة من يليها مباشرة خطاباً خاصاً فحسب، ودواعي السرية التي كانت تحكم حركة النهضة الإسلامية والتي كان أصل منشئها أول الأمر القياس على حركة الدعوة الأولى في مكة المكرمة، وانحصارها في الأداة القديمة للخطاب الشفهي والكتابي أحياناً، ذلك كله أفقد الحركة انتشارها الواسع كما أخّر الكثير في تمكين الدين وتسخير آليات الإعلام للدعوة لله (سبحانه وتعالى). لكن يبدو أن أغلب الإسلاميين أدركوا أنهم في حوار واحد مع كل القوى الأخرى، داخلية وخارجية، مما يوجب ضرورة الانفتاح المباشر عليهم وتسخير وسائل الاتصال والحوار لذلك.

صورة الغرب بين الأمس واليوم

إن الغرب نفسه كان بالأمس يقدّر في نهضته المادية الأولى خطورة أولوية المصالح والموارد. فحملته على الآخرين كانت استعماراً اقتصادياً، في المكان الأول، تحميه من بعد ذلك القوة العسكرية، وتحميه من ورائها الثقافة. هكذا كان ترتيب أفواج القادمين إلى الشرق المستعمر؛ الشركات أولاً، ثم الإدارة والجنود، ثم التبشير والمعلمين، والإعلام من بعد ذلك.

إن الغرب نفسه أدرك اليوم أن الحوار على القضايا الاقتصادية والمصالح قد تجاوزته الأوضاع، وتبدلت حتى أحزابه التي أسست علاقاتها وأشكالها على الموقف من النظام الاقتصادي في الحياة. وفي هذه الظروف، بقي للغرب إما أن يرتد إلى العصبية العرقية أو إلى صراع الحضارات. إننا بدأنا نرصد كثيراً من الأصوات التي تدرك أن صراع الحضارات هو قضية اليوم التي يجب التصويب عليها، لا صراع الاقتصاد أو العصبيات أو القوى العسكرية المباشرة. وهذا هو العهد الذي ينبغي فيه على المسلمين أن يدركوا ضرورة الحوار والتبليغ الرسالي، وأن يعملوا على مكانتهم ويستقرئوا الواقع في أنفسهم وفي الجانب الآخر، وأن يدبروا الوسائل المناسبة لإيصال الفقه والرأي الإسلاميين إلى الآخرين، وأن يضعوا لذلك برنامج عمل للقضايا التي ينبغي أن يتصوب عليها الحوار، ويخطوا لها منظومة استراتيجية تراعي ضرورة بناء مستقبل الأمة على قواعد تأخذ في الحسبان خلاصة التجربة الانسانية والعلم الانساني، إضافة إلى فهم مقاصد الدين وغاية الاستخلاف للبشر وحملهم أمانة البلاغ.

ذلك أن بناء مستقبل الأمة على أسس حضارية يُلزمنا تأسيس منهجية استراتيجية فاعلة وبعيدة المدى في خلق علاقات صحيحة وصحية بين الأديان والثقافات والحضارات تحكمها حدود بينة ومحسوسة من الندية والاتفاق على استقراء التاريخ، مكاناً وزماناً، والنظر إلى الواقع تدافعاً وتقدماً وتفاعلاً واستصحاباً.

دور السودان في الحوار مع الغرب

إننا في السودان، وفي الوقت الراهن، مؤهلون أكثر من غيرنا لإقامة هذا الحوار المنشود، والسعي له تأسيساً وتقويماً لنماذجه ودعائمه ومراميه، ذلك أننا تحررنا من هجوم النموذج الغربي وإرادة صانعيه ونظرتهم المهيمنة، وامتلكنا من بعد ذلك قرارنا، وتمثلنا ديننا، وشرعنا في بعث روح منهجنا الأصولي بمحتواه التجديدي، معتمدين على أنفسنا من بعد توكلنا على الله، آملين بذلك نيل استقلالنا الكامل، اجتماعياً وثقافياً وفكرياً وسياسياً

واقتصادياً وقانونياً. إننا رفضنا بذلك التبعية التي كانت تكتم أنفاسنا وعقولنا وتكبل حريتنا في تفجير طاقـاتنا الروحية والماديـة التي نأمل أن نربط بها تاريـخ ماضينا بحاضرنـا لنستشرف به مستقبل أيامنـا وقوتنا ومنجـزاتنا الخلاقة إعماراً لكـل بنيات النظم الإسلاميـة للأمة المجـاهدة بأكملها.

إن إيماننا العميق بقيمنا الدينيـة والانسانية والحضارية يشكل لنا بعـداً نفسياً وجهادياً ثورياً يدفعنا إلى المضي قدماً اعتماداً على أنفسنا وعدم موالاة الغربيين وأبنائهم المستغربين الذين هم منا، بالقدر نفسه. ويساعدنا في سعينا المطرد هذا موقعنا الجغرافي المتميز بمساحته القارية وموارده الطبيعية، ويجعلنا نتبنى منهجـاً أصولياً علمياً تجريبياً استنباطيـاً فاعلاً لتحديث واقع استخلافنا بثـرواته وطاقاته الطبيعية والبشريـة، وفق نظرة مستقبلية ممرحلة إطـارها الاعتقادي العام هو الشمولية والعالمية والتكامل لمعـاني الإسلام شريعة وعقيدة وحضارة ونظام حياة عالمياً بكامل نظمه ونماذجه. وذلك يوقع علينا عبء التصـدي لحمل أمانة التبليغ الرسالي وتعريف الغرب بالإسلام الذي نتمثله مشروعاً ذاتياً لبعثتنا الحضارية وكياننا الأممي المستقل. إن الغرب حتى الآن يأبى علينا، من جراء معتقداتـه للهيمنة وفلسفته للصراع المادي والعرقي، الاعتراف بمنهجنا أو حتى محاولة الإلمام الصادق بمفرداته ومنهجه ومحتواه. لكن، على الرغم من ذلك، تظل الحقيقة أن لـدينا مزيداً من الإمكانـات المتجددة بالإيمان تلوح وتتـوارد أكثر من أي وقت مضى توسع للإسلام قاعدة انتشاره، وتعرِّف الآخـر برسالته وترغمه على التفاعل معها، ذلك أن هذه الإمكـانات الإيمانية المتجـددة أوجدتها أسباب متصلـة بروح العقيدة نفسهـا، ورعتها عنايـة الخالق، وبالمقدار نفسـه فرضتها على الغـرب حالته المتهافتـة اجتماعياً وقيمياً وأخـلاقياً وبيئياً.

خصوصية الخطاب ومراعاته لظروف الزمان والمكان

وصلات العالم اليوم توثقت جداً حتى أن وسائل العلاقات بين الدول التي اقتصرت في الماضي على الآليـات الديبلـومـاسية والتي أصبحت متخلفـة، وتجاوزهـا واقع الحياة تمامـاً،

فأصبحت العلاقات متكاملة بين الشعوب مباشرة، وأصبح التفاعل فيها من خلال كل شيء تبادلاً للثقافة والفكر والعلم والصناعة والغذاء وتبادلاً للحوار والهموم وحملات الهجوم.

فـذلك يـوجب على الحركات الإسـلاميـة الحديثـة لكونها قيـادة الصحـوة في المجتمع الإسلامي بكل أبعاده السياسية والخاصـة، أن تتهيأ لإثارة الحوار العالمي بما يفيد ويثمر. فمن خلال المعامـلات الاقتصادية نفسها نستطيع أن ندفـع حواراً سياسياً وثقافيـاً كذلك. ولكون الأنبياء في عامتهم كانوا يخاطبون أقوامهم بألسنتهم وكون الله (سبحانه وتعالى) لم يبعث رسولاً إلى قوم إلا بلسـانهم، فإن ذلك يقتضي منا إدراك الآخر ولغتـه ومصطلحاته وفكـره لنستقرىء من ذلك واقعة تـاريخية ونقـدّر كيف نهيىء الثغور التي نـريد أن نـدخل بها عليه. وحتى إذا أردنا أن نصل بالآخر إلى عبادة الله وتوحيده، فلا بد أن نخاطب كل قطاع في المجتمع بما يهمه ويعنيه من قضاياه، تأسياً بسنة الرسل الذيـن ساقوا الناس من خلال قضية خاصة هي الأهم عندهم قبل أن تأتيهم الـدعوة. فلو كـانوا أهل معامـلات مالية، خـاطبهم شعيب بخطاب معين، ولو كـانوا في حالة اضطهـاد تحت طاغوت فـرعون، خاطبهم موسى بخطـاب خاص بذلك، ولو كانوا في فساد أخلاقي، خاطبهـم لوط بخطاب أخلاقي، وهكذا. فلا بد لنا من تهيئـة كل الثغور بـالحوار الطلابي والصحـافي والإعـلامي والديبلـوماسي والعلمي والسيـاسي والاقتصـادي والفني؛ حـوار من خلال المنظمات العالمية المختلفة، وحـوار في مجالس الأديان، وحوار في المجالس العلمية والسياسية، وحوار في ميادين التبادل الفني والرياضي والإعلامي. وكيفما كانـت شعاب الحياة تصلنـا بهم وقطاعـات المجتمع التي نتصل بها، لا بد أن نـدخل بالحوار في كـل أوجه حياتهم، والحوار بـذلك ليس مقصوراً بين شريحة المتجـردين المثقفين من الـذين يحاورون نخب الفكـر فحسب، بل هـو دعـوة شـاملـة ومتكاملـة تتفـاوت درجـات تكاملها، وقد يعبر عنها المثقفون بإحكام أكثر من غيرهم بطبيعة الحال.

ونحن نعلم أن الذي يحمل أمانة تبليغ رسالة الخالق (سبحانه وتعالى) لا يريد من ذلك أن يحفظ أمنـه ويدفع من الآخـرين شرهم، بل إنه ينظـر إلى غايـة سعيه الجهـادي، ذلك أن فلاحه وغايـة اجتهاده هو تبليغ الآخرين إسلام أمرهم إلى اللـه. فالقتال ليس مبادرة المسلم،

لكن الأصل هو الحوار والجدال. وقد يفرح المرء إن سلم من عدوان أو إن أفلح في استئصال دابر الآخرين، لكنه يكون أكثر فلاحاً لو استطاع كسب الآخرين إلى صف الله والدعوة إلى الإسلام في تفصيل الحوار وتأصيله. فالصلة أساساً ينبغي أن تكون المبادرة بالحوار حتى لو كان الآخر مستكبراً معتدياً وطاغياً لأن غاية الأمر أن نتصل به عبر العلاقة، ذلك أنه ما من رسول إلا ودعا قومه إلى مناخ من الحرية بينه وبينهم حتى يحاورهم، مشيراً إلى أن يعملوا على مكانتهم ويعمل، ولا يكرهوه على شيء ولا يحرمهم من اختيار. وحتى إذا كنا والآخرون نتنافس ونتصارع، فلننظر لمن تكون عقبى الدار ولمن يكون التاريخ والمستقبل. وتلك هي شرعة كل الرسل، وما حكاها لنا المولى (عز وجل) قصصاً إلا لكي نعتبر بها. فالرسول كان يحاور الآخرين، حتى الذين هجروه وعذبوه وحاصروه، كما كان يحاور أهل الكتاب، على الرغم من أن الذين باشروه من اليهود ما كانوا يسعون لحوار أحد يأتي بمثل قيمهم من شدة حسدهم. وكونهم يزيدون كراهة للآخر إذا قامت بينه وبينهم أسس مشتركة ومتماثلة، ويفضلون الآخر الذي ليس على صلة بملتهم، ويظنونه أهدى من الذين آمنوا سبيلاً. من ذلك، لا بد أن تستمر الدعوة إلى الحوار من جانبنا مهما ظُلمنا وكيفما عوقت سبلنا، حتى إذا آثروا أن يقطعوا علاقة الحوار ويقلبوها إلى قتال يستأصلون به شأفتنا تماماً من الأرض، وعلى الرغم من أننا منقادون إلى أن ندفع عن أنفسنا كيفما استطعنا، وأن نعد لذلك القوة الدفاعية التي نرهب بها أعداء الله، نقول ـ على الرغم من ذلك ـ لا بد أن يستمر حوار حتى من خلال علاقات القتال.

الإعداد للحوار

أما كيف ينبغي أن نعد لذلك الحوار، فيؤسف المرء ابتداء أن يشير إلى أن الدعوة الإسلامية، وإلى وقت قريب، كانت تعاني من عجز مرحلة:

أولاً: لأن الحركة الإسلامية بدأت غريبة ومحاصرة ومنغلقة تحكمها معاملات السرية،

وتصرفهـا علاقـات التربيـة الـداخلية الإيمانيـة، لـذلك كـانت تضيق على نفسهـا مسافـات الانفتاح، وتعكف بذلك على خصوصيتها وتزكية أفرادها.

ثـانياً: إن حـركـة الأوبة إلى الإسـلام لم تر من حـولها سـوى بيئة الإسـلام والمسلمين. لذلك، فإن كل القضايا التي أثارتها كانت دائماً ذات علاقة بالبيئة والوسط اللذين هي فيهما. فلا نكاد نجـد الحركات الإسلامية قـد انفعلت كثيراً بالاتصال مع الغـرب لا حواراً ولا سفراً. وحتى إذا قامت عناصر منها داخل الغرب نفسه، كـانت تؤثر أن تحيط نفسها بخصوصيتها، وتدير بذلك الحوار من داخل روافدها من الخلفيـات نفسها التي قدموا منها سواء من آسيا أو من بلاد العـرب. ولما كان واضحاً ازديـاد وحدة العـالم واشتداد صلته، فإن العـالم الإسلامي نفسه قد أدرك تماماً أنه ما من شأن داخلي إلا وأصبح للغرب نصيب فيه، وكانت الفتنة الوطنية القطرية قد غشيت الغرب وتمكنت من فكره وعقائده السياسية والاجتماعية، وأثرت في وحدته الـدينيـة، وأصبحـت هي، أيضـاً، منقطعـة على أسس قطـريـة. ودارت بينهم الحروب والمنـازعات، على الـرغـم من وحـدتهم العصبيـة تلك، وأورثونـا بـالاستعمار هذه العصبيـة، وجهدوا في أن يروجـوا بيننا العصبيات العرقية والقـوميات القطرية والثقـافية، إلا أن كل هذه الإشكاليات تجاوزتها البشرية الآن. وحتى الغرب بـدأ يسعى لتجاوزها. وأحسب أن البشرية لا تستطيع أن تنفعل بها الآن كما انفعلت من قبل، ولا أحسب أن الغـرب اليوم يمكن أن يحرم دعوة إلى الإسلام في قطر معين مهما كانوا يؤثرون ألا يدخل عليهم الغريب بدعوته حتى لو كان مقيماً عندهم، ومهما جهدوا في التضييق عليه ليقتنع بأن يحتفظ بهويته الذاتية في واقع معزول.

وحتى نحن في السـابق كنـا نعـاني من الإشكـال نفسـه، ولكن الحركـات الإسـلاميـة ومجتمعـاتها، بغـالـب وعيهـا، أصبحت تتسع في دعـوتها وتنفتح على الآخـرين في الـداخل والخارج، وأصبحت تـدرك بهويتهـا الـذاتيـة أنها إزاء العالم أمـة واحـدة لا قـوميـات وشرائح متعددة. وأصبحت بأغلب أهلهـا تتجاوز حزبيتهـا ذات المفهوم الغربي، لأن فكـرة الأحزاب والطوائف نفسها في العالم أصبحت تتلاشى، فالطائفية هي واحدة من الأمراض التي أصابت الدين لأن الدعاة يبدأون دعوة منفتحة أول الأمر وسرعـان ما يتحولون إلى طائفة منغلقة لا يقود

الطريق إلى الله إلا من خلال مسلكها .

إن الله قص علينا ما أصاب أهل الكتاب من اليهود والنصارى، حيث يقول هؤلاء ليس أولئك على شيء، وأولئك يقولون ليس هؤلاء على شيء، وهم يتلون كتاباً واحداً إلى يومنا هذا. والمسلمون أنفسهم في واقع تاريخهم حولوا أنفسهم إلى طوائف، شيعة وسنة، وإلى مذاهب فقهية متعصبة لمنهجها الخاص وإلى طرق صوفية يسلك الناس من خلالها إلى الله صراطاً مستقيماً، بل سبلاً شتى .

والحركات الإسلامية الحديثة نفسها بدت وكأنها تريد أن تنفتح وتجمع الناس بكل طرائقهم ومذاهبهم في صراط الله المستقيم، ولكنها، بعد قليل، كان يصيبها ذلك الأثر التاريخي، كما يصيبها أيضاً أثر التعصب القومي والقطري. لكني أرجو أن تتطور تماماً وتقفز مرة واحدة لا إلى العلاقات المنفتحة بين سائر الأمة فحسب، بل إلى الانفتاح على شاسع العلاقات الدولية، ذلك أن الغرب الآن وجد نفسه وحيداً في الساحة فملأها، وأصبح يشكل ويكيف الحوار الثقافي والفكري والسياسي والاقتصادي، كيفما يريد، ويوظفه لخدمة غاياته ومصالحه. والله (سبحانه وتعالى) عندما كتب علينا النموذج الرسالي الخاتم، فتح الحوار أساساً لخطاب مع أهل الأديان الكتابية الأوائل الذين انحرفوا عن رسالتهم وضيعوها، تماماً، ودخلت عليهم أهواء شتى أثرت فيهم، فجاء الدين المحمدي يجدد لليهود والنصارى دينهم، ويوجههم لتجديد الإيمان. وكان يمكن للخالق القادر أن يختار الرسالة الخاتمة في وسط الهند أو إفريقيا، فيقوم الحوار بين مسلم يؤمن بالله الواحد وبين وثني وإفريقي أو هندي، ولكنه (سبحانه وتعالى) قدر أن يكون الأنموذج الخاتم للرسالات هو الذي يفتح الحوار، لا للعرب أنفسهم فحسب، ولكن لكل قطاعات الأديان والثقافات الأخرى، حتى يعلم كل من يباشر الدعوة الإسلامية كيف يسخرها لخطاب الآخر من خلال شتى العلاقات. لذلك يجب علينا مخاطبة ومحاورة كل العالم وكل البشرية من خلال العلاقات الحياتية كافة، فضلاً عن العلاقات الثقافية المتجردة، وينبغي لنا أن ندبر ونقدِّر وسائل حمل الرسالة سواء كانت منشورات أو كتباً أو خطاباً إعلامياً شفهياً أو مؤتمرات أو تبادل لقاءات وزيارات أو علاقات

بين المؤسسات التعليمية والعلمية والثقافية والصحافية والأنبائية أو من خلال اللقاءات السياسية والديبلوماسية. وينبغي لشعاب الحياة المسلمة كافة أن تسعى لمحاورة الغرب وتضرب له المثال الإسلامي، وأن يؤدي المسلمون في ذلك ما يستطيعون ويدفعون ما يقدرون عليه كذلك.

إطار الحوار وطبيعة العلاقة

بالطبع، بدأت الكنيسة بالفعل السعي لهذا الحوار معنا من حيث تراه هي من تبليغها لرسالة النصرانية إلى المسلمين، ذلك أن مبادرة الفاتيكان بالاعتراف بالإسلام هي محاولة لخلق قاعدة للحوار يقترب بها من المسلمين.

كما أن دعوات مجلس الكنائس العالمي للمسلمين أن يأتوا إلى الحوار أدت إلى حيرة من جانب المسيحيين، لأن لهم كنيسة منظمة تستطيع إدارة الدعوة، لكن ليس من جهة رسمية تمثل الإسلام حتى يدعوها لبرنامج هم واضعوه. إن ذلك يوجب علينا نحن، الإسلاميون المنفعلون بهذه القضية، سواء كنا حركات أو أفراداً، إتباع إجراءات منظومة تبادر إلى وضع برنامج لهذا الحوار حتى يؤتي ثمرته في تبليغ أمر الدين. وكيفما قام علينا الآخر يريد أن يبلغنا رسالته، بينما نريده أن يسمع لنا ونبلغه رسالتنا، ينبغي علينا أن نكون المبادرين لأننا أصحاب رسالة تجديد النصرانية، وعيسى (عليه السلام) نفسه كان عليه أن يجدد الدين الموسوي ويحمي بواطنه بعدما انتهى إلى ظواهر فحسب. وكذلك يقع علينا نحن عبء تجديد المسيحية بالحوار والرأي وصياغة المناهج وتأسيس النظم النموذجية الإسلامية.

إن المسلمين لم ينظموا أصلاً وسائل ومواعين لحمل الرسالة وتبليغها، وهذه إحدى المصائب التي أصابت أمتنا. أمس كان يحمل عبء ذلك علماؤهم وشيوخهم مع بعض المبادرات الفردية. لكن العجز عن البلاغ أصاب حركة الفقه والرأي الإسلامي، كما أصاب حركات التصوف الإسلامي، التي كانت تمتد، ثم انتهت إلى انحسار عن الساحة العالمية.

ويكاد يأسف المرء أن يرى من تجربة له في هذا البلد، أن الحركات الصوفية التي لا

تكاد تحمل إلا قديماً وجامداً لا يناسب شمول الدين وعالميته ، لكنها ما تكاد تنقل ذلك الذي تتمثله وتعرضه للغرب كمثال تديني حتى تكسب منه بعض العناصر لأن الغرب جائع جداً روحياً ، وينتظر الغذاء لو فاض عليه المسلمون .

والحركة التبشيرية الكنسية في مبادراتها للحوار تشتكي أحياناً من الذين يتعرضون لحوارها من المسلمين ، ذلك أنهم إذا خاطبوا العلماء التقليديين لا يكاد يقع بينهم تفاهم قط ، وكذلك حالهم مع رجال التصوف التقليدي . لقد تحدث معي كثير من مفكري المسيحية في أوروبا ، وأشاروا إلى أنهم لا يستطيعون أن يتحدثوا إلى الأخر منا ، لا لتباين اللغة فحسب ، ولكن لتباين الموجة الفكرية المختلفة تماماً ، ذلك أنهم لا يدركون ابتداء من أي شيء ينطلق الأخر، ولا يدرك الأخر من أي شيء هم ينطلقون ، لكن أحسب أن المثقفين من الإسلاميين ، سواء في أوروبا أو الذين درسوا هناك وعاشوا في الغرب وخبروه ، هم أقرب لأن يصلوا هذه الصلة ويديروا الحوار.

فلا معنى ابتداء لحوار بينك وبين الأخر إذا لم يكن بينكما مشترك في بعض مستوى الفكر وأصول في المعنى ، ذلك أن الحوار، ابتداء ، إنما يبنى على أصل فطري وفكري يشترك فيه الاثنان مع وجود مسافات ومناطق يختلفون عليها ، فيحاولون بالرجوع إلى ذلك المشترك بالعقول أن يتحاكموا ويتصالحوا على وفاق أوسع .

وكيفما كانت وسائل إدارة الحوار مع الغرب ، فلا خطاب بينهم وبين علمائنا التقليديين الذين ليس لهم مع الغرب، بل ليس لهم معنا نحن الإسلاميين الذين نسعى لتنزيل الإسلام على الواقع المعاصر، من تفاهم على قضايا فكرية كثيرة ، ذلك أنهم يحفظون فتاوى قديمة أو نصوصاً نزلت على واقع قديم تجاوزته مستجدات العصر، ويحفظونها ، لا لفهمها وتجديد عبرتها وتنزيلها ، بل لأدائها اللفظي غير المشغول بأن تتحقق مغازيها بالفعل .

ويأسف المرء أن يقول إن الحكومات الإسلامية لا تقدِّر أن السياسة الخارجية يجب أن يكون فيها قطاع نشط يعنى بالحوار الثقافي ، ربما لأنهم لا يملكون فيضاً خاصاً على الآخرين ،

بل جبلوا على التلقي فحسب في اتجاه واحد، فلا ينشطون بمبادرته العطاء. لذلك، فإن على المنفعلين اليوم بإحياء الإيمان وتجديد الفكر الإسلامي وتنشيط حركة الإسلام وتأسيس نظمه الحياتية أن ينظموا هم، أولاً، وسائل الحوار وقضاياه وأدواته، وأن يعلموا هم الذين يباشرون الغرب من المسلمين، سياسة الحوار العام عما يليهم هم من حوار فكري وثقافي مجرد.

إن حركة الأوبة إلى الإسلام التي نقودها الآن هي الأولى بأن تباشر مهمة الحوار، وهي الأقدر على مخاطبة الأخرين بحكم أنها الأعرف بهم واقعاً وتاريخاً. كما هو ممكن للمسلمين الموجودين في الغرب أن يشكلوا أداة فاعلة لمخاطبة من يلونهم منهم. أولئك منهم الذين هاجروا من ديار المسلمين واستوطنوا ديار الغرب وجرت عليهم ميزات الجنسية الدائمة بأغلبهم هم الآن يجاهدون فقط ليحفظوا دينهم في حياتهم الخاصة، لكننا بدأنا نرى أبناءهم لا ينتمون إلى الوطن الأم الذي يشتاق إليه أباؤهم. ويؤسفني، على الرغم من الرجاء في جيل قادم، أن أقول إن الوجود الإسلامي كله في الغرب لا يكاد اليوم يخاطب الغرب إلا قليلاً جداً. حتى أن أبناء العرق والأصل الوطني الأوروبي أكثرهم يختصون بدينهم الإسلامي لحياتهم الخاصة تماماً. أما المهاجرون فهم معزولون عن المجتمع ويعتزلون بهويتهم الدينية حتى يحفظوا وجودهم هناك.

إنني أرى أن من المهام الواجبة على الحركات الإسلامية أن تسهم في التخطيط والتحريض لذلك الوجود الإسلامي في أوروبا الغربية وأميركا الذي يباشره أهل الغرب. فقد يرون ما هو نموذج الحياة الإسلامية ممن في وسطهم من المسلمين، وهم الأقدر، في واقع الحال، على التغلغل في كل شعاب الحياة الغربية يضربون المثال والمقال، ويبلغون بالحوار كل محاور الحياة وصلاتها المتباينة.

قضايا الحوار

كما قدمت، لا بد أن نتهيأ بخطاب متنوع وشامل يأخذ كل المناحي الحياتية وكل المناحي الثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والإعلامية والفنية والرياضية.

١ ـ الخطاب الثقافي الحضاري

إن قضية الدين وعالمية الرسالة الإسلامية وتاريخ النهضة والانحطاط ودواعي حوار الحضارات وتواصله وتفاعله التبليغي هي من أهم الأمور التي ينبغي أن نؤسس عليها مدخلاً للحوار.

والانسان هو محل الدين الأول يخاطب بالتكليف الشرعي ويحاط بالابتلاء الدنيوي، وتناط به المسؤولية فرداً، فيكسب حظه من التدين، ويلقى حقه من الجزاء. لكن الانسان المؤمن أوثق توحداً مع مجتمع المؤمنين لاعتقاده بوحدة الرب والأصل والمصير، وبوحدة مغزى الحياة في العبادة ووحدة نظامها في الشريعة. أما المشرك فتحميه كثافة الغيب عن ربه الواحد، وتلهيه ظاهرات الحياة الدنيا وعارضات الشهوة عن الأخرة، فيفتقد بذلك قاعدة الوحدة مع الآخرين انقطاعاً عن الغاية وضلالاً عن الطريق، ويفتن عنهم بمفارقات الهوى ومشاكسات الأغراض العاجلة.

وها هو الذي يدعو الكنيسة الأوروبية إلى الحوار معنا، إذ إنها تدرك، حتى وهي في البلد الذي هي فيه، كيف تلاشت رسالتها تماماً، لأنهم في أوروبا عندما استوردوا النصرانية من الشرق، حصلت لهم تطورات، كلنا يعرف تاريخها، طُرد إثرها الدين تماماً، وطرد الرب الذي يؤمنون به من ساحة الحياة العامة، وحوصر داخل الكنيسة. فمن كان يؤمن منهم بإله فليؤمن بأنه مسجون مغلق عليه الباب يدبر عنه الآخر في الخارج وينصرف عنه تماماً. إنهم في أغلبهم لا يؤمنون بإله، وقد لا يتخذون من ذلك موقفاً فلسفياً صريحاً، ولكن واقع الحياة شاهد أن السواد الأعظم في أوروبا الغربية لا يؤمنون بالدين، على الرغم من أنهم قد ينتسبون إلى الدين ويستعملونه أحياناً مقابلة بين هويتهم فيه وهوية أخرى. ويمكن لنا نحن أن نعيد بالحوار الثقافي أصول قضايا الدين الحق، ذلك أن القرآن أساساً يؤصل الحياة. إن أغلب الآيات ومحتوى الرسالة هي حول أصول الدين، والناس الآن أقرب إلى عالم الشهادة المادي لا الغيب الروحي، وهم غير مؤمنين بالخالق محيطاً بالعالم عبادته شاملة للحياة ورسالته عالمية.

إن الإسلام عند تجدده الأخير برسالة محمد (ص) قد أنقذ العالم من الانحطاط الشامل بدعوة أعلاها علـو الخالق، مشيداً عليها نمطاً جديداً من الجماعية العالميـة المنظومة بحاكمية مرجعية عليا تعطي البشرية وعياً حقيقياً بالبعـد الرباني في خلق الانسان ووظيفته العبادية التي تدفع روحاً مبـدعة في هداية الحياة للبشر كـافة؛ ذلك هو المثال الأعلى الرمـز المهيمن للإسلام الذي أصبـح اليوم عامـلاً إيجابياً في سبيل بنـاء مستقبل للانسـانية يتسم بـالتآلف والتعـايش والتعاون والتوحد، ثم بالرضى والسعادة، بينما فقد الواقع الغربي، بل العالمي، روح الطمأنينة النفسية والتسامح البشري، وبرز فيه الوجدان الإنفرادي أو الجمعي المادي الذي لا يهدف إلا إلى نمو متاع وقوة بنمط جنوني تلاشت فيه القيم، وانحلت الأخلاق، وهُمشت معاني الدين، مما جعل المغزى الغربي والعالمي للحياة غير مرض من أهله أنفسهم.

والثقافـة في المشروع الغربي تميـزت بفقدان المعنى والغـاية، إذ رفعت لإنتـاج تقنية من أجل التقنيـة كغـاية في ذاتها، فـانعكس تطـورهـا في شهوة هيمنت على وجـدان أوروبـا التي نشطت في مجال التسليح لتطمس بخطر العنف إرادة الشعوب واختياراتها ولتصبح خطراً لفناء العالم. وهكذا، دفعت الثقـافة الغربية المجـردة من روح الإيمان بمعبود أعلى إلى إنتاج علم لا يهدف إلا إلى العلم نفسه، والمادة محتـواه الأول والأخير، كما دفعت إلى بروز فن لا يهدف إلا إلى ذاته في التعـري والتفسخ وابتـذال القيم والأخلاق، كما نشط في تشـويه الـوجود فتنـة بصوره المشهودة في الطبيعة والمخلوقات. وأصبحت الحيـاة في الغرب لا تهدف إلى شيء غير الوجودية والانسانوية والمادية والانحلال السلوكي والفكري.

وادعت الثقافة الغربية بذلك حصر الحيـاة في الضرورة والمصادفة أو في عاطفة لا طائل من ورائها، أو الـلامعقول، ونشأ عندهـا ما أطلق عليـه خرافة الغيبيـات ظن من جراء ذلك الادعاء القائل بموت الإله والانسان والكون والتاريخ.

وهكذا، فصلت الثقـافة الغربية بين العلـم والدين، وبين الوسائل والغـايات، وبين الدين والدولة، بل والحياة العـامة، وأخضعت كل حقيقة للمفاهيم الكمية، وسلكت منهج

الفـردانية الجزئيـة، وجعلت الأفراد محور كل شيء، وأدى ذلـك إلى إدماج المثـال بالـواقع بين الأفراد، واعتبرت كل نظام توازناً موقتاً بين أطماعهم المتنافسة.

إننـا، كإســلاميين معـاصرين ورواد بعث حضـاري منشـود، ينبغـي علينـا محاربـة الاتجاهات الغربية المزدوجة بالمنطق الملتـزم الوقائع والبراهين التاريخية والعلمية، إذ إنها تمنعنا، وتمنع الآخرين من أهل الثقافات الأخرى، من فهم الحاضر وبنـاء المستقبل بوعي رسالة الدين وتشريعاته وتصوراته للانسان والحياة والكون.

إن قضية العـالمية الرساليـة يمكن أن نخاطب ونحاور بها الغـرب والكنيسة، وهي من القضايـا التي يمكننا طرحهـا لأنها خاصة جاذبـة لمشاعر فطـرة البشر، ولأن المسلمين والحمد لله، وإن أصابهم المرض والإرهاق، فهم لم يؤسسوا أصـلاً عقدياً للمرض العرقي أو اللوني أو الطبقي أو القطري. فعـالمية الانسان وصلـة البشر قاطبة، جنـوباً وشمالاً، سوداً وبيضـاً، أياً كـانت أعـراقهم وألـوانهم، وأياً كـانت طبقـاتهم في المعـاش، هي من أصل قضيـةِ التـدين، يتساوون عند الله لا يفضل بعضهم على بعض إلا بالتقوى.

والعالم اليـوم مهما حاول أن يستأثر الأغنيـاء فيه أو البيض الشماليون بنـاصيتهم وقوتهم وعلمهم الـدنيـوي، يسعى لأن يصل بعضـه ببعض، ويمكن لنـا أن نقدم تـأصيلاً جـديـداً للعـالمية نصلح بـه النظـام العـالمي والمنظمات العالميـة القـائمة كلهـا على مبـادىء ليست من الدستورية أو العدالـة في شيء مما برز فيها بسبب قطع العلاقة مع النظام الربـاني وما جرّته من فوضوية وطغيان وضعي.

من قضايا الحوار: مستقبل البشرية

إن أبلغ رسالة يمكن أن نحـاور بها الغرب هي الحديث عن مستقبل البشرية ومستقبل العالم وتطـوره، ذلك أنهم قد أصابتهم شهـوة الاستئثار بـالثروة لا يقاسمـونا إياهـا، وبالعلم يريـدون أن يحتكروا التقنية العاليـة، وقد أسكرتهم محبـة استغلال مواردنا وحفظهـا وتسخيرها لمصالحهم. ويمكننـا أن نحذر من خطـر هذه الأمـراض التي تصيب الناس في العـالم ونقدم

علاجها. إن المسلمين فرطوا تفريطاً كبيراً في دينهم ونظمهم وفكرهم. فلا بد لنا الآن أن نعتذر أولاً، ونسعى لتقديم نماذج تعبِّر حقاً عن الدين الإسلامي؛ ولا معنى للحوار إذا لم نستطع تنزيل معاني الدين على واقعنا المعاش، ذلك أن المال وحده لا يجدي نفعاً لدى الآخر إلا باقترانه بالسلوك الذي يجعل المسلمين قدوة وأسوة للآخرين يمثلون لهم الذي يدعون إليه في حياتهم.

والمسلمون ليس في كتابهم اليوم ولا في أدبهم أصلاً شيء قريب من أن يعبر عما تدعو إليه القيم الإسلامية كالشورى، وعن معنى التوبة بالاقتصاد إلى الدين نحو عبادة ومعاش ومعاملات عدل وتقوى، ذلك أن الاقتصاد والسياسة والعلم التي خرجت كان خروجها عندنا نسياناً وفسوقاً وفجوراً عملياً. ونحن مطالبون الآن بتقديم نماذجنا التي تعبرُ عن إسلامنا، ذلك أننا إذا تركنا الساحة للشيطان أو للغرب واستعذنا بالله، فإن الساحة تتسع بعد انسحابنا منها لمن تركناها له يتمدد فيها وينشر العدوى للعالم.

وينبغي لنا ألا ننتظر في محاورة الآخر أن يبادرنا ويستفزنا حواره، بل يجب أن نحاوره حتى لو أدركنا أننا لا نحسن الحوار. وينبغي أن نستدرك ما فرطنا فيه ونحاوله حتى نقومه. والقرآن نفسه لم يكتبه الله (سبحانه وتعالى) علينا هكذا مرة واحدة مخطوطاً في ألواح، كما فعل مع موسى (عليه السلام). ولكن القرآن كان ينزل منجماً ليقابل الحاجة قائمة، ويجاوب السؤال (يسألونك) كأنه يرجى الذي لم يبلغه الهدى حتى يستفيد متسائلاً وينفتح على الإجابة يتلقاها.

في فقه الحوار

إننا لن نقيم المثال الإسلامي وننزل الدين بكامله على واقع نظمنا الحياتية ولن نفعل ذلك إلا بدافع الحوار نفسه لأننا إذا أقمنا الحوار وبدأوا يطعنون فينا وفي نماذجنا ويجادلوننا كيف نخاطب عن الشورى مثلاً وليس بيننا سوى نظم لا شورى فيها، فهذا سيضطرنا إلى إقامة الشورى وإحسانها.

فالفـرد منا إذا قـدم لإمامة الصـلاة يجتهد أن يقرأ على الآخـرين ما يحفظ ويجوِّد قـراءته ويحسن صـلاته . أما إذا لم يقـدم إلى الصلاة ، فقـد يتكل على الإمام ، وأحيـاناً قـد يغفل عن صـلاته مـا دام يركع مع الآخـرين ، حتى إنـه ربما لا يحسب عدد الـركعات . وكـذلك يمكن الإشارة إلى أن أكثر الحركـات الإسلامية قوة كانت هي التي انشغلت بهذه القضـايا لأنها كانت الأكثر تعـرضاً لـلآخر يسـائلها ويطعن في دعـوتها ، وذلك اضطرهـا أولاً أن تتهيأ بجـدلياتها لتدحض حجج الغرب ، ثم حاولت بواقعها أن تمثِّل القيم الإسلامية وتنزلها حتى تثبت للآخر مثالاً لما تـدعوه إليـه . والمثال في صراع الحضـارات دائماً أبلغ من المقـال . والحضارات الكبرى كانت هي التي خرجت على الناس بمثالها ونماذجهـا الكاملة . . . وهكذا ، خرج المسلمون في العصر الـوسيط بنماذج جـديدة لينشروا الإسـلام في العـالم ، وجـادلوا وغنمـوا بحـوارهـم ذلك الكثيرين في صفهم .

وقد تكون الحركة الإسلاميـة الحديثة هي التي تدرك مغازي الحوار وتنظم مجاريه ، لكن يحسن ألا تتولاه هي وحـدها لأنها تثير عنـد الآخرين المخاوف الغـربية منهـا ، لا قضية الحوار المعين الذي تطرحه . أما أن تتهيأ بقوة تحفظ بها آثـار الحوار ، فذلك أمر طبيعي . فالحوار يدعو إلى تمثل معانيـه ، كما قدمنا ، لكي نستطـع أن نضرب مثالاً ، لكن يجب علينا ألا نـؤخر الحوار حتى نعقل ذلك ، بل يجب محاورة الآخـر ، وقد يضطـرنـا ذلك وسيضطـرنـا أن نسارع إلى اللـه بالمثل ، وكذلك أمـر القوة ، فمن الجدال إلى القتال لا تكاد تنقطع الحياة أبداً . فأحيـاناً يعجز المرء عن إظهار حجـة عليك ، كما عجز الناس أمـام الأنبياء الـذين دعوهم إلى أن يعمل كل على مكانته دون أن يؤذي أخاه ، فيضطر بذلك أن يؤذيك أو يفتنك أو يقتلك ، فنجد أنفسنا ، عندئذ ، مضطرين ، لا أن نحمي أنفسنا بالحجج فحسب ، بل أن نحمي حياتنا بالقوة أيضاً ، كما أن الخوف من القوة يثير عند الآخـرين دعوة الحوار . وما أحسب بلداً كـالسودان في أقصى الجنوب العالمي يتـاح له أن يخاطب أكثر من مؤسسـة ومجتمع ومنظمة دولية لولا أنـه قدم ثورة إسلاميـة ، ويبدو عليه أنـه يمثل قوة الدولـة والثورة المعاصرة بكل مـا تثيره من مخاوف ومخاطر انفتحت أمامها كل الأبواب . وإذا كنا نحن لا نهاب الآخر ولا نخـافه ولا نأبه له وتتفتح أمامه

كل المسـامع ، وإذا كـان الآخر لا يـرهبك ولا يهابك ولا يأبـه لك ، فلماذا لا يستمع إليك ويحاورك وتبلغه؟ وحسب المرء ألا يريد لوقعه عند الآخر أن يكون مخافة فحسب ، بل ينبغي أن يستغل تلك السانحـة لإبلاغ الخطـاب . والله (سبحانـه وتعالى) دائماً تنفتح لـه أذن الانسان وقلبه عندما يمسه خطر الضر والمصيبة فيلجأ إلى الله ويخفق قلبه من التوجس خيفة ليستمع . إنني أرى أن الحوار شعبة من حياة التوحيد حيث الحيـاة كلها لله ، يعبد المؤمن ويفيض بها آتاه الله على الناس بلاغاً وصدقة وعوناً ليـوحد حياته وحياتهم لله . ويعلم المسلم أنه إذا تقدم إلى الله (سبحانه وتعالى) بالصلاة تنفعه ، كان أفضلها أن يسهم مع الجماعة وفي الحكم بالنصيحة والشورى ، وفي الاقتصاد بالمعاملة والصـدقة ، وهكذا في كل شيء . وكذلك الحوار ينفع سائر شؤون الحركة الإسلاميـة الحديثة ، ينفعها لا في أن تحاور الآخر وتُؤجر بأداء أمانـة الرسالة ، بل أيضاً في أن يقـويها الحوار حجة وإيماناً وحصـانة للعدوى والفتنة . والحيـاة كلها العابـدة لله تتناصر شعـابها وتندفع منظومتهـا لله تعالى . ويبـارك الله آثـارها من حيث يحتسب المرء ومن حيث لا يحتسب . وعسى أن نكره بعض آثار الحوار ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ويلقي الرعب في قلوب الذين كفـروا . ولو لم يقذف الرعب في العـرب من الرسول محمد (ص) ، ولـو لم تروج له دعاية أعدائه فتثبته أن غريباً يدعو إلى حديث عجباً ويحسن الكلام كأنه شاعر ، لعله لولا ذلك لما انجذب الناس إلى الدعوة وحاوروها وآمنوا بها ؛ ومن جنس ذلك تجربتي مع الإعلام الغربي المعـاصر حتى إنني ابتسم وداً لأهل ذلك الإعلام يقـولون للقـارىء يسحرك بـابتسامتـه كأنهم يقولـون إني ساحـر . وعندمـا أتحدث إليهم بلغتهم ، إنكليزيـة أو فرنسيـة ، يقولـون إنه يحسن اللغات كأني شـاعر أحسن الخطاب . والقـرآن نجد فيـه دليلاً مباشراً لكل مـا يصيبنا وينبغي علينا في حيـاتنا الآن . إن تـرك المضي بالدين نحـو التسامي الإلهي ونضـوب الإيمان في الحياة ، وأخذ المنهج التجـريبي وتقنيات العلوم في الحضـارة الغربية هو الـذي ولّد لدى أهلهـا النظرة المادية الوضعية ذات البعد النفعي فحسب .

ذلك ما دام التطـور الكمي والتراكمي لمتاع الـدنيا الذي أصبح في حـد ذاته ، من دون الرجوع إلى فطـرة الانسان وتفتحه الكوني وإرادتـه الحرة ورسالته في الكون ، ومـا دام الدين من

حيث هو خطاب لـلانسان وكسب منه، واقعاً في الإطار الظرفي، فـلا بد أن يعتريه شيء من أحوال الـواقعات الكونيـة. ولكنه ـ من حيث هـو صلة وسبب للآخـرة متعلق بالأزل المطلق الثابت ـ إنما يؤسس على أصول وسنن لا تتحول ولا تتبدل. وهو بهذا وذاك قائم على رد الشأن الظرفي المتحول إلى محور الحق الثابت، ورد الفعل الزمني إلى المقصد اللانهائي. فحركة التحول الدائبة في ظروف الحياة تـوشك أن تحول الانسان عن الحق المطلق، فيلزم ديناً من ثم أن تقع له أو منه حركـة دائبة مجاوبة تصحح وجهته وتقدم سيره لئـلا ينحرف بتدينه الـواقع عن سنة الله المطلـوبة. فإذا كـان الاعتراض الذي يبـديه المثقفـون الغربيـون غالبـاً ما ينحصر في القـوانين والتشريعـات الإسلاميـة التي صيغت بصفـة نهائيـة في القرآن، وكـون محمـد (ص) هو آخـر الرسل، أليس في ذلك حكم على المجتمع والدولة بالجمود وعدم الفاعلية الحركية؟ والصحيح أنه مثلما قـدَّر الله أن تجدد الشرائع قديماً، وجعل ذلك بوحي من عنـده منوطاً تبليغه بـالرسل الذين انقطع تكليفهم بالرسـالة المحمدية، قدَّر أن يؤول تجديد فقـه الشريعة الخاتمة وأمرها إلى قادة التجـديد وحركاتـه الإجتهادية بتـوفيق منه تعالى. وكما كانت تثبت أصـول الشرائع تحييها وتصدقها الرسـالات المتواترة، ثم تتباين فروعها لتفي بحـاجة تكيف الواقع الجديد مع الحق، كـذلك احتـوت الشريعـة الخاتمة على أصـول ثبات يحييهـا المجـددون كلما مـاتت في نفـوس المؤمنين، وأصـول مـرنة تنتج لهم من داخل إطـارهـا ذلك التكيف المتـوالي. وكما لم يكن تجدد صور الخطاب الشرعي عبر الـرسالات المتعاقبة تبـديلاً لأصول الدين الـواحد، ولم يكن تطور الرسالـة الخاتمة عبر أطوار بناء المجتمع عهد التنزيل تبديـلاً، فإن تكيف صور التعبير الديني إزاء التطـورات المادية والاجتماعيـة بما يحفظ الـواجهة الثـابتة، إنما هـو صـورة لاتصال الـدين ووحدته عبر الزمن.

والشريعة بـذلك لم تأت تقريـرات مطلقة، بل تنزلت أحكـاماً حيـة على واقع متحرك منسوبة إلى أسبابه وأحداثـه، موصولة بالمقاصد المبتغاة فيه، فتناط معـانيها وأحكامها بأوضاع في الوجـود أو بمعان في الانسان والمجتمع ثابتـة لا تحول، بينما تناط أحيانـاً بقاعدة ظرفيـة قد تثبت وقد تـزول فتزول معهـا الأحكام. وتجيء المعاني والأحكـام أحيانـاً بتعبير عام متسع يتيح

تصورها في الفكر أو استشعـارها في الوجدان أو تمثيلها في الواقع بصـور شتى بحسب ما يؤاتي المؤمنين في الظروف الخاصـة، بل قد تجيء الأحكام أحيـاناً نـاصبة للمؤمنين مقصـداً واجباً، تاركـة لهم وسائل تحقيقه عفواً، حسبما تهيأ لهم في كـل زمان، وتجيء المعاني هاديـة إلى موقف إيمان كلي، تاركة لهم تفصيلاته وتأويلاتـه ووجوه التجادل فيه أو التفاعل معه، حسبما يقتضي الابتلاء الظـرفي المعين. فما دام التطور أمراً لازماً في فكـر البشر ووضعهم، فإن شرط الثبات لا يتحقق إلا في الشريعة الربـانية لأن أصلها من قيوم متعال لا ينفعل بتغير الظـروف وشرعه هو الحق المطلق الثابت الـذي لا ينتسخ ولا يأتيه البـاطل من بين يديه ولا من خلفـه. فما كان في الشريعة من المعـاني القطعية المحكمـة في نصوص الوحي والسنـة، فذلك هـو الهدى المستقر الذي يصلح الانسان في كل زمان ومكان، وهـو التكليف الثابت الذي لا يقبل التحريف ولا التبديل. ولكن في الشريعة الثابتة ما يفي بشرط المرونة وما يراعي الظروف العملية المتبدلة.

فالشريعة، إذاً، أحكـام قطعية بينة هي الحدود والثوابت للحياة الدينيـة، وتوجيهات عامة مرنة المعالم التي يتحراها الاجتهاد «الفقهي» وتهتدي بها السياسة الشرعية العملية لتحقيق مقتضى الدين في الواقع المتجدد وفي أحداثه «المعينة».

ولما كان التـدين ـ نظراً وعمـلاً ـ كسباً متجدداً، فإن الفقيـه الأصولي تتجدد منـاهجه وأدواته العلميـة وتتطور طـرائقه الفنيـة، وتتعمق مفـاهيمه الإجتهـادية بقـدر ما تنمـو خبرته العملية، وتتسع ثقافتـه العلمية، وبقدر ما تـزداد القضايا والمشكلات الـواقعية التي يتصدى لمعـالجتهـا وتكييفها، وفق مقتضى الـدين الـذي يكيف الحيـاة العـامة في مجالات السيـاسـة والاجتماع والاقتصاد والعلاقات الدولية.

٢ ـ الخطاب السياسي

الشورى في الإسلام حكم يصدر عن أصول الديـن وقواعده الكلية قبل أن تقرره الأدلة الشرعيـة من نصوص الشرع. فمن عقيـدة التوحيـد إسلام الـربوبيـة والحكم والسلطة للـه، والإنكـار لكل سلطة إلا بمقتضى الخلافـة والعطاء من اللـه، والإيمان بأن البشر سواسيـة في

العبـوديــة للـه . وبـذلك يتحقـق التحـرر السيـاسي الــذي يستلـزمـه نظــام الشــورى (أو الديموقراطية)، إذ يصبح الناس قاطبة هم المستخلفون على سلطة الأرض، ولكل منهـم نصيبه المستحق من السلطة؛ كل ذلك موقف تلقائي بعد أن يـؤمن الناس بالله ويتحرروا من التعبد وإسناد السلطة المطلقة للملك أو الوالي أو القوة السياسية المتمكنة.

هكذا، فإن أزمـة نظام الشـورى أو (الديموقـراطية) في مجتمعـات المسلمين لن تعالج بأشكال دستـورية تضفي على نظـام السلطان إلا أن يـؤصل الأمر ويؤسس على أصـل الدين المنيع. وبالإسلام تصبح السلطة خلافة مسؤولة في الأرض تحتملها الجماعة ولا تكلها إلى فرد أو فئة. وبالإسلام تكون الشورى نظام حياة شاملاً لا ممارسة سياسية محدودة.

والسلطة ـ بما فيها من غرور القـوة وشهوة العلو في الأرض وحمية الاستكبار على الخلق ـ هي من أكبر ابتلاءات الدنيا وأخطر الفاتنات عن الدين وأولى الفاسقات عن الشرع. فلا أشد إغواء من طاغوت السلطان أو أدعى للشقاق من أهواء الملك.

كانت تلك عبرة النصـارى الذين نسوا لأول تاريخهم حظـاً مما ذكروا به، وفـرقوا دينهم فأغرى الله العداوة والبغضاء بين شتى شيعهم المستظهرة بالسلطان، ثم حصروا الدين لأوسط تاريخهم في كنيسة صاغتها التقاليد الوضعية، وقام أهلها يتألهون من دون الله، ويأكلون أموال الناس بالباطل، وقـام في وجههم الملوك والثوار بمدهم بدفع متعاظم من التـوجهات الفاجرة عن الدين، واحتدم الصراع حتى ظهرت الدولة على الكنيسـة ومرقت السياسة من الدين تقود موكب انسلاخ متكامل بالاقتصاد والعلم والفن والحضارة جميعاً.

والدولـة وقوانينهـا ومؤسساتها، وهكـذا حالها، لن تكون لها الفـاعلية المطلـوبة، ولن تحقق نجاحاً يظهر في بناء المجتمع وتقدمه، إذا لم تؤسس على ثقافة الأمة فتكون تجسيداً لقيمها وتطلعاتها. وإذا قامت الدولة بغير هذا الوجه، فإنها ترتد إلى أن تكون أداة تفكيك وهدم للبناء الاجتماعي، إذ أصبحت أكبر جهـاز من أجهـزة التأثير والتربيـة تبسط سلطـانها على النـاس كافة.

ولا غـرابــة، من بعـد ذلك، أن تــؤول كل أشكـال التمثيل السيــاسي وإجـراءات الديموقراطية وشعاراتها وتعديد التنظيهات الحزبية وتنويعها إلى مجرد حالات استعراضية زائفة، إذ تتحكم في العملية السيـاسية دعايات التضليل وعصبيـة الطائفية والعشائريـة، والولاءات الشخصية للـزعامـات، دون البرامج والمبادىء والأفكـار. ويصبح الحال غير ذي جدوى أن نبحث هنا وهنـاك عن معالجات جزئيـة لأوضاع الاستبداد والكبت التي يمارسهـا الحكام على الرعية مهما تذرعنـا بمقولات حقوق الانسان وروجنا لشعارات الحريـة، إذ لا قيمة لهذه المعاني ما لم يتأصل نظامنا السياسي كله بالصورة التي تجعله امتداداً طبيعياً للأمة ومستجيباً لتطلعاتها وأشواقها.

والدولـة القطريـة التي تعنينا مواقـف الصحوة منها أو آثـارها فيهـا إنما نقصد بها مجرد الشكل الإقليمي الذي اتخذه الكيـان السلطاني في مجتمع تتنـازعه عروبتـه وإسلامـه نحو قيم الوحـدة المتجاوزة لحدود الإقليم. وذلك يسوق الكلام أحيـاناً إلى المذهبية الوطنيـة التي تتجه بالناس إلى التوحيد، لكن على أساس ذاتهم القومية ليس إلا.

إن وقائع التاريخ وحقـائق الاجتماع في سيرة الحضارة الإسلامية تبرز لنـا المفارقة الحادة بين الدولة القطـرية التي هذا شأنها وبين دولـة العرب الأولى في المدينة المنورة التي كـان يقودها رسـول اللـه (ص) ويخلفه على قيـادتها أئمـة راشـدون. إن من أوجب الـواجبات علينـا هـو الإعتذار عن تلك المفـارقات التاريخيـة والاجتماعية والسعي لإعـادة تمثيل ذلك الواقع الأول بما يتناسب مع العصر الراهن.

فدولة المدينـة، على محلية واقعها، كانت عالميـة التوجه. وكانت تتجـه لتجاوز واقعها العصري لأن أهلهـا يـؤمنـون أنهم حلقـة في سلسلـة أمـة الإسـلام التي تعـاقب بها المرسلـون السابقون، وكـانت تتجه لتجاوز واقعها الإقليمـي شعوراً لأن أهلها كانوا منفعلين بالصراعات العالميـة بين الفرس والروم، فضلاً عن صراعـاتهم الاقتصادية والسيـاسية والدينية عمـوماً مع قريش وحلفـائها، وعـلاقاتهم بالمسلمين الـذين لم يهاجروا، وبـالقبائل المائلـة لأن تدخل في

حلفهم وسلطانهم. والدولة فوق هذا كانت تجسد ارتكازة الإنطلاق نحو العرب والناس كافة لأنها كانت دولة رسالة مندفعة برساليتها.

مهما كانت الظروف التاريخية التي حكمت علاقة الصحوة الإسلامية بواقع الدولة القطرية، فإن المغزى العام لنشأة الصحوة وتطورها يصب قطعاً في اتجاه الوحدة وتجاوز القطرية. والصحوة نفسها ظاهرة وراء الحدود هي بمضمونها الإسلامي ظاهرة مثالية دينية. والدين من عند المطلق لا يعرف حدود الزمان أو المكان أو الجنس أو الطبقة. فالمسلمون منشدّون أبداً نحو محور الأمة الواحد من إيمانهم بوحدة الإله ووحدة المبتدأ ووحدة المصير الانساني، ووحدة مغزى الحياة تكليفاً وابتلاء من الله وعبادة وجزاء على الصبر، ووحدة برنامجها شريعة ووحدة حركتها أخوة ومشاركة في العلم والمال والسلطة.

وفي هذا السياق العام للخطاب السياسي الذي يوجب علينا الاعتذار عن واقعنا التاريخي، ويدفعنا إلى إعادة تأسيس الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي، ولا يوجهنا لتبني مواقف الغرب، بل يدعونا إلى التركيز على قضايا الحرية والشورى أو الديموقراطية، وتشعيب تلك القضايا بما يخدم دعوة الحوار مع الغرب.

استراتيجية الحوار مع الغرب

وفي هذا المعنى، لو قدر لي رسم استراتيجية منظومة شاملة للحوار مع الغرب، يمكن أن أقول إن المحاور التي يجب أن ننطلق منها هي الآتية :

دواعي الحوار ومبرراته

أ ـ إنه ضرورة شرعية لتبليغ الرسالة وحمل أمانة الدعوة. فالأصل هو التفاعل التبليغي وعدم جواز السكون.

ب ـ وضرورة عملية يفرضها الواقع العالمي القائم على الإتصال والتفاعل والإعتماد المشترك بين الأمم والشعوب والجماعات والحركات، مما يوجب علينا فهم الآخرين وتفهم

واقعهم ومعرفة الحقائق للتعامل معها .

ج ـ إنـه ضرورة لبناء مستقبل الأمة ، ذلك أن فهم مقـاصد الدين وتجسيـد روح التدين الحقيقي يدعوانا إلى الانفتاح على قواعد تأخذ في الحسبان خلاصة التجارب الانسانية والسعي لتأصيلها .

إطار الحوار وطبيعة العلاقة

أ ـ العلاقة النظرية والعلاقات الدولية .

ب ـ العلاقة الواقعية بصورها المختلفة ومراحلها ونماذجها .

قضايا الحوار

أ ـ الخطاب الثقافي الحضاري

ـ تاريخ النهضة الإسلامية والانحطاط الحضاري .

ـ حوار الحضارات قديماً واتصالها .

ـ الإيمان والحياة .

الدين ومثار قضية التجديد ودواعيه :

ـ الدين الثابت والتدين المتطور.

ـ عبرة تتابع الرسالات .

ـ التقليد الحضاري الإسلامي بين التقليد والتجديد .

ـ الطريق إلى الثورة السياسية والفكرية .

ـ أصول الفقه وحركة الإسلام من الواقع الحديث .

ـ منهجية التشريع الإسلامي وتنزيلها على الواقع المتجدد .

ب ـ الخطاب السياسي

المجتمع الإسلامي وأبعاده السياسية :

ـ عيب الشرعية السياسية .

ـ زيف التمثيل السياسي

ـ انفراط الوحدة السياسية .

ـ كبت الحرية والشورى .

ـ تضخم السلطان .

ـ الظلم السياسي .

ـ الفساد السياسي .

ـ الإضطراب السياسي .

ـ الفشل السياسي .

النظام السياسي في الإسلام :

ـ تغيير الانسان (الدعوة والتزكية) .

ـ تغيير المجتمع (التنظيم والحركة) .

ـ تغيير الواقع (الجهاد والحكم) .

ـ الشورى والديموقراطية .

ـ الصحوة الإسلامية والدولة القطرية .

ـ مشكلات تطبيق الشريعة .

ـ النظام الدولي الجديد (رؤية إسلامية) .

ج ـ الخطاب الاقتصادي

ـ فلسفة الإعتماد على النفس وتعبئة الطاقات .

ـ استغلال الموارد المحلية والسيطرة عليها وتوجيهها .

ـ استنباط التكنولوجيا محلياً وتطويرها .

ـ دور المصارف الإسلامية في دفع عجلة الاقتصاد .

ـ العدالة في المعاش والثروة .

ـ قضايا الجوع والفقر والإنتاج .

ـ الزكاة والتكافل والجهد الطوعي في الدولة الإسلامية .

د ـ الخطاب الإعلامي

ـ قيم الرسالة الإعلامية .

ـ دور الإعلام في صياغة الواقع وتشكيله .

ـ دور الإعلام في تبليغ رسالة الدولة الإسلامية .

ـ الغزو الإعلامي الخارجي وكيفية تجاوزه والرد عليه .

هـ ـ الخطاب الإجتماعي

ـ قضايا الأسرة والمرأة .

ـ الجريمة والأمن الاجتماعي

ـ اتصال المجتمع وآليات تسخير الجهود وتوجيهها للبناء والتعمير.

و ـ الخطاب الفني والرياضي

ـ رسالة الفن في بناء القيم الجمالية .

ـ رسالة الرياضة التبليغية .

ـ تأصيل الفنون والألعاب الرياضية .

وسائل الحوار

أ ـ بناء النماذج العملية والعلمية مقالاً ومثالاً حتى تعطي القدوة الحسنة .

ب ـ أساليب الخطاب ومنابره : المؤتمرات والندوات والكتب والصحف والمجلات وتبادل الزيارات والإذاعة والتلفاز.

ج ـ تعبئة شعاب الاتصال كافة لإدارة مسالك لحوار شامل وراء أغراض التجارة والسياسة والرياضة والفن والتبادل العلمي والثقافي والاقتصادي .

د ـ انشاء مراكز إسلامية ومساجد لنشر العقيدة والثقافة الإسلامية في الغرب .

هـ ـ تنسيق المبادرات لتعديد الاتصال والنشر والحضور المستمر في الإعلام الغربي وتنظيم معارض ومهرجانات ودورات لتعليم اللغة العربية تساهم في انتشار الإيمان وثقافة الإسلام .

خاتمة

نحن مطمئنون الآن إلى أن العالم الغربي يتقدم إلى مرحلة تحيط به فيها الحيرة في حياته . فقد كان بالأمس منشغلاً بقضايا المنهج الاقتصادي وبالصراع الحزبي والعصبي والقومي والطبقي ، وبقضايا الصراع العسكري والإيديولوجي العالمي وكيفية تأسيسه للسياسة العالمية ، إلا أن ذلك انتهى الآن أو كاد، وبدأ الغرب نفسه مشغولاً بقضايا الحياة الجنسية والجريمة ومتاع اللهو المسكر، يحاول أن يضيع نفسه فيها . إن هناك قطاعات كثيرة جداً تعيش الآن ذلك الخواء الذي يجعلها تستشعر حاجة الانسان إلى الإيمان والمعنى وإدراك المعنى والغاية للحياة . إذا استشعر الغرب الحيرة في حياته ، فهو بذلك يكون أكثر استعداداً لأن يتلقى من الآخرين أن

يهدوا إليه رسالة جديدة تُشعر أهله بمعنى الحياة وغاياتها. لذلك، ينبغي أن نخطط لحوار شامل يأخذ به كل مجتمعنا الإسلامي ليخاطب كل طبقات مجتمعاتهم، وبذلك نكون قد تمكنا من المخاطبة والحوار والتفاعل مع المجتمع كافة، ودخلنا عليهم الثغور والمداخل العلمية والثقافية والأمنية والديبلوماسية والسياسية والاقتصادية والفنية كافة.

ولا نريد أن نقول إن منظومة صلتنا بالآخرين وخطتها هي حوار؛ وحوار فحسب، ولكن نقول إن الحوار هو أصلها الذي يجب أن يتخلل كل العلاقات التي لا بد أن نقدِّر محاولة توظيفها وإدراجها في سياق استراتيجي يخدم غاياتنا، وتكون نموذجاً متكاملاً يدعو الناس بمثاله لا بمقاله فحسب. إن ذلك يدعونا، بالضرورة، إلى أن نكون أقوياء، كذلك حتى، إذا غالبناهم بالحجة لا يقدمون علينا يستأصلوننا وحتى يخافوا منا بعض الشيء ويتيقنوا الرهبة من إيماننا فيستمعوا إلينا ويهتموا بأمرنا ويدركوا أنه لن يجديهم أبداً إسكاتنا بالقوة، وكذلك كان الأنبياء دائماً في طرحهم لحرية الحوار مع الآخرين الذين كانوا يردون عليهم لنخرجنكم ولنرجمنكم ولنقذفنكم، ولا بد أن نتعرض نحن لذلك أيضاً، كما ينبغي علينا كإسلاميين أن نقدّر أن العلاقة مع الغرب ليست مادية فقط لكوننا فقراء نريد أن نتبادل معهم المصالح الاقتصادية والخبرات الفنية. فمن خلال تبادل تلك المنافع العاجلة لا بد من تبادل منافع الآخرة.

إن استراتيجية الحركة الإسلامية الحديثة في تمكين الدين في مسالك حياتها كافة وتقوية نفسها بالإسلام في تعاملها مع الآخرين تفتح ذلك الحوار. فإذا كانوا يحتاجون إلى أموالنا وثرواتنا، ويريدوننا ألا نعطيهم إلا بشروطهم كما لا يعطوننا هم أموالهم وحتى أموالنا المودعة عندهم إلا بشروطهم، فذلك سيجعلهم يستمعون إلينا، ويقبلون ما نعطيهم من ثروة وموارد مقرونة بالمعاني التي نؤلف بها قلوبهم.

ونحن نعرف أن الغرب وخصوصاً الأميركيين، ينفعل بكراهية المسلمين، ولذلك لا بد من خطاب خاص لهم. ونعلم، كذلك، دور اليهود وغاياتهم وقضاياهم ومخططاتهم وتأثيرهم

في النصارى وسيطرتهم على الإعلام الغربي وتوظيفه بما يخدم مصالحهم، وهذا يدعونا إلى تحسين الخطاب وتصويبه نحو العلاقة الدعوية، بما يناسبها ويتناسب مع أغراض كل شعب تعنيه وتاريخ علاقاته معنا التي يمكن أن نجعله ينفعل بها إزاءنا.

فأميركا، مثلاً، مجتمع أسس على القوة، واستأصل بها أهل الوطن الأصلاء، واستعبد السود، وسخر طاقاتهم، وسلب أموالهم، وحتى إذا ما حررهم ذلك التحرير النظري والشكلي ما زالوا يعانون ويشتكون. لذلك، نجد الأميركيين من المجتمعات التي عاشت على العنف، وتؤمن بالواقع فقط، وتأخذ بالذرائعية والبراغماتية كفلسفة وعقيدة لها في الحياة. وذلك يدعونا إلى أن نخاطبهم بالواقعيات ليفهموا أننا ندرك من هم وكيف يمكن وصل التفاهم وتصويب حديثنا بما يعنيهم ويهديهم إلى الحق الذي يمنحهم الحرية والخلاص والمصلحة.

ولن يجدينا مع الغرب أن نحادثه بأن الإسلام خطر عليه في المستقبل، فلا بد أن يحترمه حتى لا ينقلب عليه، بل يجب إيصال رسالة الإسلام بأن نضرب له المثل والأسوة ونحسن إعداد القوة التي ترهب أعداء الدين والمشروع الإسلامي.

إن الغرب الآن أصبح منشغلاً بقضية الصراع الثقافي بعدما ظن لوقت طويل أنه قد طغى على المسلمين وثقافتهم وأبدلها بثقافته. فقد خيب ظنه خروج أولئك الأموات بالأمس أحياء اليوم بالإسلام والإيمان ومن داخل الجامعات الغربية والمناهج الغربية التي عوّل الغرب على صياغتها لهم، وتغذيتهم بما يريد لهم من علم وثقافة.

إن هؤلاء الذين ركز عليهم الغرب كانوا هم طلائع العودة إلى الإسلام والأوبة إلى الدين. وكانوا أكثر الناس استقلالاً عن الغرب وخبرة به، وأصبحوا يدعون بلادهم إلى استقلالها السياسي والاقتصادي والثقافي، ويجاهدون في ذلك. لكن كون الغرب لم يعجز في بسط القوة وفي نفوذ المال بقدر ما عجز عن استلاب ثقافة المسلمين، تراه اليوم مشغولاً بالغزو الفكري، ونرى أمثلة عديدة في ذلك كدعمه وتنشيطه لحركة التبشير المسيحي وهجمات الإعلام الغربي. وكثيرون من الكتّاب الغربيين أصبحوا يجندون أقلامهم للنيل من ديار الإسلام

والمسلمين. حتى أن آخر ما أطلقه أحد الكتاب المغمورين، ويدعى فوكوياما، الادعاء بنهاية التاريخ عند قمة تطور الحضـارة الغربية، مع أن ذلك الكاتب يعيش في مجتمع ينفعل بأصول عنف عرقي على أهله اليابانيين، وينبغي أن يدرك أن اسمه ووجهـه يعرضانه لذلك، وأنه مهما تعلم في الغرب وعايشه، فهو يدرك ماذا أصاب أهله من الأصول اليابانية الذين حملوا الجنسية الأميركية في الحرب الماضيـة، لكن تجاوز الأميركيون معهم مبدأ حـرية الانسان فأدخلـوا مئات الألوف منهم في الاعتقال إلى أن أنتهت الحرب. إنه خرج علينا بدعوته هذه اعتذاراً عن ماضي أصوله اليابانية، وهو يعبر عن ذلك، كما أراد سلمان رشدي في مكان آخر أن يعبر عن أنه أشد استمساكاً واعتصاماً بالغرب تبرءاً من قديمه الإسلامي. وهكذا، تملكت المارق سلمان رشدي العقدة نفسها، فأراد أن يقول إنه أشد هجوماً على الإسلام، حتى من الغربيين أنفسهم، لكن فوكوياما قدمها بوجه أكثر موضوعية واحتراماً، وسلمان قدمها بوجه محتقر في واقع الأمر.

أما أن يـدعي أحد أن الغرب وقف على نهاية التـاريخ، فهذه سنة التـاريخ التي جرت على الانسان. فاليهود قديماً كانوا يظنون أنهم نهاية الكون، والنصارى ظنوا مثلهم.

وأيما حضارة تنهض يظن انسـانها أنه وارث الأرض إلى نهاية التاريـخ، وهو الإله، كما ظن فرعون أنه الرب الأعلى، وأنه يملك كل شيء. إن هذه فتنة في فطرة الانسان وإيمانه بالله. فاذا كـان إيمانه ضعيفاً، صـار مفتوناً بـذلك. إننا أيضـاً لم نسلم من الشيء نفسه حين ادعى بعض فقهاء الإسلام أنهم استكملـوا الاجتهاد تماماً وأغلقوا بابه، فـانحطت بعد ذلك حضارة الإسلام بعـدما بلغ المسلمون تمام السلطان في الأرض. لكن اللـه (سبحانه وتعالى) علمنـا أنه يقلب الأيام ويداولها بين الناس. فأيما حضارة، مهما نهضت، ستنحط يوماً من الأيام بغرورها وفتورها. فحتى لو كانت تلك حضـارة الإسلام لا بد لها من التجديد، وإلا، فلماذا بعث الله نبياً بعـد نبي يجدد رسالـة السماء عندمـا ينقطع عنها الناس. أمـا في الرسـالة الخاتمة، فـالأمر يختلف. فما دامت الأصول محفـوظة لا بد أن تتجـدد يوماً بعـد يوم، وعلى كل مجتهد أن يعلم ويبشر بما يليه من مجتهـدين يأتون بعده، وألا يـدعي أنه قد فـرغ وبلغ الكمال. كذلك، على أولئك المتصوفة، أهل الطرق، ألا يقولوا هذه طرائقنا نختم بها الدلالة إلى الله ونسميها بأسمائنا

إلى يوم البعث ، بل على المجتهدة أن يمهدوا بمثالهم ويفتحوا الأبواب أمام كل اجتهاد إزاء كل فتنة جديدة . وعلى المتصوفة مثل ذلك ، ولا بد لكل مجاهد يفتح الأرض أن يبشر بمجاهد يأتي بعده يفتح ثغور جديدة يؤمنها بالإسلام كذلك .

إن بعض الحركات الإسلامية الحديثة لم تسلم من ذلك الادعاء التاريخي فادعت أنها لقنت الناس كل شيء ، وربتهم تماماً بالإسلام وعبأتهم بالشعارات ، كالإسلام دين ودولة ، والإسلام هو الحل . لكن يبدو الآن أن كثيراً من ذلك الأدب القديم قد تجاوزه الزمن ، وأصبحت مجاهدات الحركة الإسلامية الحديثة في كل شعاب الحياة ومسالكها منفتحة ونشطة ومتنامية . وغداً يغلب علينا ، بإذن الله ، استقبال الأيام ، متقدمين متوكلين أبداً بعدما ابتلانا الله قديماً بالتمكين فأخذنا الطغيان الفكري والحضاري ، وحسبنا أننا أجتهدنا في كل شيء وجاهدنا في كل صوب ، فلا معنى بعد ذلك للاجتهاد والجهاد والحضارة لأننا بلغنا فيها التمام .

إن الحركة الإسلامية تدرك الآن أنها ترث ، بعد ذلك الغرور ، الانحطاط الحضاري الذي نزل هاوية البعد من القيم الإسلامية ومن مستوى تبصرها والتعبير عنها وتمثيلها في الواقع . ولذلك ، فإن العاملين في الحركة الآن يعبئون الفكر كله للإجتهاد والتجديد ، ويعبئون الروح كلها بتبعة الإيمان والجهاد ، ويعبئون الحركة كلها لتنشط بعد الفتور والجمود الذي انتابها . لذا ، يجب النظر إلى الحوار مع أمثال فوكوياما هذا على أنه أحد أعراض الأمراض الغربية . فأميركا نفسها بدأت الآن تتخلف مادياً ، وتعجز عن أن تنفق من ثرواتها كما كانت بالأمس ، وهذه سنة الحياة . والغرب قد يكون الآن مغروراً بطغيانه الفكري والغسكري والاقتصادي ، إلا أنه سيصيبه الكسل والخمول الحضاري . واليوم نحن نرى اليابان تبز الغرب ، ونقدِّر أن الصين ، غداً ، بحجمها السكاني وسرعة قفزاتها المادية ، قد تكون واحدة من البلاد التي يتذكرها المسلمون ويتهيئون للحوار والتعامل معها أيضاً ، ذلك أنه ما من مواطن صيني على وجه البسيطة ، إلا وهو عامل نشط ، وأيما آلة تتيسر لهم يسخرونها بفاعلية ، وهم أكثر البلاد انفتاحاً على الأسواق الخارجية والتعاون التجاري واستقبالاً للمال الأجنبي

القـادم عليهم انفتاحـاً كامـلاً، أخذاً وعطـاء، ولديهم من القيم الحسنـة والمصداقيـة والثقل العالمي ما يوجب التفاعل معهم والحوار كذلك.

إن على المسلمين أن يكونـوا أكثر النـاس تخطيطاً للمستقبل مـا داموا مـؤمنين يخططون للآخـرة؛ فالآخـرة هي الأزل بغير نهاية. ويحق لنـا أن نجمع كل الزمـان ما وراء آدم حتى يوم القيـامة وننظمـه في استراتيجيـة واحدة، لكننـا الآن نأخـذ كل شيء من الغرب حتى الكلمـة (استراتيجية)، وينبغي علينا أن نوحد الزمان كله، ماضيه وحاضره ومستقبله. فعند الله تعالى ما من زمان. وكلما أقتربنا منـه تعالى لا بد أن يتوحد عندنا الزمـان كله، فلا ننظر إليه متكئين على ماضينا، عاجزين في حاضرنا، ومستأخرين متوجهين بالأماني نحو مستقبلنا، لكن علينا أن نصل التاريخ كله حياة واحـدة كما نصل الجغرافيا الأرضية بأمتنا الواحـدة، مؤمنين بتوحيد الله في وجداننا وساعين لتنزيل ذلك الإيمان ثورة توحيدية على أرض الواقع. ، وألاّ نقول لبشر شرقاً أو غرباً هذا بعيد منا، بل هـو جار وأخ في الله. والأمة الإسلامية ليست هي التي كانت في واقع تاريخي معين مسلمة، بل العالم الإسلامي ينبغي أن يسعى ليصبح هو أهل كل الأرض مـا دامت هي كلهـا لله تعـالى مشرقـاً ومغربـاً. ومـا دمنـا نحمل أمانـة الـدين الخاتمة ونحن مستخلفون عليها، فمسؤوليتنا هي مخاطبـة المسلمين خلفاً لسلفهم ومخاطبة الغرب وكل العالم كذلك، وسنسأل يوم القيامة ونحاسب إن لم نؤد الأمـانة وننقل الرسالة المحمدية إلى الغرب ثم إلى الشرق، والأرض شمالاً وجنوباً. وسوى أن الذي يلينا مبـاشرة هو الغرب نحاوره بالتي هي أحسن وأحكم لندفع نفوذه اللاديني الظالم علينا، ثم نهديه إلى الدين معنا، ثم لنركب قوته في التأثير في أهل الأرض لنسخرها وقوتنا، مستمدين القوة والهدى من رب العالمين.

تعريفات

ـ صامويل هانتنغتون

أستاذ كرسي أيتون لعلم السياسة ومدير معهد جون م. أولين للدراسات الاستراتيجية في جامعة هارفرد.

ـ فؤاد عجمي

أستاذ كرسي مجيد خدوري لدراسات الشرق الأوسط في مدرسة الدراسات الدولية المتقدمة، جامعة جون هوبكينز.

ـ كيشوري محبوباني

نائب وزير الخارجية وعميد كلية الخدمة المدنية، سنغافورة، عمل أخيراً في الخارج ممثلاً دائماً لسنغافورة لدى الأمم المتحدة (١٩٨٤ ـ ١٩٨٩).

ـ ليو بينيان

قيادي صيني منشق، وهو مدير «مبادرة برنستون في شأن الصين»، نيو جرسي.

ـ جين كيركباتريك

أستاذ كرسي ليفي في الحكم في جامعة جورج تاون وزميل أول في معهد المشروعات الأميركية.

ـ وجيه كوثراني

أستاذ التاريخ في الجامعة اللبنانية.

ـ محجوب عمر

مفكر مصري مختص بالقضية الفلسطينية ـ القاهرة.

ـ حسن عبد الله الترابي

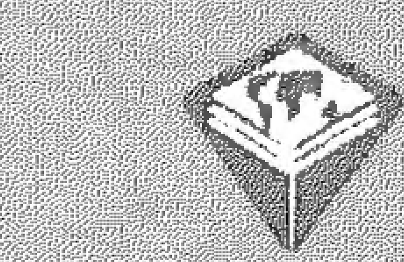
الأمين العام للمؤتمر الشعبي العربي والإسلامي.





يستعيد هـذا الإصدار الخاص ملف المنـاظرة في شأن «صـدام الحضـارات» الذي سبق أن نشرتـه مجلـة شؤون الأوسط على مراحل في أعدادها ٢٦ و ٣٠ و٣٦ .
ويضم هذا الملف مقالة صـامويل هانتنغتون «الصدام بين الحضـارات» التي نشرت في دوريـة «فـورين أفيرز» (Foreign Affairs, Summer 1993) والتي كانت الشرارة التي أطلقت المناقشة حـول الموضوع ، واستدعت ردوداً من اتجاهـات ومواقع مختلفـة في أميركـا وأوروبا والعـالم الثـالث ، ثم يلي أهم الردود التي صـدرت في الولايـات المتحـدة الأميركية على مقـولـة صدام الحضـارات والتي نشرتها أيضاً «فورين أفيرز» (Foreign Affairs, December 1993) ، وكـذلك رد هـانتنغتـون على الـردود على مقالته الأولى ، والذي يؤكد فيه ما سبق له أن أعلنه في ما يتعلق بـالأبعـاد الاستراتيجيـة لصراع الحضـارات / الثقافات في مرحلة ما بعد الحرب الباردة .

وقد عمدت مجلة شؤون الأوسط إلى الطلب من عـدد من الكتّاب والبـاحثين العرب والمسلمين تقـديم مساهمات حول الموضوع نفسه .



مركز الدراسات الاستراتيجية
والبحوث والتوثيق